زينب الكبرى عليها السلام

بطلة الحرية

تأليف

الأستاذ المحقّق السّيّد أبو القاسم الدّيباجي

زينب الكبرى عليها السلام

بطلة الحرية

تأليف

الأستاذ المحقّق السّيّد أبو القاسم الدّيباجي

الطبعة الإلكترونية الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

قال أبو عبد الله عليه السلام:

إذا رأيتم العالم محبا الدنيا فاتهموه على دينكم فإنّ كلّ محبّ لشيء يحوط ما أحبّ؛ وقال عليه السلام: أوحى الله إلى داود عليه السلام: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّك عن طريق محبّتي فإنّ أولئك قطّاع طريق عبادي المريدين إنّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهم.

«الأصول الكافي، كتاب فضل العلم»

عَنْ إِمَامِ العَارِفِينَ

أَمِيرِ المُؤمِنِينَ (ع)

الْعِلْمُ نَهْرٌ

وَالْحِكْمَةُ بَحْرٌ

وَالْعُلَمَاءُ حَوْلَ النَّهْرِ يَطُوفُونَ

وَالْحُكَمَاءُ وَسَطَ الْبَحْرِ يَغُوصُونَ

وَالْعَارِفُونَ فِي سُفُنِ النَّجَاةِ يَسِيرُونَ

في المجلد الثاني لشرح أصول الكافي لملا محمد صالح المازندراني صفحة ٧٠ باب فضل العلم

مقدمة

زينب عليها السلام أم عاشوراء

من العظماء في تاريخ البشرية من ينال وسام فخر الإنسانية ويتربع على رفيع قمة العظمة والجلال ويخرج عن نطاق زمانه وقد تشعشعت سيرته على جبين التاريخ فهم لم يُخلَقوا لأنفسهم بل خُلقوا لغيرهم وكانوا كالشمس الطالعة على البشرية قاطبة فكانوا قدوة عظيمة لحاملي راية الحق ونماذج طيبة للإنسانية جمعاء.

من هؤلاء العظماء تلك الزهرة المحمدية والدرة العلوية والوديعة الفاطمية حاملة الراية الحسينية فاطمة الثانية زينب الكبرى عليها السلام ابنة فاطمة الزهراء عليها السلام وعلي المرتضى عليه السلام التى انعقدت حياتها مع الفاجعة المؤلمة والخالدة في كربلاء فكانت الناطقة بأهداف ثورة عاشوراء والحاملة على عاتقها جزءا غير يسير من مسئولية ثورة الإمام الحسين عليه السلام العظيمة، فأكملت الثورة حتى أثمرت.

بحثت في وصفها وكمالها فسألت ربي عز وجل قال هي زين أب، سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال هي خديجة الكبرى، سألت علي عليه السلام قال هي ثمرة فؤادي، سألت الحسين عليه السلام قال أخص نوابي، سألت السجاد عليه السلام قال عالمة غير معلمة، سألت الجبال العالية قالت هي أكثر رسوخا، سألت أمواج المحيط قالت هي أكثر ثورة، سألت الشمس قالت هي أكثر ضياء، سألت القمر قال هي أكثر نورا، سألت كربلاء قالت صابرة محتسبة، سألت الكوفة قالت خطيبة قاطعة، سألت الشام قال فاضحة الظالمين ومدافعة لحرم الحق المبين وحاملة لثورة الإمام الحسين عليه السلام، سألت المدينة قالت فاطمة الثانية وبالحق على الظلم منادية وعن حرم الولاية محامية!!

وأقول أن زينب الكبرى عليها السلام هي أم عاشوراء!!

وكيف لا أقول أنها أم عاشوراء!! فعاشوراء وثورة الإمام الحسين عليه السلام كانت لوالدين كريمين،

الإمام الحسين عليه السلام الذي ولدت له تلك المولودة الخالدة بأوسع معاني الجمال والجلال والعظمة، الحسين عليه السلام الذي سعى من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى كربلاء في خلق هذه المولودة المباركة التى ولدت بين الأول من محرم عام واحد وستين للهجرة إلى يوم عاشوراء من تلك السنة على أرض كربلاء، هذه المولودة كانت بحاجة إلى أم واعية ترعاها وتضحي في سبيلها، تلك الأم كانت زينب الكبرى عليها السلام.

مع غروب يوم عاشوراء وولادة تلك الثورة العظيمة حان دور الأم وهي زينب عليها السلام، فكانت يدها في استقبال مولودها وما أن ضمتها إلى صدرها حينما ضمت صدر الحسين عليه السلام إلى صدرها وقالت كلمتها الخالدة: «اللهم تَقَبَّلْ مِنَّا هَذا القُرْبانْ»[1] حتى نهضت واستقامت وجلدت أمام عواصف الأحداث فكانت تحمل مولودتها وتهاجر بها من كربلاء إلى الكوفة والشام والمدينة، وكانت معها أينما ذهبت، وسعت سعيها وجاهدت جهادها في تربية وتنشئة تلك المولودة.

على هذا، فثورة عاشوراء التى لم يكن لها مثيل في التاريخ هي مولودة للحسين عليه السلام وزينب عليها السلام، وظهرت في عالم الوجود تشرق بنورها وتزهو بعظمتها، وتربت وترعرعت بالمساعي الهادفة لزينب عليها السلام، بدأت من المدينة المنورة ومن محضر رسول الله صلى الله عليه وآله وانتهت إليها، ومن ذلك المكان كتب لها الخلود والبقاء إلى فناء العالم.

نعم، «زينب عليها السلام هي أم عاشوراء»!!

السيد أبو القاسم الديباجي

١٤ رجب المرجب ١٤١٧ هـ

محتوى الكتاب

مقام السيدة زينب عليها السلام عقيلة بني هاشم أرفع من أن يسعه هذا الكتاب وهذه الصفحات، ولكن لا بأس إن وقف عطشان على شاطئ هذا النهر العظيم وغرف غَرفة وشرب شَربة، فمن وثق بماء لم يظمأ، وإذا ذكرنا شيئا فذلك قبس من أنوار سيرتها على أمل أن نعرض الوجه المشرق للبتول الثانية والمثل الأعلى في الإنسانية.

صنف هذا الكتاب على أربعة فصول:

الفصل الأول : زينب عليها السلام من المهد إلى أحداث كربلاء ولمحات من فضائلها

الفصل الثاني : زينب عليها السلام وأحداث كربلاء

الفصل الثالث : زينب عليها السلام بعد عاشوراء إلى وفاتها

الفصل الرابع : مرقد زينب عليها السلام وبعض كراماتها

الفصل الأول

زينب عليها السلام من المهد إلى أحداث كربلاء ولمحات من فضائلها

والدا زينب عليها السلام

والدها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وأول من أسلم من الرجال وجاهد في سبيل الله، أول أئمة الشيعة والشخصية الثانية في الإسلام والتاريخ وعالم البشرية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ذلك الذي قال فيه الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْلا أَنَّ اللهَ تبارك وتعالى خَلَقَ أميرَ المؤْمنينَ لِفاطمة عليها السلام ما كانَ لَها كُفْؤٌ على ظَهْرِ الأرْضِ، مِنْ آدَمَ ومَنْ دونه»[٢].

ولد أمير المؤمنين عليه السلام قبل البعثة بعشر سنوات في مكة المكرمة داخل الكعبة المشرفة، وفي سن الثالثة والستين وفي التاسع عشر من شهر رمضان عام أربعين للهجرة وفي محراب مسجد الكوفة ضرب بسيف الغدر وفي ليلة الواحد والعشرين من رمضان انتقلت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى.

أولاد علي عليه السلام من فاطمة الزهراء عليها السلام خمسة وهم على الترتيب: الحسن، الحسين، زينب، أم كلثوم، ومحسن عليهم السلام[٣].

والدتها الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله والملقبة بسيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

ففاطمة الزهراء عليها السلام محور وعصارة ونواة عالم الوجود.

ولادتها الميمونة

هناك روايات مختلفة في تاريخ ولادة السيدة زينب عليها السلام، والمشهور أنها ولدت في الخامس من جمادي الأولى عام ستة من الهجرة في المدينة المنورة[٥]، فكانت ثالث إخوتها بعد الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام وكانت تصغر الحسين عليه السلام بسنتين، وحين وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله كان عمرها خمس سنوات[٦].

وبولادة هذه الزهرة من آل طه قرت عينا والديها وأفاضت على بيت النبوة والولاية والعصمة جمالا ورونقا وبهاء.

تسميتها من قِبَل الله عز وجل

كانت من عادة أهل بيت النبوة أن يوكلوا تسمية المولود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ولما ولدت السيدة زينب عليها السلام كان رسول الله صلى الله عليه وآله في السفر فجاءت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى علي عليه السلام وقالت له: ماذا نسميها؟! فقال علي عليه السلام: ما كنت لأسبق باسمها رسول الله صلى الله عليه وآله فلنصبر حتى يرجع رسول الله صلى الله عليه وآله من سفره.

صبر علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام، وبعد ثلاثة أيام رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من سفره، وكعادته في كل عودة

لا يهدأ من وعثاء السفر حتى تكتحل عيناه برؤية ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، ويدخل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذلك البيت العظيم، وقد ذكر صاحب كتاب (ناسخ التواريخ) عن كتاب (رياض المصائب) أن زينب بنت علي عليه السلام لما ولدت أخبر النبي بذلك فأتى وقال لابنته فاطمة عليها السلام: يا بنية، آتيني بابنتك المولودة، فلما أحضرتها أخذها وضمها إلى صدره ووضع خده المنيف على خدها وبكى بكاء شديدا عاليا حتى سالت دموعه على خديه فقالت الزهراء عليها السلام: لماذا بكاؤك يا رسول الله، لا أبكى الله عينيك يا أبتاه؟!

فقال صلى الله عليه وآله: يا بنتاه يا فاطمة، اعلمي أن هذه البنت ستبتلى ببلايا وترِد عليها مصائب شتى ورزايا!!

ثم يقول أمير المؤمنين عليه السلام: يا رسول الله، سمِّها!!

فيجيب صلى الله عليه وآله: أولاد فاطمة أولادي لكن أنتظر نزول الوحي في تسميتها.

فنزل جبريل عليه السلام وقال: يا رسول الله، إن الله تعالى سلم عليك وقال لك سمِّ مولودة فاطمة زينب، فإنّا كتبنا اسمها في اللوح المحفوظ(٧).

فضمها الرسول صلى الله عليه وآله إلى صدره وأخذ يقبلها ثم قال: أوصيكم بها، فهي شبيهة خديجة الكبرى عليها السلام(٨).

وهناك روايات أن بعد ولادة زينب عليها السلام ذهب سلمان الفارسي رضي الله عنه إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله بولادتها وهنأه فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا سلمان أخبرني جبريل عن الله عز وجل أن مصائب هذه المولودة لا حد لها، وستبتلى بمصائب كربلاء(٩).

ووردت في بعض الروايات أن أم كلثوم كنية لزينب عليها السلام أوقعها عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك لشبهها بابنته أم كلثوم(١٠).

تحليل

من الروايات التى ذكرناها آنفا نشير إلى بعض أمور منها:

١ - من الأخلاقيات المثالية أن تكون تسمية المولود على من يتصف بالكمال والطهارة حتى يختار له اسما حسنا، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وحَقُّ الوَلَدِ عَلَى الوالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ اسْمَهُ»(١١).

٢ - كان مقام زينب عليها السلام من العلو والرفعة بحيث أن رسول الله صلى الله عليه وآله نبئ بتسميتها من قِبل الله عز وجل.

٣ - ثبوت اسم زينب عليها السلام في اللوح المحفوظ (وهي من المقامات الملكوتية الرفيعة)، وقال البعض كما أن اسم الحسن والحسين عليهما السلام زينة عرش الله سبحانه وتعالى، فهكذا اسم زينب عليها السلام زينة اللوح المحفوظ.

٤ - كلمة «زينب» مكونة من كلمتين «زين» و «أب» أي زينة أبيها، وهذه التسمية لزينب عليها السلام

إن دلت على شيء فإنما تدل على أن سيرتها سوف تكون فخرا لوالدها الإمام علي عليه السلام وأهل بيته، بعبارة أخرى حينما لقب رسول الله صلى الله عليه وآله ابنته الزهراء عليها السلام بـ«أم أبيها» فذلك لأنها كانت أم الإسلام، وبجهادها وتضحياتها المريرة مع صغر سنها كانت سببا في علو شأن الإسلام وقوته واستمراره، وهكذا ابنتها زينب عليها السلام التي محت وأزالت كل شائبة وغبار صنعته أيدي أعداء الله وأعداء رسوله ووليه فكانت بعلمها وعملها وسيرتها زينة وفخرا لأبيها.

ويرى بعض العلماء أن كل حرف من حروف اسم زينب عليها السلام له رمز ومعنى:

«ز» إشارة إلى أمها الزهراء عليها السلام، «ي» إشارة إلى والدها الإمام علي عليه السلام، «ن» إشارة إلى أخويها الحسن والحسين عليهما السلام، و «ب» إشارة إلى كلمة النبي الأمي العربي جدها رسول الله صلى الله عليه وآله(١٢).

اللغوي المعروف الفيروزآبادي في كتاب (القاموس) يقول أن كلمة زينب تعني شجرة عظيمة جميلة ذات رائحة طيبة.

خلاصة الحديث أن تسمية زينب عليها السلام من قِبَل الله تبارك وتعالى وثبوت اسمها على اللوح المحفوظ يكشف عن عظمة هذا الاسم المبارك الذي كان في مصاف أسماء أخويها الحسن والحسين عليهما السلام فما يكون لأحد أن يقاس بهم، ونقول أن زينب عليها السلام كانت مجمع الكمالات للخمسة أصحاب الكساء فكانت زهرة في حياتهم وثمرة في روضتهم.

وبهذا نصل إلى هذه النتيجة بأن هذه المولودة ظاهرا وباطنا حوت على جميع صفات الكمال والجمال، وباسمها الملكوتي حازت على مقام معنوي عال.

بعض الأكابر في وصفها قالوا أنها امرأة طويلة القامة حسنة الهيئة عالية المقام، كانت في وقارها وعظمة شخصيتها كجدتها خديجة عليها السلام وفي حيائها وعفتها كأمها الزهراء عليها السلام وفي بلاغتها وفصاحتها كأبيها علي عليه السلام وفي حلمها وصبرها كأخيها الحسن عليه السلام وفي شجاعتها ورباطة جأشها كأخيها الحسين عليه السلام.

أوجه التشابه بين زينب عليها السلام وخديجة عليها السلام

حين ولادة زينب عليها السلام أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله بها وشبهها بخديجة الكبرى عليها السلام، هذا التشبيه لا يخلو من المعاني السامية، فزينب عليها السلام كانت تحمل أوصاف جدتها الكبرى خديجة عليها السلام، ولمَّا كان لوجود خديجة عليها السلام أثر ظاهر وملحوظ في نشر الإسلام، كذلك كانت زينب عليها السلام في حمل راية الإسلام ونشرها.

خديجة عليها السلام هي أول من أسلمت من النساء ونطقت بالوحدانية لله سبحانه وتعالى وكانت تتصف بالشجاعة والتضحية وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يذكرها على الدوام ويبين مكانتها، ووردت في شأنها روايات كثيرة منها أنها إحدى أفضل سيدات أهل الجنة اللاتي اصطفاهن الله سبحانه وتعالى على نساء العالمين وهن: آسيا بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة الكبرى وفاطمة الزهراء عليهن سلام الله[١٣].

لخديجة الكبرى عليها السلام مقام عال عند الله سبحانه وتعالى وفي الملأ الأعلى، فقد وردت رواية بأن رسول الله صلى الله عليه وآله في ليلة المعراج وحينما رجع إلى عالم الأرض قال لجبريل عليه السلام: «ما حاجتُك يا جبريل»؟! فقال: «أبْلِغ سَلامَ الله وسَلامي إلى خديجة»، ولما أبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله خديجة هذا البلاغ قالت خديجة عليها السلام: «إن اللهَ هو السَّلام ومنه السَّلام وإليه السَّلام وعلى جبريل السَّلام»[١٤].

ويكفي خديجة عليها السلام عظمة أن تضحياتها في سبيل الإسلام كانت في الميزان تعادل سيف أمير المؤمنين علي عليه السلام، تلك المرأة التي كانت من أجمل نساء قريش وأكثرهم علما والتي كانت تلقب بـ«ملكة العرب» و «سيدة البطحاء».

كما كانت خديجة الكبرى عليها السلام تؤنس رسول الله صلى الله عليه وآله في وحشته وتواسيه وتخفف من آلامه كذلك كانت زينب الكبرى عليها السلام مع أخيها الحسين عليه السلام.

كما ضحّت خديجة الكبرى عليها السلام بكل أموالها في سبيل رفعة شأن الإسلام في مرافقتها لزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله، كذلك زينب عليها السلام التي ضحّت في سبيل ثورة عاشوراء بكل ما تملك من رفاهية العيش مع

زوجها ورافقت أخاها الحسين عليه السلام إلى كربلاء. لما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله دعا الناس إلى الإسلام، فهاجمه المشركون وشجوا جبينه وأدموا ساقيه، اختفى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الأنظار واتكأ على موضع من جبل حراء أو جبل أبي قبيس يقال له المتكأ، فخرج علي عليه السلام وخديجة في طلبه، فجعلت تجول في وادي مكة تحمل له الماء والخبز وهي تقول: من أحس لي النبي المصطفى؟! من أحس لي الربيع المرتضى؟!![١٥]

وزينب الكبرى عليها السلام حينما وقع الحسين عليه السلام على الأرض وهو يجود بنفسه جالت في وادي كربلاء ولكن لم يكن هناك خبز ولا ماء، فوضعت يديها علي رأسها ونادت بأعلى صوتها فكسر دوي صوتها حاجز المكان والزمان وهي تقول: أما فيكم مسلم!! ولما وقع بصرها على عمر بن سعد صرخت في وجهه وقالت: أيقتل الحسين وأنت تنظر إليه!![١٦]

وخلاصة الحديث أن زينب الكبرى عليها السلام كانت شبيهة جدتها خديجة الكبرى عليها السلام في جميع معاني الجمال الظاهرية والعظمة المعنوية.

بكاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليها وثواب البكاء عليها

يروى أن بعد ولادة السيدة زينب عليها السلام جاء الإمام الحسين عليه السلام وكان عمره الشريف ثلاث سنوات إلى جده رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا جداه، الله تبارك وتعالى رزقني أختا، وما أن سمع رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الحديث من الحسين عليه السلام تألم كثيرا وأجهش بالبكاء.

فسأله الحسين عليه السلام: لم تبكي يا جداه؟!

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا نور عيني، عما قريب ستعرف سر هذا البكاء!!

إلى أن أتى جبريل عليه السلام يوما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يبكي فسأله رسول الله صلى الله عليه وآله: لم تبكي يا جبريل؟!

فقال جبريل عليه السلام: ابنتك – زينب عليها السلام – ستبتلى في حياتها بمصائب كثيرة أولها مصيبة فراقك ثم مصيبة فراق والدتها الزهراء عليها السلام ثم مصيبة قتل أبيها أمير المؤمنين عليه السلام ثم مصيبة أخيها الإمام الحسن عليه السلام ثم أعظمها وأشدها مصائب كربلاء وفيها يحدودب ظهرها ويشيب رأسها!!

بكى رسول الله صلى الله عليه وآله ثم وضع وجهه الكريم والغارق بالدموع على وجه زينب عليها السلام وبكى بكاء عاليا.

سألته الزهراء عليها السلام عن سبب بكائه فشرح لها رسول الله صلى الله عليه وآله بعض المصائب التى سوف ترد على ابنتها زينب عليها السلام، فقالت الزهراء عليها السلام: وما أجر من بكى على ابنتي زينب؟!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أجره كأجر من بكى على مصائب ولداي الحسن والحسين[١٧].

وهذه ميزة كتبت للسيدة زينب عليها السلام بأن يكون أجر البكاء على مصائبها كأجر البكاء على أخيها الحسين عليه السلام مع العلم ما للبكاء على الحسين عليه السلام من الأجر العظيم والثواب الجزيل.

قال الإمام السجاد عليه السلام: «أَيُّما مُؤْمِنٍ ذرفَتْ عَيْناهُ لِقَتْلِ الحسين عليه السلام حتَّى تَسيلَ على خَدِّهِ بَوَّأه اللهُ غُرَفاً في الجَنَّةِ يَسْكُنُها أَحْقاباً»[١٨].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ تَباكَى فَلَهُ الجَنَّةُ»[١٩]

[

زينب عليها السلام ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله في صلب علي عليه السلام

من السمات البارزة والمميزة لزينب عليها السلام أنها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة كأخويها الحسن والحسين عليهما السلام، أي يمكن القول أن السيدة زينب عليها السلام ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لا حفيدته، وكما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لِكُلِّ بَنِي أَبٍ عُصْبَةٌ ينتمون إليهم، إلاَّ وُلْد فاطِمَةَ، فأنا وليُّهُمْ وعُصْبَتُهُمْ، وهم خُلِقوا مِن طينَتي، وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبينَ بفَضْلِهِمْ، مَنْ أحَبَّهُمْ أحَبَّهُ اللهُ، ومَنْ أبْغَضَهُم أبْغَضَهُ اللهُ»[٢٠].

ثلاثية شخصية زينب عليها السلام

يرى علماء النفس أن هناك ثلاثة أبعاد ذات أثر مباشر في أصل تكوين شخصية الإنسان:

١ - الوراثة ٢ - التربية ٣ - البيئة

وفي شخصية السيدة زينب عليها السلام اكتملت هذه الأبعاد الثلاثة.

الناحية الوراثية

نشأت زينب عليها السلام في دار الوحي وتربت في بيت التنزيل ونمت في حجر العصمة والطهارة، فجدها رسول الله صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وحسب ما ورد في الرواية التى ذكرناها آنفا أن زينب عليها السلام ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن صلبه وخلقت من طينته، ووالدتها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ووالدها أمير المؤمنين علي عليه السلام وصي وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله بلا جدال، فورثت من هذه الأنوار اللامعة فيوضات الكمال.

وفي الحقيقة فإن وجود زينب عليها السلام هي عصارة الشخصيات الفذة والحالات المعنوية والملكوتية لرسول الله صلى الله عليه وآله وفاطمة الزهراء عليها السلام وأمير المؤمنين علي عليه السلام، فكانت مجمعا لتجليات النبوة والعصمة والولاية.

وعلى هذا الأساس اكتملت في شخصيتها المعاني الإنسانية الرفيعة كالزهد والإيثار والصبر والشجاعة والشكر على النعمة والبلاء وغيرها من الكمالات.

ويمكن القول أن عبر تاريخ البشرية لم نجد شخصا يحمل هذه الصفات العالية في الوراثة مثل الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم عليهم السلام.

ومن الجدير بالذكر أن في مسألة الوراثة تطرح هذه الرواية بأن فاطمة الزهراء عليها السلام كانت أشبه الناس بأبيها رسول الله صلى الله عليه وآله قولا وفعلا.

تقول عائشة: «أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كأنَّ مَشْيَتَهَا مَشْيَةُ أبيها رسولِ الله»[٢١].

وقيل في شأن السيدة زينب عليها السلام أن: «مَنْطِقُها كمَنْطِقِ أبيها أميرِ المؤمنين»[٢٢].

الناحية التربوية

كانت السيدة زينب عليها السلام منذ ولادتها وحتى سن السادسة من عمرها الشريف تحت الرعاية المباركة لجدها رسول الله صلى الله عليه وآله وأمها الزهراء عليها السلام وأبيها علي عليه السلام فرضعت من ثدي العصمة والطهارة والوحي، وبعد وفاة جدها وأمها نمت وترعرعت ونشأت في مدرسة أبيها إمام المتقين واكتسبت منه أعلى مقامات العلوم الإسلامية والإنسانية والمعنوية.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما نَحَلَ والِدٌ وَلَداً نَحْلاً أفضلُ من أدَبٍ حَسَنٍ»[٢٣].

قيل لوالدة المرحوم آية الله العظمى الشيخ مرتضى الأنصاري رضي الله عنه - صاحب كتاب (المكاسب والرسائل) ذات يوم: هنيئا لك بهذا الولد، ولكن كيف استطعت أن تنشئي مثل هذا الابن النابغة والزاهد والعارف؟! فأجابت الوالدة قائلة: لم أكن أرضع ولدي إلا وأنا على وضوء، و مع تلك المراقبة الشديدة لا عجب أن يصل ولدي إلى هذه المرتبة والمقامات!![٢٤]

وعلى هذا فمن أساسيات التربية السليمة هي مراقبة الوالدين للأبناء، ومن مثل فاطمة الزهراء عليها السلام وأمير المؤمنين وإمام المتقين علي عليه السلام في تربية أولادهما اللذان كان لهما الدور الأساسي في تربية وتنمية هذه الشخصيات العظيمة؟!

وفي رواية عن يحيى المازني يقول فيها: «كنت في جوار أمير المؤمنين عليه السلام في المدينة مدة مديدة وبالقرب من البيت الذي كانت تسكنه زينب ابنته فلا والله ما رأيت لها شخصا ولا سمعت لها صوتا وكانت إذا أرادت الخروج لزيارة جدها رسول الله صلى الله عليه وآله تخرج ليلا والحسن عن يمينها والحسين عن شمالها وأمير المؤنين أمامها فإذا قربت من القبر الشريف سبقها أمير المؤمنين عليه السلام فأخمد ضوء القناديل، فسأله الحسن مرة عن ذلك فقال: أخشى أن يرى شخصها أحد»!![٢٥]

نعم، فصفاء ذات زينب عليها السلام وخلوص جوهرها وكفاءتها من جانب ووراثتها كمال صفات جدها وحسن تربيتها في ظل والد كوالدها أمير المؤمنين عليه السلام ووالدة كفاطمة الزهراء عليها السلام وإخوة كأخيها الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام من جانب آخر كوّن لها شخصية فذة فكانت الشخصية الإسلامية النسائية الثالثة بعد جدتها خديجة الكبرى وأمها فاطمة الزهراء عليها السلام.

الناحية البيئية

وهو البعد الثالث في تكوين شخصية زينب الكبرى عليها السلام، فزينب عليها السلام نشأت وتربت في بيئة اكتملت فيها الفضائل وجلّت فيها القيم المعنوية العـالـيـة، بيئة أحاطتها عبقات أنفاس رسـول الله صلى الله عليه وآله الطيبة، وعلتها إشراقات فاطمة الزهراء عليها السلام المتلألئة، واحتوتها أنوار أمير المؤمنين عليه السلام الجلية، وطوقتها هالات السبطين البهية.

النتيجة

لا شك أن الشخصية العظيمة للسيدة زينب عليها السلام كانت قائمة على ثلاثة أسس تربوية قوية ومتكاملة، وأجلّ من ذلك أن يد التربية الملكوتية والإرادة الإلهية هي التى وضعتها في مهد التكامل وعلو الشـأن وأفاضت عليها أنوار الإنسانية والقيم الإسلامية العالية فصنعت منها تلك الشخصية الفذة.

زينب عليها السلام في طفولتها

كانـت حياة زينب عليها السلام منذ نعومـة أظفارها كحيـاة والدتـهـا الصديقة الطاهرة فاطمـة الزهراء عليها السلام مليئة بالأحداث البناءة والهادفة، على سبيل المثال نعطف بأبصاركم إلى بعض من هذه الأحداث:

١ - الرؤيا التى اضطربت لها زينب عليها السلام

إن كان مولد السيدة زينب عليها السلام في السنة الخامسة من الهجرة، فهذا يعني أنها قضت ما يقارب خمس سنوات من عمرها مع جدها الأكرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

نقل في الطراز المذهب عن بحر المصائب عن بعض الكتب لما دنت الوفاة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى كل من أمـير المؤمنين عليه السلام والزهراء عليها السلام رؤيا تدل على وفاته صلى الله عليه وآله وسلم فأخـذا بالبكاء والنحيب، فجاءت زينب عليها السلام إلى جدها رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالت: ياجداه، رأيت البارحة رؤيا أنها انبعثت ريح عاصفة سـوَّدت الدنيا وما فيها وأظلمتها وحركتني من جانب إلى جانب فرأيت شـجرة عظيمة فتعلقت بها من شـدة الريح فإذا بالريح قلعتها وألقتها على الأرض ثم تعلقت على غصن قوي من أغصان تلك الشجرة فقطعتها أيضا فتعلقت بفرع آخر فكسرته أيضا فتعلقت على أحد الفرعين من فروعها فكسرته أيضا فاستيقظت من نومي!!

بكـى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقـال: الشـجرة جدك والفـرع الأول أمـك فاطمـة والفرع الثـاني أبوك علي والفرعان الآخران هما أخواك الحسنان، تسود الدنيا لفقدهم وتلبسين لباس الحداد في رزيتهم[٢٦].

قيل أنها كانت تتلو شـيئا من القرآن بمسـمع من أبيها، فبدا لها أن تسـأله عن تفسـير بعض الآيات ففعـل، ثم اسـتطرد متأثـرا بذكائها اللامع يلمح إلى ما ينتظرها في مسـتقبل أيامها مـن دور ذي خطر، ولشـدة ما كانت دهشـته حين قالت له زينب عليها السلام في جد رصين: «أعْرِفُ ذلـك، أخْـبَـرَتْـنـي بـه أمِّـي

كيما تهيِّئُني لِغَدي»(٢٧)، ولم يجد الأب ما يقول، فأطرق صامتا وقلبه يخفق رحمة وحنانا.

على هذا الأساس، كانت زينب عليها السلام على صغر سنها تعلم ما ستواجهه في حياتها من مصائب وشدائد فتسلحت بالإيمان والرضا بقضاء الله المحتوم وأعدت لذلك كامل عدتها من صبر وشجاعة وشهامة.

٢ - كلمة زينب عليها السلام في حزنها على أمها الزهراء عليها السلام

كان لارتحال الرسول الأعظم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى الأثر البالغ في نفس زينب عليها السلام، فكانت ترى بأم عينيها ما يجرى على والدتها في فراق جدها رسول الله صلى الله عليه وآله من مصائب ومحن وما أصابها من الحزن الشديد، ومع ذلك فوجود والدتها بجنبها كان يسكن من روعها وحزنها، ولكن لم يمهلها الدهر فأبلاها بمصيبة عظيمة أخرى حينما رأت أبيها أمير المؤمنين عليه السلام وهو يكفن جسد أمها الطاهر ليلا وهو ينادي: يا حسن، يا حسين، يا زينب، يا أم كلثوم، تعالو وتزودوا من أمكم!!

أسرعت زينب عليها السلام إلى والدها وفي هذه اللحظة تذكرت جدها رسول الله صلى الله عليه وآله فنادته بصوت حزين وعين باكية وهي تقول: «يا رَسولَ الله، الآنَ حَقًّا فَقَدْناكَ»!!(٢٨)

٣ - لسان الموحد لا ينطق باثنين

كانت زينب عليها السلام في طفولتها جالسة في حجر أبيها أمير المؤمنين عليه السلام، وهو عليه السلام يلاطفها بالكلام، فقال لها: بنية، قولي واحد، فقالت: واحد، ثم قال لها: قولي اثنين، فسكتت، فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: تكلمي يا قرة عيني، فقالت عليها السلام: يا أبتاه، ما أطيق أن أقول اثنين بلسان أجريته بالواحد!! فضمها صلوات الله عليه وقبَّل بين عينيها(٢٩). وكانت زينب عليها السلام تعني بذلك وحدانية الله عز وجل، فبالرغم من صغر سنها إلا أن كل ذرة من ذرات وجودها المقدس كان ينطق بالوحدانية لله عز وجل.

٤ - التوحيد الخالص

سألت زينب عليها السلام والدها أمير المؤمنين علي عليه السلام ذات يوم وقالت: أتحبنا يا أبتاه؟! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: وكيف لا أحبكم وأنتم ثمرة فؤادي!! فقالت زينب عليها السلام: الحب لله تعالى والشفقة لنا(٣٠).

هنا تشير زينب عليها السلام إلى أن الحب الحقيقي والخالص لله سبحانه وتعالى والانقطاع إليه، ولكن حب الأولاد حب ظاهري بمعنى الرأفة واللطف في المعاملة معهم لا الحب الحقيقي المنحصر لذات الله الواحد الأحد، وكان هذا هو مفهوم كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي كشفت عن مضمونه زينب عليها السلام.

وأمير المؤمنين عليه السلام بطرحه هذه الأسئلة على زينب الكبرى عليها السلام إنما يريد أن يبين مقام زينب عليها السلام الرفيع ومكانتها الجليلة.

وكيف لا تكون زينب عليها السلام في هذا المستوى الرفيع من العرفان والمعرفة واليقين بذات الله سبحانه وتعالى في هذه السن المبكرة من عمرها وقد أحيطت بأنوار الخمسة أصحاب الكساء عليهم السلام، وفي كنف ورعاية جدها رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله وأبيها أمير المؤمنين سيد الموحدين عليه السلام وفي حجر والدتها الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام وفي جوار أخويها الإمامين السبطين الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام!!

٥ - التضحية والإيثار

دخل ضيف على أمير المؤمنين علي عليه السلام، ولم يكن في البيت أي طعام، فقال أمير المؤمنين عليه السلام لفاطمة الزهراء عليها السلام: ألا يوجد لدينا بعض الطعام؟! فقالت عليها السلام: لا يوجد لدينا طعام إلا خبزا واحدا ادخرتها لابنتي زينب، فسمعت زينب عليها السلام بذلك وكان عمرها لا يتجاوز الخمس سنوات فقالت لوالدتها: أماه، أعط نصيبي من الخبز للضيف، وسأصبر!![٣١].

على هذا، آثرت هذه الطفلة بسخائها عذب كرم الضيافة على مرارة الجوع.

٦ - علاقة زينب عليها السلام بأخيها الحسين عليه السلام

كانت علاقة زينب عليها السلام بأخيها الحسين عليه السلام علاقة شديدة لا يمكن وصفها، فكانت ترافقه على الدوام وتمعن النظر في وجهه المبارك وتأنس بوجوده الشريف. هذه المحبة الفائقة والألفة العجيبة بين زينب عليها السلام والحسين عليه السلام لفتت انتباه فاطمة الزهراء عليها السلام ولم تكن تعرف السر في ذلك بعد، إلى أن بينت هذا الأمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وقالت له: أبي يا رسول الله، أتعجب من أمر زينب فهي كثيرة الارتباط بأخيها الحسين عليه السلام ولا يقر لها قرار دون أن تنظر إليه أو تستشم رائحته!!

حينما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك تأثر كثيرا واغرورقت عيناه بالدموع وتنفس الصعداء وقال: يا نور عيني، ابنتي هذه سترافق الحسين عليه السلام إلى كربلاء وستشاركه المصائب والبلايا[٣٢].

وعلى هذا الأساس حينما تم عقد قران زينب عليها السلام مع ابن عمها عبدالله بن جعفر، اشترطت في وثيقة العقد أن لا يمانعها زوجها من لقائها بأخيها الحسين عليه السلام في أي وقت شاءت وأن ترافقه في سفره أينما ذهب. علاقة زينب عليها السلام بأخيها الحسين عليه السلام فاقت العقول وحيرت الألباب، العلامة الجزائري في كتابه (الخصائص الزينبية) يقول: أن الإمام الحسين عليه السلام حينما كان يغيب عن زينب عليها السلام وهي طفلة صغيرة في المهد كانت تبكي ولا يهدأ لها قرار إلا حينما يقع بصرها ثانية على نور وجه أخيها الحسين عليه السلام

فكانت تسر برؤيته وتضحك له[٣٣]. وكانت هذه العلاقة تنمو بنموها فكانت تزوره في اليوم أكثر من مرة وكلما كانت تريد الصلاة كانت تبدأها بالنظر إلى نور وجه أخيها الحسين عليه السلام ثم تدخل في الصلاة.

وفي يوم عاشوراء أخذت بيدي ولديها محمد وعون وذهبت بهما إلى خيمة الحسين عليه السلام وقالت له: جدي إبراهيم عليه السلام قَبِلَ الأضحية من قِبَل الله عز وجل، فاقبل مني هذين الولدين ليفديا بأنفسهما في سبيلك، ولو لم يسقط الجهاد عن المرأة لفديتك بنفسي ألف مرة، وطلبت في كل ساعة ألف شهادة في سبيلك!![٣٤]

تحليل

يمكن القول أن الحب الذي كانت تكنه زينب عليها السلام لأخيها الحسين عليه السلام لم يكن حبا عاطفيا بل كان ينبع عن حب ملكوتي خالص نبع من النور المطلق عالم الغيب تبارك وتعالى، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ حَرارَةً في قُلوبِ الْمُؤمنينَ لا تَبْرُدُ أَبَداً»!![٣٥]

فحب الحسين عليه السلام والإعجاب بسلوكه الفكري ومنهجه العملي لهو من خصائص العقيدة السليمة والإيمان الكامل، وفطرة زينب عليها السلام من بدء حياتها كانت متصلة بإيمانها الكامل وحرارة حب الحسين عليه السلام في قلب زينب عليها السلام كانت نابعة من ذلك الإيمان فكانت هي الشعلة التى حملتها زينب عليها السلام يوم عاشوراء للوصول إلى أهدافها السامية.

٧ - علاقة الإمام الحسين عليه السلام بأخته زينب عليها السلام واحترامه لها

وردت في الرسالة العملية (ذخيرة المعاد) لآية الله العظمى الشيخ زين العابدين المازندراني (من كبار المراجع في عصر الأستاذ الأعظم الشيخ مرتضى الأنصاري رضي الله عنه) هذه المسألة الشرعية:

إذا كان هناك رجل يقرأ القرآن ودخل عليه مؤمن، فهل يجوز لقارئ القرآن أن يقطع قراءته ويقوم احتراما لهذا المؤمن؟!

وفي جواب هذه المسألة الشرعية وردت هذه الرواية بأن الإمام الحسين عليه السلام كان مشغولا بقراءة القرآن فدخلت عليه السيدة زينب عليها السلام فقام لها وهو يحمل القرآن بيده[٣٦].

وفي كتاب (تحفة العالم) تأليف السيد جعفر آل بحر العلوم ورد أن الإمام الحسين عليه السلام وضع القرآن على الأرض وقام لأخته زينب عليها السلام إجلالا واحتراما لها.

زواج السيدة زينب عليها السلام

زينب عليها السلام يخطبها الأشراف من العرب

روي عن الخزاز القمي أن رسول الله صلى الله عليه وآله نظر إلى أولاد علي عليه السلام وأولاد جعفر الطيار أخي علي عليه السلام وقال: «بَناتُنا لبَنينا وبَنونا لبَناتِنا»[٣٧].

وحينما بلغت السيدة زينب عليها السلام سن البلوغ والزواج تقدم لخطبتها الأشراف من العرب ورؤساء القبائل، منهم الأشعث بن قيس الكندي - ملك كندة - وكان مصرا على ذلك، وكان الإمام علي عليه السلام يعلم ما يكنّه هذا الرجل من النفاق وسوء الخلق، فأجابه أمير المؤمنين عليه السلام بحدة ونزره وقال له: «يا ابْنَ الحائِكِ، أَغَرَّكَ بْنُ أَبي قُحافَة[٣٨] حين زوَّجك أم فروة؟!»

وغضب الأشعث ولّمح لعلي عليه السلام أنه لن ينسى رده وأنه الفاتك الشجاع فقال الإمام علي عليه السلام: «أبالموتِ تهَدِّدُني، فوالله ما أبالي أَوَقَعْتُ على الموتِ أو وَقَعَ الموتُ عَلَيَّ!!»[٣٩]

زواج زينب عليها السلام من ابن عمها عبدالله بن جعفر

ومن الذين تقدموا لخطبة زينب عليها السلام ابن عمها عبدالله بن جعفر الطيار، وشدة حيائه كانت مانعا ليبدي هذا الأمر، فجعل رجلا يتوسط له في خطبة زينب عليها السلام من أبيها علي بن أبي طالب عليه السلام، ذهب الرجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ يذكره بالحديث الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال فيه: «بَناتُنا لبَنينا وبَنونا لبَناتنا» وطلب منه أن يزوج ابن أخيه عبدالله من ابنته زينب عليها السلام. وافق علي عليه السلام على ذلك، وتم الزواج المقدَس بينهما[٤٣].

روى البعض أن زواج عبدالله بن جعفر بزينب عليها السلام تم في السابعة عشر من الهجرة وكان عمرها آنذاك أحد عشر عاما[٤٤].

وروي أن أبناء الشهيد جعفر الطيارعليه السلام الثلاثة وهم عبدالله ومحمد وعون كانوا في كنف ورعاية عمهم أمير المؤمنينعليه السلام، وزوّج عبدالله من ابنته زينبعليها السلام، ومحمد من ابنته أم كلثومعليها السلام، وزوج عون من ابنة أخيه عقيل[٤٥]، ويجدر بالذكر أن محمد وعون - ابنا جعفر الطيارعليه السلام - كانا في قافلة الإمام الحسينعليه السلام يوم عاشوراء واستشهدا بين يديه[٤٦].

لمحات من شخصية عبدالله بن جعفر - زوج زينبعليها السلام

عبدالله هو ابن جعفر بن أبي طالبعليه السلام الملقب بجعفر الطيار والمكنى بأبي المساكين، وكان جعفر ثالث الإخوة من ولد أبي طالب أكبرهم طالب وبعده عقيل وبعده جعفر وبعده علي، وكل واحد منهم أكبر من الآخر بعشر سنين وأمهم فاطمة بنت أسد الهاشمية[٤٧]، وكان من السابقين ولقب بالرجل الثاني في الإسلام، وابن أبي الحديد يرى أن جعفر الطيار هو الشخص الثالث في الإسلام بعد عليعليه السلام وخديجة الكبرىعليها السلام[٤٨].

وفي العام الخامس من البعثة بأمر من رسول اللهصلى الله عليه وآله هاجر جعفر بن أبي طالب مع جمع من المسلمين وكان عددهم ما يقارب خمسة وسبعين أو ثمانين رجلا واثنتي عشرة امرأة إلى الحبشة هربا من أذى المشركين، فاستقروا فيها بكامل الحرية والأمان ولمدة خمس عشرة سنة وقاموا بنشر بذور الإسلام في قلوب الناس فأسلم الكثير ومنهم النجاشي ملك الحبشة وكثير من القساوسة والمسيحيين.

زوجة جعفر الطيار وهي أسماء بنت عميس كانت من النساء البارزات في الإسلام وأنجبت من جعفر ثلاث بنين: عبدالله، محمد، وعون[٤٩].

وفي العام السابع من الهجرة وكان فيه فتح خيبر قدم جعفر الطيار مع أصحابه من الحبشة إلى المدينة فالتزمه رسول اللهصلى الله عليه وآله وقبّل بين عينيه وقال: «ما أَدْري بأيِّهُما أنا أشَدُّ فَرَحاً بِفَتْحِ خَيْبَرٍ أمْ بقُدومِ جَعْفَرٍ»[٥٠].

وفي أوائل العام الثامن من الهجرة كانت غزوة مؤتة (بين المسلمين والكفار في الشام)، وكان جعفر بن أبي طالب حامل راية المسلمين، واستشهد في هذه الغزوة بعد أن قطعت يداه، فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء، فمن هنالك قيل له جعفر ذو الجناحين[٥١].

كان أبناء جعفر صغارا حينما استشهد والدهم، فذهب رسول اللهصلى الله عليه وآله إلى بيت أسماء بنت عميس - زوجة جعفر بن أبي طالب - وطلب أولاد جعفر فلما أتوا بهم إليه أخذهم وضمهم إلى صدره وأخذ يمسح بيديه الكريمتين على رؤوسهم ويواسيهم ثم أخذهم معه إلى بيته فأقاموا في بيته ثلاثة أيام وهو يراقبهم ويعتني بهم[٥٢].

كان عبدالله بن جعفر - زوج السيدة زينب عليها السلام - أول طفل مسلم ولد في أفريقيا، وقد واجه في سني عمره الأولى شهادة والده العظيم وعناية رسول الله صلى الله عليه وآله الكريم، وكانت له مكانة خاصة وشخصية مميزة بين أطفال وشباب المدينة.

ذكريات عبدالله بن جعفر الطفولية مع رسول الله صلى الله عليه وآله

يقول عبدالله بن جعفر: أنا أحفظ حين دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على أمي فنعى لها أبي فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي وعيناه تهراقان الدموع حتى تقطر لحيته ثم قال: اللهم إن جعفرا قد قدم إليك إلى أحسن الثواب فأخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك في ذريته ثم قال: يا أسماء ألا أبشرك!! قالت: بلى، بأبي وأمي يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: إن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة، قالت: فأعلِم الناس ذلك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيدي يمسح بيده رأسي حتى رقى إلى المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى والحزن يُعرف عليه فقال: إن المرء كثير بأخيه وابن عمه إلا أن جعفرا قد استشهد وجُعل له جناحان يطير بهما في الجنة، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وآله ودخل بيته وأدخلني معه وأمر بطعام يصنع لأجلي وأرسل إلى أخي وتغدينا عنده غداء طيبا مباركا وأقمنا ثلاثة أيام في بيته ندور معه كلما صار في بيت إحدى نسائه ثم رجعنا إلى بيتنا، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك وأنا أساوم شاة أخ لي فقال صلى الله عليه وآله: اللهم بارك له في صفقته، قال عبدالله: فما بعت شيئا ولا اشتريت شيئا إلا بورك لي فيه[٥٣].

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُكِنّ لعبدالله احتراما خاصا وكان يحبه كثيرا وكان كلما يراه يقول له: «السَّلامُ عَلَيْكَ يا ابْنَ ذي الجَناحَيْنِ»[٥٤].

وبهذا القول كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجدد ذكرى جعفر بن أبي طالب الطيار عليه السلام.

وببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله أصبح عبدالله بن جعفر من أثرياء المدينة وفي نفس الوقت كان من السخاء والكرم بحيث أنه كان على الدوام ينفق أمواله على المستحقين والضعفاء والفقراء حتى أن البعض كان يؤنبه على هذا الفعل ويخوفه من نقص أمواله وثروته، فكان يرد عليهم بهذه الأبيات من الشعر:

لَسْتُ أَخْشَى قِلَّةَ العَدَمِ
ما اتَّقَيْتُ اللهَ في كَرَمي
كُلَّما أَنْفَقْتُ يُخْلِفُهُ
لي رَبِّي واسِعُ النِّعَمِ

وهنا نورد لكم نموذجا من سخاء عبدالله بن جعفر:

كان عبدالله بن جعفر راكبا فرسه فرأى رجلا في طريقه، أخذ الرجل بعنان الفرس وقال لعبدالله: أيها الأمير!! بالله أقسم عليك أن تضرب بسيفك هذا على رأسي، فتعجب عبدالله من أمر الرجل وقال له: هل فقدت عقلك يا رجل؟! فقال: لا والله!! ولكن لي عدو قاسي وعنيد قد جعلني في ضيق من العيش ولا أملك سلاحا أحاربه به، فقال له عبدالله: ومن هو عدوك؟! قال: الفقر!!

هنالك التفت عبدالله إلى غلامه وقال له: أعط هذا الرجل ألف دينار!!

ولما أعطى الغلام الأموال لذلك الرجل قال له عبدالله: يا أخا العرب، خذ هذا المال وكلما طاردك هذا العدو تعال إلينا وبإذن الله ننجيك منه!!

فقال الفقير: والله لقد أعطيتني ما يكفيني لمحاربة عدوي وخلاصي منه!![٥٥].

لِمَ لَمْ يشارك عبدالله بن جعفر في ثورة كربلاء؟!

السؤال الذي يرد إلى الذهن في شأن عبدالله بن جعفر هو: لِمَ لَمْ ينضم إلى قافلة الإمام الحسين عليه السلام في ثورته في كربلاء؟! هل كان ذلك تقصير من عبدالله في حق هذه الثورة العظيمة؟! أم أنه لم يكن موافقا في الأصل على قيامها؟!

الجواب

تدل الشواهد التاريخية أن عبدالله بن جعفر كان موافقا على قيام ثورة الإمام الحسين عليه السلام، ولهذا لم يمنع زوجته السيدة زينب عليها السلام من مرافقة أخيها الحسين عليه السلام إلى كربلاء وأمر ابنيه عونا ومحمدا بلزومه والمسير معه والجهاد دونه فكانا من الشهداء بين يدي أبي عبدالله الحسين عليه السلام في واقعة الطف.

ويروى أنه لما دخل موالي عبدالله بن جعفر ونعى إليه ابنيه استرجع، فقال له أبو السلاسل وهو مولى لعبدالله: هذا ما لقينا من حسين بن علي!! فحذفه عبدالله بن جعفر بنعله ثم قال: يا ابن اللخناء، كيف تقول هذا؟! والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتى أقتل معه والله أنه لما يسخي بنفسي عنهما ويعزي عن المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي مواسين له صابرين معه.

ثم أقبل على جلسائه وقال: الحمد لله، عز علي مصرع الحسين، إن لا أكن آسيت حسينا بيدي فقد آساه ولداي[٦٠].

وينقل بعض الرواة أنه حينما قال أبو السلاسل ما قال قام إليه عبدالله بن جعفر ليضربه بعصاه على

أم رأسه ففر هاربا، ومن بعد ذلك اليو م منعه عبدالله من دخول بيته[٦١].

وعلى هذا يمكن القول أن عبدالله بن جعفر إن لم يشارك في واقعة الطف بنفسه فقد أرسل ولداه للدفاع عن حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان استشهادهما مواساة لنفسه.

ولكن في سبب عدم مشاركته شخصيا في هذه الثورة يقول البعض أنه في ذلك الوقت كان أعمى البصر ولما رأى الإمام الحسين أنه معذور عن المشاركة معه قال له عبدالله بن جعفر: مادمت غير راض عن مرافقتي لك فخذ ولداي معك[٦٢].

ويقول آخرون أنه كان مصابا بمرض شديد في فمه.

على كل حال، كان لعبدالله بن جعفر عند الله وعند أهل بيت الرسالة والوحي مكانة خاصة وشأنا رفيعا، ولم ترد أية رواية تدل على استيائه من علي أو الحسن أو الحسين عليهم السلام.

ويمكن القول أن عدم حضور عبدالله بن جعفر في ساحة كربلاء وبقائه في المدينة كانت لمصالح لا يعلمها إلا أهل المعرفة والصلاح، بل يمكن القول أن بقاءه في المدينة كان أفضل من رحيله إلى كربلاء.

لو لم يكن عدم مشاركة عبدالله بن جعفر في تلك الواقعة بعذر أو صواب رأي من الإمام الحسين عليه السلام في بقائه في المدينة، فيقينا كان في مواجهة غضب واعتراض زينب عليها السلام، وبلا شك وترديد لما استمرت بقية حياتها معه بعد رجوعها من كربلاء[٦٣].

والدا عبدالله بن جعفر - زوج زينب عليها السلام

كانت زينب الكبرى عليها السلام زوجة لذلك الرجل المقدام والشجاع ذي الشخصية الفذة والمقام الرفيع، ألا وهو عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، دخلت زينب عليها السلام في بيت قويت أركانه وارتفع شأنه.

كان والد زوجها حامل راية مؤتة الأخ الأكبر لأبيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والشهيد في سبيل الحق، جعفر الطيار، وكانت أم زوجها من محبي أهل بيت العصمة والطهارة والمخلصين لهم وهي أسماء بنت عميس الخثعمية التى كانت من العارفات بفضل أهل البيت عليهم السلام وخواص خدمة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وبعد وفاة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام كانت تولي رعاية خاصة لأولاد فاطمة عليها السلام.

ولدت أسماء بنت عميس لعلي عليه السلام ولدين هما عون ويحيى الذين استشهدا مع أخيهما الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطف[٦٨].

وعلى هذا نستنتج من ذلك أن أسماء بنت عميس، والدة زوج زينب عليها السلام، كانت امرأة مناضلة

وصبورة ومن محبي أهل بيت النبوة وأم لشهيدين، وهي في حد ذاتها مدرسة تعلم المرأة كيف تكون صالحة وموفقة في رعاية زوجها وتربية أولادها تربية سليمة قائمة على المحبة والألفة، والاستقامة في الولاء لأهل البيت وزرع روح التضحية والإيثار في سبيل الحق في نفوس الأبناء.

وحسب ما ورد عن كثير من المؤرخين أن عبدالله بن جعفر توفي في المدينة المنورة في السنة الثمانين من الهجرة ودفن في البقيع[٦٩]، ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جوار ربه كان عمر عبدالله بن جعفر عشر سنين، وعلى هذا يكون عمره عند وفاته تسعين سنة، ويرى البعض أنه مدفون في الباب الصغير في دمشق، وفي سن الحادية عشر من عمرها تزوجت زينب الكبرى عليها السلام من عبدالله بن جعفر وكان عمره آنذاك سبع عشرة سنة[٧٠].

شرطا زينب عليها السلام عند زواجها من عبدالله بن جعفر

ذكرنا سابقا أن السيدة زينب عليها السلام كان ذات علاقة قوية وشديدة بأخيها الحسين عليه السلام حتى أنها كانت تزوره في اليوم أكثر من مرة، وعلى هذا حينما تقدم عبدالله بن جعفر لخطبة زينب الكبرى عليها السلام اشترط أمير المؤمنين عليه السلام لإتمام الزواج شرطين ووافق عليهما عبدالله،

الشرط الأول: وهو أن لا يمانع زينب عليها السلام من خروجها من البيت لزيارة أخيها الحسين عليه السلام متى ما تشاء.

والشرط الثاني: وهو أنه إذا عزم الإمام الحسين عليه السلام على السفر فلا يمنعها من سفرها معه.

تم عقد الزواج بين زينب الكبرى عليها السلام وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب على أساس هذين الشرطين، وعلى هذا حينما ابتدأ الإمام الحسين عليه السلام بسفره الروحاني والملكوتي من المدينة إلى مكة ومن ثم إلى كربلاء، كانت زينب عليها السلام ترافقه وعياله وأهل بيته وأصحابه.

في هذه المرحلة من حياة زينب الكبرى عليها السلام والتى كانت من أعظم وأعمق مراحل حياتها أقدمت فيها على أعظم معاني التضحية والإيثار والفداء، فاختارت الطريق الشائك والمحفوف بالبلايا والمنايا على زهرة الحياة المرفهة مع زوجها والذي كان من أثرياء عصره وذلك في سبيل إعلاء الشعارات المقدسة التى كان ينادي بها قائدها العظيم الإمام الحسين عليه السلام، وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على رباطة جأشها وقوة شخصيتها وعظيم إرادتها[٧١].

كان حب زينب عليها السلام لأخيها الحسين عليه السلام من الشدة بحيث أنها حينما بدأت قافلة الإمام الحسين عليه السلام بالسفر إلى كربلاء وفيها زينب الكبرى عليها السلام، جاء عبدالله بن عباس، ابن عم الإمام علي عليه السلام وفقيه بني هاشم، إلى الإمام الحسين عليه السلام ولما دنا منه قال له: «جُعِلْتُ فِداك يا حُسَين، إنْ كان لا بُدَّ من المَسيرِ

إلى الكوفَـةِ فلا تَـسِـرْ بأَهْـلِـك ونسـائِـك وصِـبْـيَـتِـكَ، فإنِّي واللهِ لَخائِـفٌ أنْ تُقْـتَـلَ وهُمْ يَـنْـظُـرون إلَـيـكَ».

فقال الحسين عليه السلام: «يا ابْنَ العَمِّ، إنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله في منـامي وقد أَمَـرَني بأمْـرٍ لا أَقْـدِرُ على خِلافِـهِ، وإنَّـه أمَـرَنـي بأخْـذِهِـنَّ معـي، يا ابْـنَ العَمِّ وَإنَّـهُـنَّ وَدائِـعُ رَسُـولِ الله ولا آمَـنُ عَلَيْهِـنَّ أحَـداً وهُـنَّ لا يُفـارِقْـنـني».

فسـمع ابن العباس بكاء من ورائه وقائلة تقول: «يا ابْنَ العَبَّاس، تُشِـيـرُ على شَـيْـخِـنا وسَيِّدِنـا أنْ يُخَلِّـفَـنـا هـهُـنـا ويمْـضي وحْدَهُ!! لا واللهِ، بَـلْ نـحْـيـا معهُ ونموتُ معهُ، وهَلْ أبْقَـى الـزَّمَـانُ لـنـا غَـيْـرَه؟!».

فبكى ابن العباس بكاء شديدا[٧٢].

زينب عليها السلام تطلب الإذن من زوجها في سفرها مع أخيها الحسين عليه السلام

عـلى الرغـم من أن عقـد قران السـيدة زينب عليها السلام بعبـدالله بن جعفـر كان مشروطـا بشرطين وكان بإمكانهـا أن تسـافر مـع أخيها الحسـين عليه السلام إلى كربلاء بـدون إذن زوجهـا، إلا أنها فضلت أن تسـتأذن من زوجها احتراما له، فلما دنا وقت سـفرها مع أخيها الحسـين عليه السلام أقبلـت إلى زوجها عبدالله وقالت: سـيتوجه أخي الحسـين عليه السلام إلى العراق، وأنت تعلم مدى حبي له وتعلقي به وتعلم أني لا أتحمل فراقه لحظـة واحدة، ونظرا لعدم جواز خروج المـرأة دون إذن زوجها، لهذا جئـتك لطلب الإذن، واعلم إذا ذهب الحسين عليه السلام وبقيت هنا، فبدون أخي الحسين عليه السلام لا يمكنني العيش أبدا.

فنظـر عبدالله إلى زينب عليها السلام وهي تبكي بكاء شـديدا، فرأى أن عـدم الإذن لها يعني مفارقتها الحياة، فبكى عبدالله وقال لها: يا ابنة المرتضى وعقيلة بني هاشم، ما هذا الاضطراب الذي أراه على وجهك؟! افعلي ما شئت!![٧٣]

فرحت زينب عليها السلام بذلك كثيرا وهدأت، وبهذا استطاعت أن تكسب رضا زوجها.

أولاد زينب عليها السلام

ذكـر سبط بن جوزي في (تذكرة الخواص) والمامقاني في (تنقيـح المقـال) أنه كان لزينب عليها السلام أربعة بنين وابنة واحدة هم: علي، عون الأكبر، محمد، عباس، وأم كلثوم.

وذكـر الشـيخ الصـدوق رضي الله عنه في كتاب (أعلام الـورى) أنـه كان لزينب عليها السلام أربعـة أولاد هم: علي، جعفر، عون الأكبر وأم كلثوم.

وذكر الشبلنجي في (نور الأبصار) أن لزينب عليها السلام أربعة بنين وابنة واحدة[٧٤].

(وفي ذكر أحداث عاشوراء سنذكر شهادة ولديها محمد وعون).

ويجـدر القـول هنا أن المرأة التـى لها صبية صغار لا يمكنهـا أن تجازف في مثل هـذا الجهاد والثورة والأسـفار المحفوفة بالأخطار، ولكن السـيدة زينب عليها السلام بإرادتها القوية والتى لم ولن يكون لها مثيل في التاريخ اسـتصغرت كل الموانع والحواجز التى كانت في طريق سفرها إلى كربلاء.

تربية زينب عليها السلام لأولادها

يتوقف نجاح المرء على السعي الهادف والجهد السليم في جميع أبعاد الحياة، وبالنسبة للمرأة فأعظم كسـب وامتيـاز لهـا أن تكـون أم مثالية تربي أولادهـا تربية صالحة قائمة على أسـس تربويـة وأخلاقية متينـة وزينب عليها السلام كأمهـا فاطمة الزهراء عليها السلام أولت هذا الأمر اهتمـاما كبيرا، وأنشـأت بتربيتها أولادا صالحـين فكـانـوا نماذج طيبـة في الإيمان والتضحية والفـداء وذوي نفوس عالية المقـام، فولديها محمد وعـون كانـا من المجاهدين يوم الطف، وحاربا أعداء الدين حتى نالا شرف الشـهادة بين يدي الإمام الحسين عليه السلام.

وكان لزينـب عليها السلام بنـت وهـي أم كلثوم فأحسـنت تربيتها حتـى قيل في شـأنها أن في صفات الجمال

والكمال والعقل والفطنة لم يكن لها مثيل إلا المعصومين عليهم السلام، كما أنها نالت منصبا عاليا ورفيعا في الجوانب المعنوية والأخلاقية.

لمحات من فضائل زينب عليها السلام

إشارة

الفيلسوف الكبير والمرجع الأعلى آية الله الشيخ محمد حسين الغروي رحمه الله (المعروف بآية الله كمباني والمتوفي عام ١٣٦١ هـ) كتب ديوانا في الشعر باللغة العربية والفارسية في مدح ورثاء أهل البيت عليهم السلام، ونقتطف من هذه الأشعار (المكونة من ستين بيتا) بعض الأبيات في مدح السيدة زينب الكبرى عليها السلام:

وَلَّيْتُ وَجْهِي شَطْرَ قِبْلَةِ الوَرَى
وَمَنْ بِهَا تَشَرَّفَتْ أُمُّ القُرَى

قُطْبُ مُحِيطِ عَالَمِ الوُجُودِ
فِي قَوْسَيْ النُّزولِ والصُّعودِ

فَفِي النُّزولِ كَعْبَةُ الرَّزايا
وفِي الصُّعودِ قِبْلَةُ البَرايا

بَلْ هُوَ بابُ حِطَّةِ الخَطايا
ومَوْئِلُ الهِباتِ والعَطايا

أُمُّ الكِتابِ فِي جَوامِعِ العُلا
أُمُّ المُصابِ فِي مَجامِعِ البَلا

رَضِيعَةُ الوَحْيِ شَقِيقَةُ الهُدَى
رَبِيبَةُ الفَضْلِ خَلِيفَةُ النَّدَى

رَبَّةُ خِدْرِ القُدْسِ والطَّهارَة
فِي الصَّوْنِ والعَفافِ وَالخَفارَة

فَإِنَّها تُمَثِّلُ الكَنْزَ الخَفِيَّ
بالسِّتْرِ والحَياءِ والتَعَفُّفِ

تُمَثِّلُ الغَيْبَ المَصُونِ ذاتُها

تُعْرِبُ عَنْ صِفاتِهِ صِفاتُها

مَليكَةُ الدُّنْيا عَقيلَةُ النِّساءِ

عَديلَةُ الخامِسِ مِنْ أَهْلِ الكِساءِ

شَريكَةُ الشَّهيدِ فِي المَصائِبِ

كَفيلَةُ السَّجّادِ فِي النَّوائِبِ

بَلْ هِيَ ناموسُ رَواقِ العَظَمَة

سَيِّدَةُ العَقائِلِ المُعَظَّمَة

ما وَرِثَتْهُ مِنْ نَبِيِّ الرَّحْمَة

جَوامِعَ العِلْمِ، أُصولَ الحِكْمَة

سِرُّ أَبيها فِي عُلُوِّ الهِمَّة

والصَّبْرِ فِي الشَّدائِدِ المُلِمَّة

ثَباتُها تُنْبِئُ عَنْ ثَباتِه

كَأَنَّ فيها كُلَّ مَكْرُماتِه

لَها مِنَ الصَّبْرِ عَلَى المَصائِبِ

ما جَلَّ أَنْ يُعَدُّ فِي العَجائِبِ

بَلْ كادَ أَنْ يُلْحَقَ بِالمَعاجِزِ

لأَنَّهُ حُرْمَةُ كُلِّ عاجِزِ

فَإِنَّها سُلالَةُ الوِلايَة

وِلايَةٌ لَيْسَ لَها نِهايَة

بَيانُها يَفْصَحُ عَنْ بَيانِه

كَأَنَّها تَفْرُغُ عَنْ لِسانِه

ناهيكَ فِي الخُطَبِ المَأْثورَة

فَإِنَّها كَالدُّرَرِ المَنْثورَة

ترتبط شخصية الإنسان وقيمة وجوده بما يتمتع به من الكمالات والفضائل والقيم العالية، وحينما نرجع إلى القرآن الكريم نجد أن الآيات الكريمة تشير إلى ذلك وعلى رأسها أربعة تعد من أفضل الكمالات والقيم وهي عبارة عن:

العلم، التقوى، الجهاد و الإنفاق في سبيل الله عز وجل.

ونستدل في كل من هذه القيم بآية كريمة من جملة آيات عديدة:

١ - وردت في كتاب الله العزيز في شأن العلم هذه الآية المباركة: ﴿... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾(٧٩).

٢ - ووردت في فضيلة التقوى هذه الآية المباركة: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾(٨٠).

٣ - وفي الجهاد وردت هذه الآية المباركة: ﴿... وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾(٨١).

٤ - ووردت في الإنفاق والإحسان إلى الفقراء هذه الآية المباركة: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(٨٢).

وامتازت السيدة زينب عليها السلام بجميع الفضائل والقيم الإنسانية والإسلامية، وعلى الخصوص الفضائل الأربعة التي ذكرناها آنفا، فارتفعت بها إلى أعلى مقامات الكمال.

السيدة زينب الكبرى عليها السلام لم تصل إلى هذه المقامات الرفيعة في المعرفة والكمال والعرفان ونيل عظيم الشأن بسبب كونها ابنة علي المرتضى عليه السلام أو فاطمة الزهراء عليها السلام، فكانت لزينب عليها السلام أخوات ولكنهن لم يصلن إلى هذه الدرجة من الرفعة وعلو الشأن، وكذلك أمها الزهراء عليها السلام التي امتازت بهذه الدرجات العاليات دون أخواتها.

على هذا لمعرفة عظمة زينب عليها السلام والتي لم تضاهيها في عظمتها ورفيع مقامها إلا أمها الزهراء عليها السلام دون النساء لابد من البحث في جوانب العلم والعمل والفضيلة والكمالات الروحية والمعنوية التي نهلت منها زينب عليها السلام.

حينما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمجّد ابنته الزهراء عليها السلام كان يقول: «وأمّا ابْنَتِي فاطِمَة فإنَّها سَيِّدَةُ نساءِ العالمين من الأَوَّلين والآخِرين وهي بَضْعَةٌ منّي وهي نورُ عَيْني وهي ثمرةُ فؤادي وهي روحي التي بين جَنْبَيَ وهي الحَوراءُ الإِنْسِيَّةُ متى قامت في محرابِها بين يدَيْ ربِّها جلَّ جَلالُه زَهَرَ نورُها لملائكةِ السماءِ كما يزْهَرُ نورُ الكواكبِ لأهلِ الأرضِ ويقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لملائكتِه يا ملائكتي انْظُروا إلى أَمَتي فاطِمَةَ سيِّدَةِ إمائي قائمةٌ بين يَدَيْ ترتعدُ فرائصُها من خيفتي وقد أَقبلَتْ بقَلبِها على عِبادَتي»(٨٣).

وكما يقول علماء الأدب: «تَعليقُ الوَصْفِ على الحُكْمِ مُشْعِرٌ بالعِلِّية».

فرسول الله صلى الله عليه وآله حينما يمجّد ابنته الزهراء عليها السلام يذكر خلوص عبادتها لربها عليها السلام وكيف كانت ترتعد فرائصها حينما تقوم في محرابها بين يدي الله سبحانه وتعالى، وهذا دليل على أن عظمة الزهراء عليها السلام لم تكن بسبب كونها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن عظمتها كانت تكمن في خلوص عملها وعبادتها لله سبحانه

وتعالى. وهكذا بالنسبة لابنتها زينب عليها السلام، فكانت عظمتها في علمها وعملها الخالص لله سبحانه وتعالى. ونذكر فيما يلي أربعة من الكمالات التى اتصفت بها زينب عليها السلام.

١ - الكمالات العلمية في زينب عليها السلام

كما وردت في بعض الروايات، بالإضافة إلى العلوم المتداولة بين عموم الناس، كانت لزينب عليها السلام مراتب خاصة في العلوم اللدنية، أي أنها وبسبب حالاتها المعنوية العالية وخلوص نيتها وطهارة باطنها وصلت إلى مرحلة أصبح وجودها يفيض علما وكمالا، ذلك العلم الذي وصفه القرآن الكريم بالعلم اللدني الذي يختص به أولياءه حيث يقول: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[٨٤]!!

وكانت زينب عليها السلام من الأولياء الذين خصهم الله عز وجل بهذا العلم الوهبي اللدني، وبرز فيها هذا العلم منذ نعومة أظفارها .

زينب عليها السلام تدرّس القرآن في الكوفة

بعد وقعتي الجمل وصفين أي بعد عام ست وثلاثين من الهجرة انتقل أمير المؤمنين عليه السلام مع أهل بيته إلى الكوفة وكانت معه زينب الكبرى عليها السلام فأقامت فيها ما يقارب أربع سنين.

رأت نساء الكوفة أن زينب عليها السلام كانت في كمالاتها العلمية والعملية مثال أمها الزهراء عليها السلام، فطلبن من أزواجهن أن يتوسطوا لهن عند أمير المؤمنين عليه السلام لكي يبلغ ابنته زينب عليها السلام بأن تقيم مجالس لتدريسهن.

قبلت زينب عليها السلام ذلك فسرت النساء فكانت لزينب عليها السلام مجالس لتدريس النساء كل صباح[٩٣].

وردت في بعض الروايات أنه في حين تدريس زينب عليها السلام تفسير القرآن دخل أمير المؤمنين عليه السلام فسمعها وهي تفسر كلمة ﴿كهيعص﴾ من أول سورة مريم، ثم سألها: يا نور عيني، سمعتك تفسرين الآية الأولى من سورة مريم!!

فقالت: نعم فداك نفسي، فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: أن حروف كلمة «كهيعص» إنما ترمز إلى المصائب التى سترد عليكم، ثم أخذ يبين لها مصائب كربلاء، وحينما سمعت زينب عليها السلام بذلك بكت بكاء شديدا[٩٤].

زينب عليها السلام من شجرة النبوة ومعدن الرسالة

من الأمور التى تكشف عن عظمة مقام زينب عليها السلام أن يقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في شأنها: «إنَّكِ حَقًّا مِنْ شَجَرَةِ النُبُوَّةِ ومنْ مَعْدِنِ الرِّسالَةِ» كما وردت في الرواية التالية:

كانت زينب عليها السلام جالسة في محضر أخويها الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام وكانا يتحدثان في بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالت زينب عليها السلام: سمعتكما تقولان أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرامُ بَيِّنٌ وشُبُهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ»[٩٥].

ثم أكملت الحديث قائلة: «مَنْ تَرَكَها (أي الشبهة) صَلُحَ لَهُ أمْرُ دينِهِ وصَلُحَتْ لَهُ مُرُوَّتُه وعِرْضُهُ ومَنْ تلَبَّسَ بها ووَقَعَ فيها واتَّبَعَها كانَ كمَنْ رَعَى غَنَمَهُ قُرْبَ الحِمَى ومَنْ رَعَى ماشِيَتَهُ قُرْبَ الحِمَى نازَعَتْهُ نَفْسُهُ أنْ يرْعاها في الحِمَى ألا وإنَّ لِكُلِّ مُلْكٍ حِمَى ألا وإنَّ حِمَى الله عَزَّ وجَلَّ مَحارِمُهُ».

ثم قالت عليها السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةٌ إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ألا وهِيَ القَلْبُ».

ثم أسردت تقول: أما سمعتما رسول الله صلى الله عليه وآله الذي تأدب بأدب الله عز وجل ويقول: «أدَّبَني ربِّي وأحْسَنَ تأديبي»!! يقول: «الحَلالُ ما أحَلَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وذكرَه في القرآنِ الكريمِ وبيَّنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله مثْلَ البيعِ والشراءِ وإقامِ الصَّلاةِ في أوقاتِها وإيتاءِ الزكاةِ وصومِ رمضانَ وحَجِّ البَيتِ لمن استطاعَ إليهِ سبيلاً والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ وتركِ الكذبِ والنفاقِ والخيانةِ، والحرامُ ما حَرَّمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وذكرَهُ في القُرآنِ الكريمِ وبيَّنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله، والحرامُ نقيضاً للحلالِ، وأمَّا الشُّبُهاتُ فهي أمورٌ لا نعلمُ حلالَها وحرامَها، والمؤمنُ إذا لم يعلَمْ الشَّيءَ إنْ كانَ حلالاً أو حراماً وكانَ يرجو سعادةَ الدنيا والآخرةِ فعليه أنْ لا يتَّبعْ الشُّبُهاتِ، عليه أنْ يؤدِّيَ الواجباتِ ويترُكَ المُحرَّماتِ ويتجنَّبَ الشُّبُهاتِ، فالشُّبُهاتُ تجُرُّه إلى المُحَرَّماتِ».

هنالك قال لها الإمام الحسن عليه السلام: زادك الله كمالا، نعم إنه كما تقولين، «إنكِ حَقًّا من شجرةِ النبوَّةِ ومن مَعْدِنِ الرسالةِ»[٩٦].

٢ - تقوى زينب عليها السلام وطهارة نفسها ونيابتها الخاصة عن أخيها الحسين عليه السلام

كما ذكرنا سابقا أن التقوى وطهارة النفس من الكمالات والقيم العالية الأربعة التى يركز عليها القرآن الكريم، وزينب عليها السلام طبقا لبعض الشواهد وصلت إلى نوع من مقام العصمة من الذنوب والمعاصي، وكانت في جميع أبعاد حياتها تدور في دائرة التقوى الإلهية، وطهارة نفس زينب عليها السلام كانت تكمن في زهدها وسخائها وصبرها ورباطة جأشها عند المصائب والبلايا.

بلغت زينب عليها السلام من الفضل والتقوى وطاعة الله عز وجل وطاعة رسوله والأئمة عليهم صلوات

الله أجمعين مبلغا عظيما، فلما كان يوم عاشوراء وفي الساعة التي جلس شمر على صدر الحسين عليه السلام وهو يجود بنفسه، تلك الساعة العصيبة التي يكاد أن يفقد فيها الإنسان صوابه، حينما رأى الإمام الحسين عليه السلام أخته وهي مقبلة عليه أمرها أن ترجع إلى خيمتها وأن ترعى أهله وعياله، فامتثلت لأمره طائعة فرجعت القهقري وهي تنظر إليه لكي لا ينقطع بصرها عن رؤية جمال وجهه الشريف[٩٧].

وعلى هذا سميت بالصدّيقة الصغرى والمعصومة الصغرى، وعلى هذا الأساس أعطاها الإمام الحسين عليه السلام النيابة الخاصة لفترة من الزمان، وهذه المرتبة العظيمة والشرف الذي لا يضاهيه شرف لا تليق إلا بمن كانت له نفس طاهرة ووقف على دائرة العصمة.

ونيابة الحسين عليه السلام الخاصة التي وكلها إلى أخته زينب عليها السلام ظهرت حينما أوكل الإمام السجاد عليه السلام الأمور في الظاهر ولمدة من الزمان لعمته زينب عليها السلام وذلك حفاظا على روحه الشريفة، فكانت هي الواسطة المباشرة بين الإمام الحسين عليه السلام والناس وكانت بذلك تحمل ثقل أسرار الإمامة والوصاية.

حديث العلامة المامقاني في مقام طهارة وعصمة زينب عليها السلام

المرحوم المحقق الكبير العلامة المامقاني في كتابه «تنقيح المقال» يقول: «زينب!! وما أدراك ما زينب!! هي عقيلة بني هاشم، وقد حازت من الصفات الحميدة ما لم يحزْها بعد أمها، حتى حقٌّ أن يقال أنها الصدّيقة الصغرى»!!

ثم يقول: «ولو قلت بعصمتها لم يكن لأحد أن ينكر، إن كان عارفا بأحوالها في الطف وما بعده، كيف ولولا ذلك لما حمَّلها الحسين عليه السلام مقدارا من ثقل الإمامة أيام مرض السجاد عليه السلام، وما أوصى إليها بجملة من وصاياه، ولما أنابها السجاد عليه السلام في بيان الأحكام وجملة أخرى من آثار الولاية»[٩٨]!!

ثم بين في مقالته هذه الرواية: عن أحمد بن إبراهيم قال: دخلت على حكيمة بنت محمد بن علي الرضا عليه السلام أخت أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام في سنة اثنتين وستين ومائتين من الهجرة فكلمتها من وراء حجاب وسألتها عن دينها فسمت لي من تأتم بهم ثم قالت والحجة بن الحسن بن علي فسمته فقلت لها: جعلني الله فداك، معاينة أو خبرا؟! فقالت: خبرا عن أبي محمد كتب به إلى أمه، فقلت لها: أين الولد؟! فقالت مستور، فقلت: إلى من تفرغ الشيعة؟! فقالت: إلى الجدة أم أبي محمد عليه السلام (وهي سوسن أم الإمام الحسن العسكري عليه السلام وجدة الإمام المهدي عليه السلام)، قلت لها: أقتدي بمن في وصيته امرأة!! فقالت: اقتداءً بالحُسَينِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام والحُسَينُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام أَوصى إلى أُخْتِهِ زينبَ بنتِ عَلِيٍّ في الظاهِرِ وكانَ ما يَخْرُجُ عن عَلِيِّ بْنِ الحسين عليه السلام من عِلْمٍ يُنْسَبُ إلى زَيْنَبَ سِتْراً على عَلِيِّ بْنِ الحسين عليه السلام[٩٩].

٣ - جهاد زينب عليها السلام وشجاعتها

من الكمالات السامية والقيم العالية التى وردت في القرآن الكريم هو الجهاد في سبيل الله عز وجل، ولو وضع النهي عن المنكر وهو أمر إلهي رفيع إلى جانب الجهاد في سبيل الله عز وجل فهما يشكلان معا جزءا عظيما من أركان الإسلام وأحكامه النورانية.

رحيل زينب عليها السلام مع أخيها إلى كربلاء وإلقائها تلك الخطب البليغة في جموع أهل الكوفة والشام والتى أظهرت فيها الوجه القبيح لأهل الجور والظلم وطواغيت ذلك الزمان، وانتهازها كل أدنى فرصة للدفاع عن الحق وحريمه وبطلان الضلال وأهله، وشجاعتها وقوة بأسها في كثير من مواطن المحن وصبرها في مكامن الفتن، فكانت حقا بطلة كربلاء وناطقة بدماء الشهداء، كل ذلك دليل على سلوكها مسلك المجاهدين في الله وسبيل العارفين بالله والفانين في ذات الله، فكانت نورا يستضاء به في ظلم الجور والجهالة وسراجا يستنار به في حيرة الباطل والضلالة.

وسوف نبحث في هذا الموضوع بالتفصيل في الفصول القادمة.

٤ - إنفاق زينب عليها السلام وإحسانها للفقراء والمساكين

يركز القرآن الكريم كثيرا على الإنفاق على الفقراء والمساكين والإحسان إليهم، وضربت زينب عليها السلام كأمها فاطمة الزهراء عليها السلام مثالا رائعا في العطاء والإنفاق على الفقراء والمساكين حتى وصل إنفاقها إلى حد الإيثار.

كانت زينب عليها السلام في عصر خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام في الكوفة والتى استغرقت ما يقارب الخمس سنوات ملكة العالم الإسلامي، فكانت ترافق أبيها والذي كان يكنى بأبي المساكين في السعي في حوائج المؤمنين وتفقّد أحوال الفقراء والمساكين.

كانت زينب عليها السلام في الحد الأعلى من الإيثار، فبعد واقعة الطف ولما أضحت بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبايا ظلت زينب الكبرى عليها السلام ثلاثة أيام بلياليها لا تأكل الطعام بل كانت تعطي نصيبها من الطعام إلى أيتام الشهداء مع العلم أن الطعام لم يكن إلا كسرة خبز كل يوم!![١٠١]

وسوف نبين في الفصول القادمة أن إنفاق زينب عليها السلام لم يقتصر على الإنفاق بالمال فحسب بل أتت بولديها عون ومحمد عليهما السلام إلى أرض كربلاء وضمتهما إلى قافلة الإمام الحسين عليه السلام ليجاهدوا دون خالهما وإمام زمانهما حتى استشهدا بين يديه.

وفي استشهاد ولديها محمد وعون لم تبد أي رد فعل بل لم تخرج من خيمتها حتى لا تفقد صبرها

عند رؤية أجسادهم المرملة بالدماء احتسابا للأجر والثواب ولكي لا يراها الإمام الحسين عليه السلام على هذا الحال فيستحيي منها.

نعم، فزينب عليها السلام تربت في بيت النبوة والولاية والعصمة، بيت السخاء والعطاء والإيثار، فتجسدت أمام عينيها المآثر والسجايا والمكارم والعطايا، ذلك البيت الذي نذر أهله بالصيام لشفاء الحسن والحسين عليهما السلام، فأوفوا بالنذر وصاموا، ولما حان وقت الإفطار في اليوم الأول أتاهم مسكين فأعطوه الطعام ومكثوا ليلتهم لم يذوقوا إلا الماء، ولما كان اليوم الثاني أتاهم يتيم فأعطوه الطعام ومكثوا ولم يذوقوا إلا الماء، ولما كان اليوم الثالث أتاهم أسير فأعطوه الطعام وآثروه ومكثوا ثلاثة أيام لم يذوقوا سوى الماء، فلما كان في اليوم الرابع وقد قضوا نذرهم أخذ علي عليه السلام الحسن بيده اليمنى والحسين بيده اليسرى وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وهم يرتعشون كالفراخ، فساءه ما رأى ثم انطلقوا إلى فاطمة الزهراء عليها السلام وهي في محرابها تصلي وقد لصق بطنها بظهرها وغارت عيناها، فهبط جبريل عليه السلام على رسول الله وقال: خذ يا محمد، هنأك الله في أهل بيتك قال صلى الله عليه وآله: وما آخذ يا جبريل؟! فأقرأه «هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ» وكانت فيها هذه الآية المباركة: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً»!![١٠٢]

وروي أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يشكو الجوع، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أزواجه فقلن ما عندنا إلا الماء فقال صلى الله عليه وآله: من لهذا الرجل الليلة؟! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أنا يا رسول الله، فأتى فاطمة وسألها: ما عندك يا بنت رسول الله؟! فقالت ما عندنا إلا قوت الصبية لكنا نؤثر ضيفنا به، فقال علي عليه السلام: يا بنت محمد صلى الله عليه وآله، نوّمي الصبية وأطفئي المصباح، وجعلا يمضغان بألسنتهما فلما فرغ من الأكل أتت فاطمة بسراج فوجد الجفنة مملوءة من فضل الله عز وجل، فلما أصبح صلى مع النبي صلى الله عليه وآله فلما سلم النبي صلى الله عليه وآله نظر إلى أمير المؤمنين عليه السلام وبكى بكاء شديدا وقال: يا أمير المؤمنين، لقد عجب الرب من فعلكم البارحة، وقرأ الآية التاسعة من سورة الحشر: ﴿وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾!![١٠٣]

نعم، في مثل هذا البيت ترعرعت زينب الكبرى عليها السلام فحملت في ذاتها تلك الخصال المحمودة والمناقب المشهودة.

زينب عليها السلام وردُّ الجميل

عرض يزيد على أهل البيت المقام بدمشق فأبوا ذلك فقال للنعمان بن بشير صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله جهز هؤلاء بما يصلحهم وابعث معهم رجلا من أهل الشام أمينا صالحا وابعث معهم خيلا وأعوانا ثم كساهم وحباهم وفرض لهم الأرزاق ثم أوصى بهم الرسول فخرج بهم الرسول يسايرهم فيكون

أمامهم فإذا نزلوا تنحّى عنهم وتفرق هو وأصحابه كهيئة الحرس، ثم ينزل بهم حيث أراد أحدهم الوضوء ويعرض عليهم حوائجهم ويلطفهم حتى دخلوا المدينة، قال الحارث بن كعب قالت لي فاطمة بنت علي عليها السلام قلت لأختي زينب عليها السلام: قد وجب علينا حق هذا لحسن صحبته لنا فهل لك أن تصِليه؟! قالت: والله ما لنا ما نصله به إلا أن نعطيه حلينا، فأخذت سواري ودملجي وسوار أختي ودملجها فبعثنا بها إليه واعتذرنا لقلتها، وقلنا له: هذا بعض جزائك لحسن صحبتك إيانا، فقال: لو كان الذي صنعته للدنيا كان في دون هذا رضاي ولكن والله كما فعلته إلا لله وقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١٠٤].

على هذا يمكننا أن نأخذ من موقف زينب عليها السلام وأختها فاطمة عليها السلام هذه العبرة في حسن الخلق ورد الجميل لأصحابه كخصلة حميدة من الخصال الإسلامية وفضيلة أخلاقية وإنسانية.

عبادة زينب عليها السلام

كانت السيدة زينب عليها السلام قبل كل شيء أمة خالصة لله عز وجل، وعبوديتها لله كانت ظاهرة في جميع حركاتها وسكناتها، كانت في صلاتها ومناجاتها ودعائها وتهجدها في أعلى مقامات العرفان والسلوك إلى الله عز وجل، فكانت تقضي جل أوقاتها بالعبادة والتهجد والتضرع لله عز وجل.

تربت زينب عليها السلام في بيت الوحي والنبوة، فكانت ترى جدها رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قام إلى الصلاة سمع لصدره وجوفه أزيز كأزيز المرجل على الأثافي[١٠٥] من شدة البكاء وقد آمنه الله عز وجل من عقابه، فأراد أن يتخشع لربه ببكائه ويكون إماما لمن اقتدى به ولقد قام صلى الله عليه وآله عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه واصفر وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عز وجل: «طَهَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى» بل لتسعد به، ولقد كان يبكي حتى يغشى عليه فقيل له: يا رسول الله، أليس الله تبارك وتعالى غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: بلى، أَفلا أكونُ عَبْداً شكوراً!![١٠٦]

كانت زينب عليها السلام ترى الإخلاص في العبادة في أمها فاطمة الزهراء عليها السلام، حتى قال في شأنها الحسن البصري: «ما كانَ في هذه الأُمَّةِ أَعْبَدُ من فاطِمَة، كانت تقومُ حتَّى تَوَرَّم قدماها»[١٠٧].

وأما عبادة والدها أمير المؤمنين وإمام المتقين علي عليه السلام فلا حد لها ولا وصف، وكما قال فيه أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ومَنْ يَقْوَى عَلَى عِبادَةِ عَلِيٍّ عليه السلام»[١٠٨] حتى صار النظر إليه عبادة وذكره عبادة[١٠٩].

على هذا، اقتبست زينب عليها السلام من هذه الأنوار الطاهرة والأنجم الزاهرة أسمى معاني الإيمان وكمال العبودية لرب الأرباب والخلوص في طاعة الملك الوهاب فاختلطت بذاتها وكامل وجودها.

كانت زينب عليها السلام تديم في إحياء لياليها بالذكر والتهجد وقراءة القرآن وصلاة الليل، وحتى في ليلة الحادي عشر من محرم وبعد تلك المصائب والأهوال لم تنس ذكر الله وصلاة الليل يقول الإمام السجاد عليه السلام: «رَأَيتُها تِلْكَ اللَّيلَة تُصَلِّي مِن جُلُوسٍ»[١١٠].

الإمام الحسين عليه السلام كان يرى في أخته زينب عليها السلام الخلوص والعرفان وأدب العبودية لله عز وجل، لهذا لما ودعها وداعه الأخير قال لها: «يا أُخْتَاه، لا تنسيني في نافِلَةِ اللَّيْل»[١١١]

وفي (مثير الأحزان) للعلامة الشيخ شريف الجواهري (قده): قالت فاطمة بنت الحسين عليهما السلام: «أمَّا عَمَّتي زَيْنَبَ فإنَّهـا لَمْ تَـزَلْ قـائِمَـةً في تلك اللَّيْلَـةِ (أي العاشِرِ من مُحُـرَّم) في مِحْرابِهـا تستغيثُ إلى رَبِّـهـا فما هَـدَأَتْ لها عَيْـنٌ ولا سَكنت لها رَنَّـةٌ»[١١٢].

وروي عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: إن عمتي زينب كانت تصلي قائمة إلا أنها صلت جالسة في بعض المنازل وسألوها عن السبب فقالت: إن ذلك من جهة شدة الجوع والضعف منذ ثلاث ليال إذ كان الظلَمة والكفَرة يعطون لكل واحد من الأسرى في يوم وليلة رغيفا من الخبز ومن المعلوم أن ذلك لا يكفيهم، وكانت زينب عليها السلام تعطي حصتها من الطعام لسائر الأطفال وتبيت جائعة[١١٣].

ويجدر بنا القول أن العبادة لا تقتصر على الصلاة والمناجاة بل لها أبعاد أخرى، هذه السيدة الجليلة التى كانت تراعي جميع هذه الأبعاد كرعايتها للأيتام وإبلاغها رسالة الشهداء والنهي عن المنكر وإعلاء كلمة الحق لم يكن لها نظير في تلك الميادين.

قال أحد العلماء والشعراء في بعض الجمل الجامعة لتلك الأبعاد:

«المكـرَّمـة، حافظة الودائع والأسـرار، الموثـقة فـي نـقـل الأحاديـث والأخـبار، الفـصيحـة البليـغـة فـي البيـان، المعظمة، قـويـة الجنـان عند الهـزائز، ذلك فضـل الله يـؤتـيـه مـن يشـاء»[١١٤].

وقال أيضا:

ولو كانَ النساءُ بمثلِ هَذي
لَفُضِّلَتِ النساءُ على الرجالِ
فَمَا التأنيثُ عيبٌ للشُموسِ
ولا التذكيرُ فَخْرٌ للهِلالِ[١١٥]

أثر مقام عظماء الولاية على زينب عليها السلام

كانت لزينب عليها السلام مكانة خاصة ومقاما مميزا بين بنات أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام كما كانت لأمها فاطمة الزهراء عليها السلام بين أخواتها بنات رسول الله صلى الله عليه وآله، وكما أشرنا سابقا أن زينب عليها السلام لم تنل تلك المكانة والمقام الرفيع بسبب نسبها وانتمائها إلى أهل بيت النبوة والعصمة، بل علاوة على ذلك كانت لها شخصية مميزة وذلك بعلمها وعملها ونشاطاتها الدؤوبة في رفع راية الإسلام وإعلاء كلمة الحق ودحض الباطل.

قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «ما أَخْلصَ عَبْدٌ لله عزَّ وجلَّ أَربَعِينَ صباحاً إلا جَرَتْ ينابيعُ الحِكْمَةِ من قلبِهِ على لسانِهِ»[١١٦].

وقال صلى الله عليه وآله: «مـا زَهَدَ عـبدٌ فـي الدنيا إلا أَنبـتَ اللهُ الـحِـكْـمَـةَ فـي قَـلْـبِه وأنطَقَ بها لِسانَـه»[١١٧].

وقال صلى الله عليه وآله: «ليس العِـلْـمُ في السـماءِ فينزلُ عليكُمْ ولا في تـُخُـومِ الأرْضِ فيخرجُ لكُمْ، تخَلَّـقُـوا بأخـلاقِ الروحانـيِّـيـن يَـظْـهَـرُ لكُمْ»[١١٨].

بلا شـك، امتازت زينب عليها السلام بكمال الخلوص في العبودية لله عـز وجل والرضا بقضائه، فنبعت من ذاتها ينابيع العلم والحكمة، ومضت قدما في طريـق الحق وشرت الآخرة الباقية بالدنيا الفانية ففازت بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية.

تـلألأت زينـب عليها السلام بكامل وجودها وذاتها حتى وصلت إلى مقام العظمـة في الولاية، فكانت أهلا لأن تنـال شرف منصـب النيابـة الخاصة من الإمام الحسـين عليه السلام وذلك بعد استشـهاده وفى مدة مرض الإمام السجاد عليه السلام، وكانت مرجعا للناس في الأحكام لبيان الحلال والحرام.

ويتجلى ذلك في موقفين عظيمين نبينها لكم:

١ – لما كان وداع الإمـام الحسـين عليه السلام الأخـير للصفـوة مـن آل طـه وياسـين علي بن الحسـين زين العابديـن عليه السلام وبنات الرسـالة وحرائر النبوة، قال الإمام الحسـين عليه السلام: كأني أراكـم عن قريب غير بعيد كالإماء والعبيد يسوقونكم أمام الركاب ويسومونكم سوء العذاب.

فلـما سـمعت زينـب عليها السلام بكت ونـادت: واوحدتـاه!! واقلة ناصراه!! واسـوء منقلباه!! واشـؤم صباحاه!! فشقت ثوبها ونشرت شعرها ولطمت على وجهها.

فقال الحسين عليه السلام: مهلا يا بنت المرتضى، إن البكاء طويل!!

فـأراد أن يخـرج من الخيمة فتعلقت به وقالت: مهلا يـا أخي!! توقف حتى أتزود منك ومن نظري إليـك وأودعـك وداع مفـارق لا تلاقي بعـده، فجعلت تقبل يديه ورجليه، وأحطن به سـائر النسـوة وجعلـن يقبلـن يديـه ورجليه فسـكتهن الحسـين عليه السلام وردهـن إلى الفسـطاط، ثم دعا بأختـه زينب عليها السلام فصبرها وأمر يده على صدرها وسكنها من الجزع، وذكر لها ما أعد الله من الثواب للصابرين وما وعد مـن الكرامات للمقربين فرضيت وأظهرت الفرح والسرور في وجهه، هنالك قالت زينب عليها السلام لأخيها الحسين عليه السلام: «يا ابْـنَ أُمـيِّ، طِبْ نـفْسـاً، وقَـرِّ عَيْـنـاً، فإنـكَ تجـدُنِي كما تحـبُّ وتـرضَـى»!![١١٩]

أي يد مباركة كانت هذه!! وأي قلب وعى ذلك الفيض من تلك اليد الطاهرة!!

٢ – لما سُيِّر موكب أسرى وسبايا آل محمد صلى الله عليه وآله على أقتاب المطايا يراد بها الكوفة، رؤيت نساء الكوفة يندبن متهتكات الجيوب وعلت أصواتهن بالبكاء والعويل ودعون بالويل والثبور فلم تطق زينب عليها السلام صبرا على أن تـرى أهـل الختـل والغـدر بـالأمـس يقـتـلون أخاها الحسـين عليه السلام وآله واليوم يبكون على حريـمـه وبناتـه!!

يقول بشير بن حزيم الأسدي[١٢٠]: «وقد أَومـأَتْ إلى النـاسِ أنْ اسْـكُـتُـوا!! فارْتـدَّتِ الأنـفـاسُ وسَـكَـنَت الأجراس»[١٢١].

حـارت العقـول وكلَّـت الألسـن في وصف هـذا المشـهد العظيم، امـرأة قـد أخنى الزمـان عليها فأشـهدها عظائـم الأمور وفجائع الدهور، قُتـل أخوها وعترته وتُركوا صرعى في الفلوات، وسـبيت نسـاؤه وصبيته فكانوا رهن الشـتات، ولتكفي واحدة منها لتنشـق السـماء وتهد الأرض وتخر الجبال، فتقـف أمامهـا صامدة قوية أبيـة، فكانت على قدَر الله صابـرة وبأمره راضية، حتـى أومأت إلى الناس أن اسـكتوا، وكان الناس حيارى يبكون، فارتدت أنفاسـهم وخَـيَّم السكون عليهم، وكأن الأجراس سمعت ما قالت فسكنت!!

تلك السيدة العظيمة أبت إلا أن تنضم إلى قافلة عظماء الولاية ونجباء العصمة وأركان الطهارة.

زينب عليها السلام ومقامات الصبر والرضا والشكر

في الحـالات المعنويـة والروحانيـة والعرفانية يمكن الحديـث عن ثلاثة مقامات تعـد من المقامات العالية في الإيمان ومن الأسـس القوية في تكامل الإنسـان ومعراجه إلى الملكوت الأعلى ألا وهي مقام الصبر والرضا والشكر، فالإنسان بعد مرحلة كمال الصبر يصل إلى مرحلة الرضا برضا الله عز وجل، وبعد هذه المرحلة الرفيعة يصل إلى مقام الشكر.

المصائـب الأليمة والمفجعة التي انهالت على زينب الكبرى عليها السلام كانت كل واحدة منها تكفي لتشـل قواها وتفقدها صبرها، فواجهت ألم فراق جدها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ثم شهادة أمها الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام على صغر سـنها ثم شـهادة أبيها سـيد الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام ثم شـهادة أخيها الإمام الحسـن المجتبى عليه السلام بسـمِّ الغدر والخيانة، ثم الأحداث الدامية عـلى أرض كربلاء والتي فقدت فيها أعزة أهلها وعلى رأسهم حبيب قلبها وسرور فؤادها الإمام الحسين عليه السلام ثم المصائب التي لاقتها من هجوم على خيام آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما تبعه من النهب والسلب والضرب ثم الأسر والسبي والسير من بلد إلى بلد تتقدم محملها رؤوس الشهداء ويتبعه صرخات اليتامى والثكالى، ولكنها صبرت وصبرت حتى نقل عنها أنها قالت: «سأَصْـبـرُ حـتَّـى يعجزُ الصـبـرُ عـن صـبـري»[١٢٣]!!

وما كانت غايتها في صبرها إلا رضا الله تبارك وتعالى، فما كان بكاؤها في مصيبة أخيها الحسـين عليه السلام بـكاء مذلـة أو عدم الرضا بقضاء الله تبارك وتعالى، بل كان بكاؤها بكاء عاطفيا يحمل في طياته رسـالة إلى العالم أجمع فاهتزت له المشاعر وأبكت به العيون وأحرقت فيه القلوب وكان كالصاعقة على قلوب

أعداء الله وأعداء رسول الله وآله، فأحرق بلهيبه قرير عينهم وقرار عيشهم.

ترسخت في زينب عليها السلام مقام الرضا بقضائه والتسليم لأمره حتى كان عصر يوم عاشوراء حينما هجم الأعداء على خيام آل المصطفى وبنات الرسالة فأخرجوهن منها وأشعلوا في الخيم نارا، فخرجن حافيات باكيات يمشين سبايا في أسر الذلة، فأقبلت زينب عليها السلام إلى زين العابدين عليه السلام وقالت: «يا بقيَّة الماضين وثمالَ[١٢٤] الباقين قد أضْرموا النارَ في مضاربنا، فما رأيك فينا؟!».

فقال عليه السلام: «عليكُنَّ بالفِرارِ»!!

ففرن بنات رسول الله صلى الله عليه وآله صائحات باكيات نادبات إلا زينب الكبرى عليها السلام رأت أن الحفاظ على حياة الإمام المعصوم أولى من فرارها، فكانت واقفة تنظر إلى زين العابدين عليه السلام وتصفِق بيديها وتارة تدخل في الخيمة وتارة تخرج وتولت هي بنفسها حراسة ابن أخيها الإمام زين العابدين عليه السلام[١٢٥].

ولما كان يوم الحادي عشر من محرم وبعد أن حضنت أرض كربلاء جثث الزواكي من آل أحمد صلى الله عليه وآله جاءت زينب عليها السلام إلى مصرع أخيها الحسين عليه السلام فرأته مقطعا إربا إربا، هنالك تجلت حقيقة العبودية لله والتسليم لأمر الله والرضا بقضاء الله حينما بسطت يداها تحت جثمانه المقدس ورفعته إلى السماء وقالت: «إلهي تقبَّلْ منا هذا القُرْبان»[١٢٦].

وارتفعت زينب عليها السلام بمقام الرضا بقضاء الله والتسليم لأمره إلى مقام الشكر، وفي كل موقف شهدته لم تنس شكر الله عز وجل، فلما أدخل أسارى أهل الطهر عليهم السلام في مجلس عبيدالله بن زياد، أقبل بن زياد على زينب عليها السلام وقال لها: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

فقالت زينب عليها السلام: «الحمدُ لله الذي أكرمَنا بنبيِّه صلى الله عليه وآله وطهَّرنا من الرجسِ تطهيراً، إنَّما يُفتضَحُ الفاسقُ ويُكَذَّبُ الفاجرُ وهو غيرُنا» فقال ابن زياد: كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟! فقالت: «ما رأيتُ إلاَّ جميلاً»!![١٢٧].

زينب عليها السلام ومراقبتها الشديدة للستر والحجاب والعفاف

من الواجبات التي لابد لكل امرأة مسلمة مراعاتها هي الحفاظ على الستر والحجاب والعفة، فقد صرح بلزوم الحجاب في القرآن الكريم في أربع آيات[١٢٨] تصريحا مباشرا، وأشار إلى ذلك في إحدى عشرة آية أخرى[١٢٩] ووردت أيضا روايات كثيرة وعديدة بهذا الخصوص.

وكانت السيدة زينب الكبرى عليها السلام كأمها الزهراء سيدة النساء عليها السلام مثالا في العفة ومراعاة الحجاب والستر، وكما يقول العلامة المامقاني: «وهي في الحجابِ والعفافِ فريدةٌ، لم يَرَ شخصَها أحد من الرجالِ في زمانِ أبيها وأخويها إلى يومِ الطفِّ»!![١٣٠]

وحدث يحيى المازني قال: «كنت في جوار أمير المؤمنين عليه السلام في المدينة مدة مديدة وبالقرب من البيت الذي كانت تسكنه زينب ابنته، فلا والله ما رأيت لها شخصا ولا سمعت لها صوتا، وكانت إذا أرادت الخروج لزيارة جدها رسول الله صلى الله عليه وآله تخرج ليلا والحسن عن يمينها والحسين عن شمالها وأمير المؤمنين أمامها فإذا قربت من القبر الشريف سبقها أمير المؤمنين عليه السلام فأخمد ضوء القناديل فسأله الحسن مرة عن ذلك فقال: أخشى أن يرى شخصها أحد»!![١٣١]

وبعد فاجعة كربلاء، هجم الأعداء على خيام بنات الرسالة فأشعلوا فيها النار وتهاجم القوم على النهب والسلب فأخذوا ما عليهن بحيث لم يبق لهن ما يتسترن به، ولم تكن زينب عليها السلام بكامل حجابها آنذاك ولكنها كانت تنهى النظر إليها، وكانت تستر وجهها بيديها لكيلا يراها أحد.

وحالت الإمدادات الغيبية والأنوار الملكوتية دون النظر إلى شخص السيدة الجليلة زينب الكبرى عليها السلام فكانت كالشمس الطالعة التي ترد بشعاعها أبصار الناظرين.

والعلامة السيد عباس المقرم يحكي حكاية حقيقية وجديرة بالذكر في هذا المقام ويقول:

أن المرحوم العلامة كاشف الغطاء (من كبار مراجع التقليد في عصره، والمتوفى عام ١٢١٨ هـ) في رثائه زينب عليها السلام كتب هذه الأبيات من الشعر على ورقة:

مَغْلُولَةَ الأيدِي إلَى الأعنَاقِ ... تُسْبَى على عُجْفٍ من النِيَاقِ

حاسِرَةَ الوَجْهِ بغيرِ بُرْقُعِ ... لا سِتْرَ غيرَ ساعِدٍ وأذْرُعِ

قَدْ تركَتْ عزيزَها على الثَّرى ... وخلَّفَتْهُ في الهَجِيرِ والعَرى

إنْ نظرَتْ لها العُيونُ وَلْوَلَتْ ... أو نظرَتْ إلى الرُّؤوسِ أَعْوَلَتْ

تَوَدُّ أنَّ جسْمَهَا مَقْبورُ ... ولا يراها الشامِتُ الكَفُورُ

وبعد فترة من الزمان رجع العلامة كاشف الغطاء إلى تلك الورقة التي كتب فيها هذه الأبيات من الشعر، وإذا بهذا البيت من الشعر قد أضيف إليه:

وهي بأسْتارٍ من الأنْوارِ ... تحْجُبُها من أَعْيُنِ النظَّارِ[١٣٢]

نعم، تلك الحادثة العجيبة تبين لنا أن العنايات الإلهية أحاطت زينب الكبرى عليها السلام بحجب وهالات من نور منعت أعين الناظرين من النظر إلى قامتها.

مراقبة زينب عليها السلام على العمل بالحلال والنهي عن الحرام

في أشد أوقات العسرة وأصعبها لم تغفل السيدة زينب عليها السلام عن الأحكام الإلهية في الحلال والحرام والمستحب والمكروه، وحسبها هذا المقام أن ائتمنها الإمام السجاد عليه السلام على بعض من أسرار الولاية والإمامة فكانت تبين للناس الأحكام الشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وحتى في المستحبات لم تكن غافلة عن ذكر الله والصلاة له، فبعد واقعة الطف وفي أيام الأسر والسبي لم تترك صلاة الليل!!

وأمر الحجاب كان أحد تلك الأمور التي أولتها السيدة زينب عليها السلام عناية كبيرة، فلما دخلت هي وأهل البيت عليهم السلام إلى الكوفة أسرى كانت تنادي في الناس: «يا أهلَ الكوفَة، غُضُّوا أبْصارَكُمْ عنا، أما تستحون من الله ورسولـه أنْ تنظُروا إلى حَرَمِ رسولِ الله!!»[١٣٣].

وحينما أدخلوا إلى مجلس يزيد في الشام قامت زينب عليها السلام وقالت ليزيد: «أمِنَ العَدْلِ يا ابْنَ الطُّلقاءِ تَخْديرُك حرائرُك وإمائك وسَوقُك بناتُ رسولِ الله سبايا قد هَتَكْتَ سُتورَهُنَّ وأبْديتَ وُجوهَهُنَّ تَحْدوا بِهِنَّ الأعداءُ من بلدٍ إلى بلدٍ ويسْتَشْرِفُهُنَّ أهْلُ المناهِلِ والمناقِلِ ويتصَفَّحُ وجوهَهُنَّ القريبُ والبعيدُ والدَنِيُّ والشريفُ ليس معهُنَّ من رِجالِهِنَّ وَلِيٌّ ولا من حُماتِهِنَّ حَمِيٌّ»!![١٣٤]

ولما كان أهل الكوفة يناولون الأطفال الذين كانوا على المحامل بعض التمر والخبز والجوز صاحت بهم أم كلثوم (زينب الكبرى عليها السلام) وقالت: «يا أهْلَ الكوفَةِ إنَّ الصَّدَقَةَ عَلينا حَرامٌ»!! وصارت تأخذ ذلك من أيدي الأطفال وأفواههم وترمي به إلى الأرض[١٣٥].

تلك المرأة العظيمة والسيدة الكبرى بالرغم من شدة جوعها وتقديم حصتها من الطعام إلى اليتامى والأطفال إلا أنها أبت أن تأكل حراما، فكانت قدوة للنساء والأطفال من أهل البيت عليهم السلام.

صفات الأضداد في حياة زينب عليها السلام

من صفات أولياء الله أنهم ليسوا ذوي بُعد واحد أو بُعدين، بل هم القدوة في جميع الأبعاد الإنسانية فعامة الناس ذوو أطباع مختلفة ومتفاوتة فمنهم قسي القلب ومنهم رقيق القلب ومنهم ما بين هذا وذاك، ولكن الأنبياء والأئمة وأولياء الله الصالحين تجتمع فيهم صفات الأضداد، مثلا يتميزون

بالشجاعة ورباطة الجأش وفي نفس الوقت يتميزون برقة القلب والرأفة فيلاطفون اليتيم وتذرف عينهم عند رؤية المظلوم والفقير، وفي الوقت الذي كانوا يتميزون بالصلابة وقوة الرأي أمام الأعداء كانوا يتواضعون للمستضعفين ويشفقون عليهم.

ومن هؤلاء الأولياء زينب الكبرى عليها السلام، حيث اجتمعت فيها صفات الأضداد، كانت تخطب في الأعداء خطبتها الغراء بالبلاغة والفصاحة وقوة قلب وثبات اهتزت لها عروش الظالمين، ولكن في لحظات كان يرق قلبها ولا تملك نفسها فتبكي بكاء شديدا حتى يغشى عليها.

في ليلة عاشوراء، اعتزل أبو عبدالله الحسين عليه السلام في خباء له وكان يقول:

يا دَهْرُ أُفٍّ لكِ من خليلِ
كَمْ لكِ بالإشْراقِ والأصيلِ
من صاحِبٍ أَوْ طَالِبٍ قتيلِ
والدَّهْرُ لا يَقْنَعُ بالبديلِ
وإنَّما الأمْرُ إلى الجَليلِ
وكُلُّ حَيٍّ سَالِكٌ سَبيلِ

لما سمعت زينب عليها السلام ذلك لم تملك نفسها فوثبت تجر ذيلها نادبة أخاها حتى انتهت إليه فأخذت تلطم وجهها وخرت مغشيا عليها، فتلك زينب عليها السلام التي لم تتحمل سماع أخيها ينعى نفسه هي تلك التي كانت في اليوم الحادي عشر من المحرم ترى جثث قتلاها وهي صابرة محتسبة، وتداري الأطفال واليتامى وتسلي إمام زمانها زين العابدين عليه السلام ومن ثم تلقي خطبتها في مجلس ابن زياد ويزيد بن معاوية بكل قوة ورباطة جأش فلم تلن لهم جانبا ولم تعرهم اهتماما وبكمال اليقين والرضا بقضاء الله تقول لابن زياد: «ما رَأَيْتُ إلاَّ جَميلاً»، وتقول: «والحَمْدُ للهِ الذي أكرَمنا بنبيِّه مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وطَهَّرنا من الرِّجْسِ تَطْهيراً»[١٣٦].

تلك السيدة الجليلة التي كان لسانها علويا وقلبها فاطميا ودمها حسينيا، كانت معدنا للحياء والعفة فلم ير أجنبي قامتها سواء في المدينة أو في خلافة أبيها أمير المؤمنين عليه السلام[١٣٧] إلى أن كان يوم عاشوراء، هنالك ولإحقاق الحق وإبطال الباطل صلبت وجلدت أمام الطواغيت وخطبت خطبها البليغة حتى قال في شأنها بشير بن خزيم الأسدي: «ولَمْ أَرَ واللهِ خَفِرَةً قَطُّ أنْطَقَ منها»!![١٣٨]

الروايات التي وردت عن زينب عليها السلام

تعتبر الأساليب والمناهج العلمية الصحيحة واتباعها من الطرق التي تساهم في تطور المجتمع، وتطور المجتمع الإسلامي يعتمد على ثقلين أساسيين هما القرآن الكريم والروايات، فهما يساهمان في رفع مستوى الثقافة الإسلامية ويساهمان في التمييز بين الحق والباطل.

فبعد تعلم القرآن الكريم وفهمه يعتبر علم الأحاديث والعمل بمحتواها من أهم أركان الثقافة الإسلامية وعلى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ حَفِظَ مِنْ أُمَّتي أربَعين حَديثاً مِمَّا يحتاجون إليه من أمْرِ دينهم بَعَثَه اللهُ يومَ القيَامَةِ فَقِيهاً عالِماً»[١٣٩].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «الراوِيَةُ لحَديثِنا يَشُدُّ به قُلوبَ شيعَتِنا أفضَلَ من ألفِ عابِدِ»[١٤٠].

ومن جملة النشاطات التي كانت تؤديها زينب الكبرى عليها السلام هي تثقيف المجتمع الإسلامي عن طريق تفسير القرآن الكريم ورواية الأحاديث الشريفة التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، وبيان أحداث كربلاء وما جرى على أهل بيت النبوة من خلال الخطب والأحاديث وتبيين الحقائق لإتمام الحجة على الناس وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، فكانت ثورتها العلمية انعطافا خطيرا وتحولا عميقا في الفكر الإسلامي بل كانت الأساس في سائر الثورات التي تلتها، والنبراس في هداية الضالين عن صراط الحق.

وهنا نبين أشهر الروايات التي رويت عن سيدتنا الكبرى زينب عليها السلام:

١ - زينب عليها السلام تروي خطبة أمها الزهراء عليها السلام

على الرغم من صغر سن زينب عليها السلام والتي لم تتجاوز السادسة من عمرها إلا أنها حفظت الخطبة الغراء التي خطبتها أمها الزهراء عليها السلام في المسجد النبوي الشريف بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله والتي كانت تحمل في طياتها كثيرا من الأمور الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والعرفانية، فنقل الكثير من

رواة الحديث هذه الخطبة عن السيدة زينبعليها السلام.

٢ - حديث زينبعليها السلام في عبادة أمها الزهراءعليها السلام

عن فاطمة الصغرى بنت الحسينعليه السلام عن زينب بنت عليعليه السلام قالت: رأيت أمي فاطمةعليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: أماه، لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟! قالت: «الجارُ ثمَّ الدار»(١٥١).

٣ - رواية أن فاطمة الزهراءعليها السلام حورية أنسية

عن زينب الكبرىعليها السلام عن علي بن أبي طالبعليه السلام قال قال رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم:
«إنَّ فاطِمَة خُلِقَتْ حُوريَّةً في صُورَةِ إنْسِيَّة»(١٥٢).

٤ - حديث زينبعليها السلام في شأن محبي آل محمدصلى الله عليه وآله وسلم

روي عن السيدة زينبعليها السلام أنها قالت قالت أمي فاطمة الزهراءعليها السلام قال رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم:
«ألا مَنْ ماتَ على حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ماتَ شهيداً»(١٥٣).

٥ - رواية زينبعليها السلام أن المهدي (عج) هو التاسع من ولد الحسينعليه السلام

عن علي بن الحسينعليه السلام عن عمته زينب بنت عليعليه السلام عن فاطمةعليها السلام قالت: دخل إلي رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم عند ولادة ابني الحسين فناولته إياه في خرقة صفراء فرمى بها وأخذ خرقة بيضاء فلفه فيها ثم قال: «خُذيهِ يا فَاطِمَة، فإنَّه الإمامُ وأبُو الأئمَّةِ، تِسْعَةٌ من صُلْبِهِ أبْرارٌ والتَّاسعُ قائِمُهُمْ»(١٥٤).

٦ - رواية زينبعليها السلام عن كيفية دفن والدهاعليه السلام

عن أم كلثوم زينب بنت عليعليه السلام أنها قالت: كان آخر عهد أبي إلى أخويعليهما السلام أن قال: يا بني، إن أنا مت فغسلاني ثم نشفاني بالبردة التي نشف بها رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وفاطمةعليها السلام ثم حنطاني وسجياني على سريري ثم انظرا حتى إذا ارتفع لكما مقدم السرير فاحملا مؤخره.

قالت: فخرجت أشيع جنازة أبي حتى إذا كنا بظهر الكوفة وقدمنا بظهر الغرى ركن المقدم فوضعنا

المؤخر، ثم برز الحسنعليه السلام مرتديا بالبردة التي نشف بها رسول اللهصلى الله عليه وآله وفاطمة وأمير المؤمنينعليهما السلام، ثم أخذ المعول فضرب ضربة فانشق القبر عن ضريح فإذا هو بساجة مكتوب عليها سطران بالسريانية «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هذا قَبْرٌ حَفَرَه نُوحُ النَّبِيُّ لِعَلِيٍّ وَصِيِّ مُحَمَّدٍ قبلَ الطوفانِ بِسَبْعِمائةِ عامٍ».

ثم قالت: فانشق القبر فلا أدري أغاب سيدي فى الأرض أم أسري به إلى السماء إذ سمعت ناطقا بالتعزية وهو يقول: «أَحْسَنَ اللهُ لَكُمْ العَزاء في سَيِّدِكُمْ وحُجَّةِ اللهِ على خَلْقِه»(١٥٥).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن سيدنا آدمعليه السلام أيضا دفن في ذلك الموضع الَذي دفن فيه أمير المؤمنين عليعليه السلام. وعلى هذا إذا زار زائر قبر مولانا الإمام أمير المؤمنينعليه السلام فمن المستحب أن يزور سيدنا آدمعليه السلام ونوحعليه السلام.

٧ - ذكر فضائل الإمام عليعليه السلام على لسان زينبعليها السلام

عن ليلى الغفارية قالت: كنت امرأة أخرج مع رسول اللهصلى الله عليه وآله أداوي الجرحى، فلما كان يوم الجمل أقبلت مع عليعليه السلام فلما فرغ دخلت على زينبعليها السلام عشية فقلت: حدثيني، هل سمعت من رسول اللهصلى الله عليه وآله في هذا الرجل شيئا؟!(١٥٧)

قالت: نعم دخلت على رسول اللهصلى الله عليه وآله وهو وعائشة على فراش وعليهما قطيفة فأتى علي فأقعى كجلسة الأعرابي فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «إنَّ هذا أوَّلُ الناسِ إيماناً وأوَّلُ الناسِ لِقَاءً لي يَوْمَ القِيامَةِ وآخِرُ الناسِ لي عَهْداً عندَ المَوْتِ»(١٥٨).

هجرات زينب عليها السلام

تعتبر الهجرة من السمات التي تميزت بها السيدة زينب الكبرى عليها السلام على مدى عمرها الشريف، وكان جل همها في تلك الهجرات مرافقة موكب الإمامة والانضمام إلى قافلة الولاية تبتغي وراء ذلك وجه الله عز وجل ومرضاته. وكانت هجراتها عليها السلام كالتالي:

١ - الهجرة من المدينة إلى الكوفة

وكانت بصحبة أبيها أمير المؤمنين وقائد الغر المحجلين عليه السلام وإخوتها الغر الميامين والنجباء المكرمين من آل طه وياسين عليهم صلوات الله أبد الآبدين.

٢ - الهجرة من الكوفة إلى المدينة

وكانت بعد صلح الإمام الحسن المجتبى عليه السلام مع معاوية بن أبي سفيان.

٣ - الهجرة من المدينة إلى كربلاء

وكانت هذه الهجرة العظيمة مع أخيها الإمام الحسين عليه السلام حيث تركت المدينة ونعيمها وقصدت كربلاء ولهيبها مع إمام معصوم فأرادت بذلك الفناء في ذات الله الأقدس والقرب من جواره المقدس يدا بيد أخيها، فسارت معه حيث سار ودارت معه حيث دار.

٤ - الهجرة من كربلاء إلى الكوفة والشام

أجبرتها قسوة الزمان على وداع أعزة أهلها وجارها الدهر فسحب يدها من يد أخيها، وكلٌّ يصاب بفقيده ولكن أثر المصاب على قدر شأن الفقيد، ومن كان أعلى شأنا وأرفع مقاما وأجل منزلة من أخيها ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخامس أصحاب الكساء وثالث أئمة الهدى وأبي التسعة المعصومين من ذرية خير الورى!! فبعد أن رافقت إخوتها وأهلها معززة مكرمة تركتهم مكسورة القلب دامعة العين

محدودبة الظهر، فألبسها الله تاج الكرامة ولباس العزة وجزاها في صبرها على مصابها خير الجزاء.

٥ - الهجرة من الشام إلى كربلاء ثم عودتها إلى المدينة

رجعت مع حريم الرسالة وحرائر النبوة إلى كربلاء لتجديد العهد بزيارة الحسين عليه السلام، فأقيمت المآتم عند قبور الشهداء لمدة ثلاثة أيام، ومن ثم رجعت مع القافلة إلى المدينة.

٦ - الهجرة من المدينة إلى الشام

وكانت هجرتها الأخيرة مع زوجها عبدالله بن جعفر أيام عبدالملك بن مروان سنة المجاعة وأقامت فيها حتى توفيت عليها السلام.

والهجرة من المواضيع الأساسية التي أولاها الإسلام والقرآن اهتماما بالغا، فورد ذكرها في القرآن الكريم ٣١ مرة، والهجرة على قسمين:

هجرة ظاهرية: وهي الانتقال ظاهرا من مكان إلى آخر كهجرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

هجرة باطنية: وهي هجرة ذات الإنسان وروحه من الظلمات إلى النور.

الهجرة تعني: الابتعاد عن التوقف والرجوع القهقري، والحركة إلى الرقي والتعالي.

الهجرة تعني: كسر دائرة ضيق البيئة المحدودة والتوجه إلى عالم وسيع.

الهجرة تعني: العزم على بقاء حياة مهددة بالفناء.

الهجرة تعني: السفر من مكان إلى مكان لإقامة الحق والعدل.

الهجرة تعني: تبديل ثورة محلية وقبلية إلى ثورة عالمية.

الهجرة تعني: طي الطريق الصعب والطويل للخلاص من المذلة والمهانة.

الهجرة تعني: محاربة الأعداء في الجبهات الخارجية.

ولأهمية الهجرة في التاريخ الإسلامي نرى أن في عصر خلافة الخليفة الثاني وبعد محادثات في تحديد مبدأ التاريخ الإسلامي اقترح أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يكون هذا التاريخ هو تاريخ هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة، وكان كذلك(١٥٩).

ونقرأ في الآية (٢١٨) من سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّه أولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّه وَاللَّه غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

كانت السيدة زينب الكبرى عليها السلام تعيش في المدينة المنورة مع زوجها عبدالله بن جعفر، وما أن قتل

عثمان بن عفان وبايع الناس أمير المؤمنين عليا عليه السلام حتى كشف المنافقون عن نواياهم وأبدى أعداء حكومة علي عليه السلام العادلة عداوتهم، فأججوا نار الفتنة وأشعلوها حروبا داخلية .

وقضت السيدة زينب عليها السلام أيامها في ظل خلافة أبيها المباركة في الكوفة بتدريس القرآن وتفسيره وبيان أحكام الدين للنساء ومواساة الفقراء والقيام بحوائج المحتاجين إلى أن أصيبت بعظيم الرزية وجليل المصيبة باستشهاد والدها إمام المتقين أمير المؤمنين عليه السلام فآثرت الصبر على الفجيعة وتجرعت غصص الحزن رجاء عظيم الثواب وجزيل العطاء من الملك المنان.

زينب عليها السلام آخر من استضاف أمير المؤمنين عليه السلام يوم استشهاده

كان أمير المؤمنين عليه السلام في شهر رمضان وفي السنة التي استشهد فيها يفطر يوما عند الحسن عليه السلام ويوما عن الحسين عليه السلام ويوما عند عبدالله بن جعفر زوج زينب ابنته لأجلها، لا يزيد على ثلاث لقم فقيل له في ذلك فقال: «يأتيني أمْرُ الله وأنا خَمِيصٌ[١٦٢]، إنَّما هي لَيْلَةٌ أو لَيْلَتان»، فأصيب في تلك الليلة[١٦٣].

قالت أم كلثوم بنت أمير المؤمنين صلوات الله عليه (وأم كلثوم هي كنية السيدة زينب عليها السلام) لما كانت ليلة تسع عشرة من رمضان قدمت إليه عند إفطاره طبقا فيه قرصان من خبز الشعير وقصعة فيها لبن وملح جريش، فلما فرغ من صلاته أقبل على فطوره فلما نظر إليه وتأمله حرك رأسه وبكى بكاء شديدا عاليا وقال: يا بنية ما ظننت أن بنتا تسوء أباها كما أسأت أنت إلي!! قالت: وماذا يا أباه؟! قال: يا بنية أتقدمين إلى أبيك إدامين في فرد طبق واحد أتريدين أن يطول وقوفي غدا بين يدي الله عز وجل يوم القيامة، أنا أريد أن أتبع أخي وابن عمي رسول الله صلى الله عليه وآله ما قدم إليه إدامين في طبق واحد إلى أن قبضه الله، ....، يا بنية، والله لا آكل شيئا حتى ترفعي أحد الإدامين، فلما رفعته تقدم إلى الطعام فأكل قرصا واحدا بالملح الجريش ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قام إلى صلاته فصلى ولم يزل راكعا وساجدا ومبتهلا ومتضرعا إلى الله سبحانه ويكثر الدخول والخروج وهو ينظر إلى السماء وهو قلق يتململ ثم قرأ سورة يس حتى ختمها ثم رقد هنيئة وانتبه مرعوبا وجعل يمسح وجهه بثوبه ونهض قائما على قدميه وهو يقول: اللهم بارك لنا في لقائك، ....، إلى أن قالت أم كلثوم كأني به وقد جمع أولاده وأهله وقال: في هذا الشهر تفقدوني، إني رأيت في هذه الليلة رؤيا هالتني وأريد أن أقصها عليكم[١٦٤]، قالوا: وما هي؟! قال: رأيت الساعة رسول الله صلى الله عليه وآله في منامي وهو يقول لي يا أبا الحسن إنك قادم إلينا عن قريب، يجيء إليك أشقاها فيخضب شيبتك من دم رأسك وأنا والله مشتاق إليك، فهلم إلينا فما عندنا خير لك وأبقى!! فلما سمعوا كلامه ضجوا بالبكاء والنحيب وأبدوا العويل فأقسم عليهم

بالسكوت فسكتوا[١٦٥].

على هذا نرى أن السيدة زينب عليها السلام كانت آخر من استضاف أبيها أمير المؤمنين عليه السلام وبعدما سمعت منه ذلك الحديث أخذت تراقبه في حركاته وسكناته وتضرعة وبكائه، فلم تغمض لها عين ولم يهدأ لها بال، وبعدما فجعت بضربة ابن ملجم لأبيها المظلوم لم تكف عن البكاء وكانت على الدوام إلى جانب والدها ترعاه وهي ترى أثر الضربة على رأسه الشريف واصفرار وجهه المبارك وهو يجود بنفسه، وكما ذكرنا سابقا أنها لما رأت أثر الموت على أبيها عليه السلام ذكرت له حديث أم أيمن عن رسول الله صلى الله عليه وآله حينما أنبأها بشهادة أمير المؤمنين عليه السلام فصدّق أمير المؤمنين عليه السلام ذلك الحديث وأمر عياله بالصبر على البلاء[١٦٧].

زينب عليها السلام في عصر خلافة الإمام الحسن عليه السلام

بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام تولى الإمام الحسن عليه السلام زمام حكم الأمة الإسلامية وسار على نهج أبيه عليه السلام في حفظ الإسلام والمسلمين من شر معاوية والخوارج والمنافقين.

دامت خلافته عليه السلام في الكوفة ستة أشهر وأربعة أيام (من ٢١ رمضان عام ٤٠ من الهجرة إلى ٢٥ ربيع الأول عام ٤١ من الهجرة وهو يوم عقد الصلح مع معاوية) ذاق فيها مرارة الأحداث والمصائب التي انهالت عليه من أعدائه وخيانة أصحابه.

كانت السيدة زينب عليها السلام في الكوفة إلى جانب أخيها الحسن عليه السلام تشاركه الآلام والمصائب التي حلت بأهل البيت عليهم السلام والتي بدأت مع ارتحال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

وبعد مدة من الزمان آثر الإمام الحسن عليه السلام الرجوع إلى المدينة المنورة، فرافقته العقيلة زينب عليها السلام ومكثت إلى جانبه بقية حياته الشريفة (ما يقارب تسع سنين وأربعة أشهر، فكانت مدة إمامته عشر سنوات).

وعلى هذا تكون زينب عليها السلام قد أقامت في الكوفة لفترة من الزمان تقارب الخمس سنوات (هاجرت إلى الكوفة مع والدها عليه السلام عام ٣٦ من الهجرة وخرجت منها مع أخيها الحسن عليه السلام عام ٤١ من الهجرة)، دخلت زينب عليها السلام الكوفة مع أبيها أمير المؤمنين علي عليه السلام معززة مجللة يحيط بها إخوتها النجباء وأهل بيتها الكرماء، لكنها ودعت الكوفة بعدما أعرض الناس عن دين الله ونكثوا بيعة ولي الله فامتحنه الله بجهاد المنافقين من الناكثين والقاسطين والمارقين ومضطهدا بفتن الضالين حتى قضى نحبه شهيدا ولقى ربه مظلوما، فودعت قبر أبيها المظلوم عليه السلام بقلب يملأه الحزن والأسى، ودخلت المدينة فكانت تتسلى بقبر جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وأمها الزهراء عليها السلام وتشكو بثها وحزنها إلى بارئها تبتغي بذلك وجه الله تعالى والدار الآخرة.

مصيبة زينب عليها السلام باستشهاد أخيها الحسن عليه السلام

.

قال عمر بن إسحق: كنت مع الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام في الدار، فدخل الإمام الحسن عليه السلام المخرج، فلما خرج قال : «لقد سُقِيتُ السُّمَّ مِراراً، ما سُقِيتُهُ مِثْلَ هذه المَرَّةِ، لقد لَفَظْتُ قِطْعَةً من كَبِدي، وجَعَلْتُ أقَلِّبُها بعُودٍ في يَدي»(١٦٨).

كان الإمام الحسن عليه السلام يتململ تململ السليم من أثر السم، ولم يكن يستقر من الوجع، فكانت السيدة زينب عليها السلام تمرضه وتخفف عنه آلامه، ولما دنا أجله استدعى الإمام الحسين عليه السلام فأوصى إليه وسلم إليه الاسم الأعظم ومواريث الأنبياء التي كان أمير المؤمنين عليه السلام سلمها إليه.

ولما انتقل الإمام الحسن عليه السلام إلى جوار ربه، تجددت أحزان زينب عليها السلام، فبكت أخاها المظلوم بكاء طويلا وحزنت عليه حزنا شديدا .

شهدت زينب الكبرى عليها السلام مصيبة أخيها الحسن عليه السلام وبكت على مظلوميته وتجرعه غصص الغيظ بحلمه فآثرت الصبر على عظيم الرزية والشكر على عظيم البلية.

دارت هذه المصائب على زينب الكبرى عليها السلام فحملت مسئولية هذه الرسالة وهي في الخامسة والأربعين من العمر، ولكن كل ما مضى عليها من المصائب الجليلة والرزايا العظيمة إنما كانت مقدمة للمصيبة الكبرى والداهية العظمى ألا وهي مصيبة أخيها الحسين عليه السلام في كربلاء.

الفصل الثاني

زينب عليها السلام
وأحداث كربلاء

معارضة الحسين عليه السلام الشديدة لبيعة يزيد

بعد استشهاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عام خمسين من الهجرة تولى الإمام الحسين عليه السلام زمام الحكم، وعلى الرغم من أن زينب عليها السلام كانت في بيت زوجها عبدالله بن جعفر إلا أنها لم تفارق أخاها أبا عبدالله الحسين عليه السلام، وكانت له طائعة لا لكونه أخيها بل لكونه إمام زمانها وقائدها.

ولما مات معاوية في النصف من رجب عام ستين من الهجرة تولى الأمر بعده ابنه يزيد فكتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان واليا على المدينة من قِبَل معاوية بأخذ البيعة على أهلها وخاصة على الحسين عليه السلام .

فأحضر الوليد مروان بن الحكم واستشاره في أمر الحسين عليه السلام فقال: إنه لا يقبل k ثم بعث الوليد بن عتبة إلى الحسين عليه السلام فجاءه في ثلاثين من أهل بيته ومواليه فصار الحسين عليه السلام إلى الوليد فوجد عنده مروان بن الحكم، فنعى إليه الوليد معاوية فاسترجع الحسين عليه السلام ثم قرأ عليه كتاب يزيد وما أمره فيه من أخذ البيعة منه له، فقال الحسين عليه السلام: إني لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سرا حتى أبايعه جهرا فيعرف ذلك الناس.

فقال له الوليد: أجل، فقال الحسين عليه السلام: فتصبح وترى رأيك في ذلك.

فقال له الوليد: انصرف على اسم الله تعالى حتى تأتينا مع جماعة الناس.

ثم أقبل على الوليد فقال: «أيُّها الأمير، إنَّا أهلُ بيْتِ النبوَّةِ، ومعدِنُ الرسالةِ، ومختلَفُ الملائكةِ، وبنا فتحَ اللهُ وبنا ختَمَ اللهُ، ولكنْ نصبحُ وتصبحون وننظُرُ وتنظُرون أيُّنا أحَقُّ بالخِلافَةِ والبيعَةِ»(١٧٠).

يقول المفيد رضي الله عنه في إرشاده: فقام الحسين عليه السلام في منزله تلك الليلة وهي ليلة السبت لثلاث بقين من رجب سنة ستين من الهجرة فلما كان آخر نهار السبت بعث الرجال إلى الحسين عليه السلام ليحضر فيبايع

الوليد ليزيد بن معاوية فقال لهم الحسينعليه السلام: أصبِحوا، ثم ترون ونرى!!

فكفوا تلك الليلة عنه ولم يلحوا عليه، فخرجعليه السلام ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب متوجها نحو مكة ومعه بنوه وبنو أخيه وإخوته وجل أهل بيته إلا محمد بن الحنفية وعبدالله بن جعفر وعمر الأطرف[١٧١] وعبدالله بن عباس، فسار الحسينعليه السلام إلى مكة وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين﴾[١٧٢]، فوصل مكة ليلة الجمعة الثالث من شعبان من تلك السنة[١٧٣].

وعلى هذا يمكن القول أن هجرة الحسينعليه السلام من المدينة إلى مكة كانت على عكس هجرة جده الأكرم رسول اللهصلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة، فالرسولصلى الله عليه وآله حينما أحس بالخطر من كفار مكة هاجر مع أصحابه إلى المدينة، فآوى الأنصار رسول اللهصلى الله عليه وآله والمهاجرين وقسموا أموالهم وديارهم بينهم، ولكن أسفي على سبط الرسول وقرة عين البتول الحسينعليه السلام الذي خرج من المدينة مع أهل بيته «خائفا يترقب»!!

بقي الإمام الحسينعليه السلام في مكة أربعة شهور وخمسه أيام، ثم توجه إلى العراق في اليوم الثامن من ذي الحجة قاصدا الكوفة حاملا معه رسائل أهلها التي بعثوها إليه يستعجلونه المجيء إليهم.

زينبعليها السلام في قافلة الإمام الحسينعليه السلام

كما ذكرنا سابقا أن العلاقة التي كانت تربط زينبعليها السلام بأخيها الحسينعليه السلام كانت علاقة قوية وشديدة بحيث أنها كانت تلازمه على الدوام، وكان عقد زواجها بعبدالله بن جعفر مشروطا بشرط وهو أن لا يمانعها من السفر مع أبي عبدالله الحسينعليه السلام متى شاءت، فوافق عبدالله بن جعفر على ذلك الشرط وتم الزواج.

كانت السيدة زينبعليها السلام تعرف حق المعرفة أن ثورة الإمام الحسينعليه السلام تستلزم أعوانا وأنصارا صغارا وكبارا نساء ورجالا لإظهار الحق ورفع الباطل، وعلى هذا كانت ترُدُّ كل الأعذار والنصائح التي كانت تهدف إلى صرف الحسينعليه السلام عن خروجه إلى العراق، فأقدمت على الهجرة مع أخيهاعليه السلام راضية بقضاء الله عز وجل.

لما علم محمد الحنفية بعزم الحسينعليه السلام على الخروج من مكة إلى الكوفة جاءه في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها فقال له: يا أخي إن أهل الكوفة قد عرفتَ غدرهم بأبيك وأخيك وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنك أعزُّ من بالحرم وأمنَعُه.

فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد، فقال: أنظر فيما قلت.

فلما كان السحر ارتحل الحسين عليه السلام، فبلغ ذلك ابن الحنفية فأتاه وأخذ بزمام ناقته وقد ركبها، فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟! قال: بلى.

قال: فما حداك على الخروج عاجلا؟!

قال: أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما فارقتك (في عالم الرؤيا أو المكاشفة!!) فقال:

«يا حُسَين اخرُجْ، فإنَّ اللهَ قد شَاءَ أنْ يَـراكَ قَـتيـلاً»!!

فقال محمد بن الحنفية: «إنَّـا لله وإنَّـا إليه راجعُون، فما مَعْـنى حَمْلُكَ هؤلاءِ النساءِ معك وأنت تخْرُجُ على مثلِ هذا الحال»؟!

فقال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ اللهَ قد شاءَ أنْ يراهُنَّ سَـبـايـا»!![١٧٤]

على هذا نسـتنتج من كلام أبي عبدالله الحسـين عليه السلام أن حمل النسـاء لم يكن عملا ارتجاليا بل كان بأمر من رسـول الله صلى الله عليه وآله، والإرادة الإلهية شـاءت أن تشـارك النسـاء الرجال في هذه النهضـة العظيمة حتى لو كان في ذلك ذل الأسر والسبي والشتم، فالذل في الله عز، والأسر والسـبي كرامة، وكل ما جرى عليهن من المصائب والنوائب لم يثنيهن عن إلقاء الخطب البليغة والتي أظهرت المسـتور من ظلم أهل الجور والعدوان وفضحت نوايا طواغيت ذلك الزمان، وبالتالي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور وبذرت روح الثورة والجهاد في النفوس.

طبقا لبعض الروايات، كان عبدالله بن عباس معارضا لخروج الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة، وقال للإمام عليه السلام: «لا تخرُجْ إلى العِراقِ، وكُنْ بالـيَـمَـنِ لحصانتِها ورِجالِـهـا»[١٧٥].

ابـن عبـاس كان يرى ظاهر الأمر ولم يكن يعلم أن رفعة الإسـلام قد تتطلب إهـراق الدماء وبذل النفس والنفيس، وبالثورة الدموية وطلب الشهادة يمكن خوض الحرب مع العدو ولكن لا عتب على من يجهل فن الشهادة أن يتفوه بمثل هذا الحديث.

وقد يكون إسناد هذه الرواية إلى عبدالله بن عباس والذي كان من المفسرين العظام للقرآن الكريم غير صحيح، وإن كان صحيحا فالمثل يقول: «لابد للجواد من كبوة»!!

وكما ذكرنا سـابقا أن هناك روايات ذكرت بأن عبدالله بن عباس جاء إلى الإمام الحسين عليه السلام ولما دنا منه قال له: «جُعِلْتُ فِداكَ يا حُسَـين، إنْ كان لابـُدَّ من المسـيرِ إلى الكوفة فلا تَـسِـرْ بأهلِك ونسـائِك وصِـبْـيَـتِـك، فإنِّي والله لَخائِفٌ أن تُقتَـلَ وهم ينظُرون إليك».

فقـال الحسـين عليه السلام: «يا ابْـنَ العَـمّ، إنِّي رأيتُ رَسـولَ اللهِ صلى الله عليه وآله في منامي وقد أمَرَني بأمـرٍ لا أقْـدِرُ على خِلافِه، وإنَّـه أمَرَني بأخْـذِهِنَّ معي، يا ابْنَ العَمّ وإنَّـهُـنَّ ودَائعُ رسـولِ الله ولا آمَنُ عليهنَّ أحداً وهُنَّ لا يفارقنني».

فسمع ابن العباس بكاء من ورائه وقائلة تقول: «يا ابْنَ العبَّاس، تشيرُ على شيخنا وسيِّدِنا أنْ يُخَلِّفَنا ههُنا ويمْضي وحْدَهُ!! لا والله، بَلْ نحيا معه ونموتُ معه، وهل أبْقَى الزمانُ لنا غيرَه؟!».

فبكى ابن العباس بكاء شديدا(١٧٦).

نعم، أكملت زينب عليها السلام مسيرتها مع أخيها الحسين عليه السلام برباطة جأش وكمال معرفة، ولم تعتن بالأعذار التي أتى بها كل من أراد أن يزيحها عن هذا السبيل.

عدم مبالاة زينب عليها السلام برأي زوجها المشفق

كما بينا سابقا في شخصية عبدالله بن جعفر - زوج زينب عليها السلام - أنه كان جوادا كريما ذا شخصية فذة في بني هاشم، وليس هناك أي مورد لعتابه ولومه، ولكن حسب ما ورد في بعض الروايات أنه - جهلا أو خطأ - كان يعارض خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق وقد بيَّن رأيه للإمام الحسين عليه السلام تعاطفا معه وإشفاقا عليه وعلى أهل بيته.

العالم الكبير الشيخ المفيد (المتوفى عام ٤١٣ هـ) يقول في إرشاده:

لما بلغ أهل المدينة أن الحسين عليه السلام عازم على الخروج من مكة، ألحقه عبدالله بن جعفر بولديه عون ومحمد، وكتب معهما كتابا يقسم عليه فيه بالرجوع إلى مكة، جاء فيه: «... أما بعد، فإني أنشدُك اللهَ أنْ تخرُجَ من مكَّة، وأسألك الله لَمَا انْصرفْت عن هذا الوجه حين تنظرَ كتابي هذا، فإني خائفٌ عليك من هذا الأمرِ الذي أزمَعْت عليه أن يكون فيه هلاكُك واستئصالُ أهلِ بيتِك، فإنك إنْ هلكْت خِفْتُ أن يُطفَأَ نورُ الله، فأنت عَلَمُ المهتدين ورجاءُ المؤمنين، فلا تعجلْ بالمسيرِ إلى العراق، فإني آخذُ لك الأمانَ من يزيدٍ ومن جميعِ بني أمية لنفسِك ولمالِك ولأولادِك وأهلِك، وإني على أثرِ الكتابِ والسَّلام».

فأجابه الحسين عليه السلام بكتاب جاء فيه:

«... أما بعد،...، اعْلَمْ أني رأيتُ جدِّي رسولَ الله صلى الله عليه وآله في منامي فأخبرني بأمرٍ أنا ماضٍ له، كان لي الأمرُ أو عَلَيَّ، فوالله يا ابْنَ عَم، لو كنتُ في ثقبِ هامَّة من هَوامِّ الأرضِ لاسْتخرجوني منها حتى يقتُلوني...». وصار عبدالله بن جعفر إلى أمير مكة عمرو بن سعيد الأشدق فسأله أن يكتب أمانا للحسين عليه السلام، فكتب عمرو الكتاب وسرحه مع أخيه يحيى وعبدالله بن جعفر.

فلحقه عبدالله ويحيى مسرعين وسلماه الكتاب وجهدا به الرجوع، فأبى الحسين عليه السلام عليهما وقال: «إنِّي رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وأمرني بأمرٍ أنا ماضٍ له»، فسأله عبدالله عن الرؤيا فقال عليه السلام: «ما حدَّثْتُ بها أَحداً وما أنا مُحَدِّثٌ بها حتَّى ألقى ربِّي»، فلما أيس عبدالله منه أمر ابنيه عونا ومحمدا بالمسير معه

والجهاد دونه ورجع هو ويحيى إلى مكة[١٧٧].

النتيجة

على الرغم أن عبدالله بن جعفر - زوج زينب عليها السلام - لم يكن موافقا على خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق وحاول كثيرا لصرفه عن هذا القرار إلا أن السيدة زينب عليها السلام رجحت البقاء مع أخيها أبي عبدالله الحسين عليه السلام، بل فرحت كثيرا حينما انضم ولداها إلى قافلة الإمام عليه السلام.

وعلى هذا نستنبط من تلك الأحداث والمحاورات أن السيدة زينب عليها السلام على الرغم من سماعها تلك الأعذار التي كانت ظاهرا معقولة وطبيعية لبقائها في الحجاز، إلا أنها لم تقبل بأي منها ولم تجعلها ذريعة للبقاء، بل رضيت بالمشيئة الإلهية التي قُضيت لها فأكملت مسيرتها مع أخيها أبي عبدالله الحسين عليه السلام سالكة مسالك الموقنين متمسكة بحبل الله المتين.

قال صاحب ذخائر العقبى ص ١٤٦ طبعة ١٣٥٦ هـ ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ ابني هذا (يعني الحسين) يُقْتَل بأرضٍ من العراق فمَنْ أدركَه فلْينصرْه»، وبهذا يتبين لنا أن الذين نهوا الإمام الحسين عن الخروج من الأصحاب والتابعين وأعلموه بأنه مقتول قد اعتمدوا على أحاديث النبي وتجاهلوا قوله: «فمَنْ أدركَه فلْينصره» إيثارا للعاجلة على الآجلة[١٧٨].

مكانة السيدة زينب عليها السلام الخاصة عند أبي عبدالله الحسين عليه السلام

قال المرحوم الدربندي في الأسرار حدثني بعض الثقاة من تلامذتي من العرب قال ظفرت بهذه الرواية في مجموعة كانت تنسب إلى الفاضل الأديب المقري فنقلتها عنه وهي:

روى عبدالله بن سنان الكوفي عن أبيه عن جده أنه قال: خرجت بكتاب من أهل الكوفة إلى الحسين عليه السلام وهو يومئذ بالمدينة، فأتيته وقرأه فعرف معناه، فقال: «انظرني إلى ثلاثة أيام»، فبقيت في المدينة ثم تبعته إلى أن صار عزمه بالتوجه إلى العراق، قلت في نفسي أمضي وأنظر إلى ملك الحجاز كيف يركب وكيف جلالته وشأنه!! فأتيت إلى باب داره فرأيت الخيل مسرَّجة والرجال واقفين والحسين عليه السلام جالس على كرسي وبنو هاشم حافون به وهو بينهم كأنه البدر ليلة تمامه وكماله ورأيت نحواً من أربعين محملا وقد زينت المحامل بملابس الحرير والديباج، قال: فعند ذلك أمر الحسين عليه السلام بني هاشم أن يركبوا محارمهن على المحامل، فبينما أنا أنظر وإذا بشاب قد خرج من دار الحسين عليه السلام وهو طويل القامة وعلى خده علامة ووجهه كالقمر الطالع وهو يقول: «تنحوا يا بني هاشم»!! وإذا بامرأتين قد خرجتا من الدار وهما تجران أذيالهما على الأرض حياء من الناس وقد حفت بهما إماؤهما، فتقدم ذلك الشاب

إلى محمل من المحامل وجثى على ركبتيه وأخذ بعضديها وأركبها المحمل، فسألت بعض الناس عنهما فقيل أما إحداهما فزينب والأخرى أم كلثوم بنتا أمير المؤمنين، وقلت: ومن هذا الشاب؟! فقيل لي: هو قمر بني هاشم العباس بن أمير المؤمنين!![١٧٩].

نعم، هكذا سافرت زينب عليها السلام في الموكب الحسيني الرهيب، يحفها الوقار والحشمة والجلال والعظمة ويحيط بها إخوتها السادة الأبطال والليوث الشجعان كأنهم أقمار منيرة وأنجم زاهرة.

السيدة زينب عليها السلام في منزل «الخُزَيمِيَّة»

خرج الإمام الحسين عليه السلام من مكة في الثامن من ذي الحجة قاصدا العراق، ووصل كربلاء في الثاني من محرم الحرام، على هذا طوى الإمام الحسين عليه السلام وأهله هذا الطريق في أربعة وعشرين يوما مروا خلاله على ستة عشر منزلا حتى وصلوا إلى قرى الطف.

ولما نزل «الخزيمية» - سادس منزل من المنازل التي مر عليها الإمام الحسين عليه السلام - أقام فيها يوما وليلة، فلما أصبح أقبلت إليه أخته العقيلة زينب عليها السلام وقالت: خرجت في بعض الليل لقضاء حاجة، فسمعت هاتفا يهتف وهو يقول:

أَلا يــا عَــيْــنُ فــاحْــتَــفِــلــي بِــجُــهْــدٍ
فَــمَــنْ يَــبْــكــي عــلــى الــشُّــهَــداءِ بَــعْــدي
عــلــى قَــــوْمٍ تــسُــوقُــهُــمُ الــمَــنــايــا
بِــمِــقْــدارٍ إلــى إنْــجــازِ وَعْــدِ

فقال لها الحسين عليه السلام: «يا أختاه، كلُّ الذي قضَى اللهُ فهو كائنٌ»[١٨٠].

لما سمعت زينب عليها السلام هذا الحديث سكتت، وسكوتها كان نابعا من الإيمان بالقَدَر الإلهي المحتوم والتسليم له والذي تعلمته من مكتب جدها الأكرم رسول الله صلى الله عليه وآله وأبيها أمير المؤمنين عليه السلام وأمها فاطمة الزهراء عليها السلام، كانت تعلم علم اليقين أن ما أراده الله عز وجل فهو كائن لا محالة، وأراد الله عز وجل أن يختار تلك الفئة من خيرة الرجال والنساء للثورة ضد الطغيان والظلم والجهاد بالنفس والنفيس في إعلاء كلمة الحق ونصرة المظلومين من جور الظالمين. فما كان على زينب الكبرى عليها السلام إلا التسليم والرضا بأمر الله تعالى وهما أعلى مراتب الإيمان واليقين.

تمسكت زينب الكبرى عليها السلام بكل كيانها ووجودها بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، فكانت مصداقا كاملا للآية الكريمة المباركة: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى وَإِلَى الله عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[١٨١].

السيدة زينب عليها السلام في منزل «الرُهَيمَة»

يروى أنه حينما نزل الإمام الحسين عليه السلام وأهله «الرهيمة» – المنزل الرابع عشر من المنازل التي نزلها أبو عبدالله الحسين عليه السلام في مسيره إلى العراق – تبين له أن زهاء ألف فارس مع رئيسهم حر بن يزيد الرياحي وكان قد بعثه ابن زياد من الكوفة ليحبس الحسين عن الرجوع إلى المدينة أينما وجده ويُقدم به الكوفة، فتبين للحسين عليه السلام وأهله أن القوم يقصدون القتال وأن أهل الكوفة قد غدروا به ونكثوا عهده.

وحسب ما ورد في بعض الروايات أنه لما علمت زينب الكبرى عليها السلام[١٨٢] بغدر أهل الكوفة وقلة ناصري أخيها الحسين عليه السلام وأن الخطر محدق عليه وعلى عياله وأهل بيته، وهي امرأة ومن شأن النساء الجزع ورقة القلب، تأثرت تأثرا شديدا وصاحت وهي تقول: «وليت الأعادي يرْضون أنْ يقتلونا بدلاً عن أخي»[١٨٣].

السيدة زينب عليها السلام يوم دخولها كربلاء

سار الإمام الحسين عليه السلام بأهله وعياله حتى وصل إلى كربلاء يوم الخميس الثاني من محرم الحرام سنة إحدى وستين للهجرة، فنزل الحسين عليه السلام وضرب أخبيته وضرب بنو هاشم وأصحابه أخبيتهم، ثم أقبلت زينب عليها السلام إلى أخيها الحسين عليه السلام جزعة مذعورة وقالت: يا أخي، إن هذا الوادي لمهول، ولقد دخلني هول عظيم!!

فقال الحسين عليه السلام: «أخيَّة اعْلَمي أنه نزلْنا مع أبي هذه الأرضِ في مسيره إلى صِفِّين فوضعَ أبي رأسَه في حِجْر أخي الحسن عليه السلام ورَقَدَ ساعةً وأنا عند رأسِه، فانْتَبَه أبي قَلِقاً باكياً، فسَألَه أخي عن ذلك فقالَ كأنّي رأيتُ في منامي أنَّ هذا الوادي بَحْرٌ من الدمِ والحُسَيْنُ قد غَرقَ فيه وهو يستغيثُ فلا يُغاثُ، ثم أقبَلَ عَلَيَّ وقال يا أبا عبدالله كيف تكونُ إذا وقَعَتْ ههنا الواقعة؟! قلت أصْبِرُ ولابدَّ لي من الصَّبْرِ»!!

فلما سمعت زينب عليها السلام ذلك بكت بكاء شديدا[١٨٤].

زينب عليها السلام في يوم تاسوعاء

كانت السيدة زينب عليها السلام لا تفارق أخاها الحسين عليه السلام، فكانت تقضي أوقاتها بقربه تشاطره همومه وأحزانه وهو يدير بطرفه يمينا وشمالا وقد أحاط به جموع البغي والضلالة قد استحوذ عليهم الشيطان

فأضلهم السبيل.

زحف ابن سعد على مخيم الحسين عليه السلام عصر اليوم التاسع من محرم وكان لصيحتهم دوي يوحي بالهجوم، وكان الحسين عليه السلام محتبيا بسيفه وقد خفق برأسه، فسمعت أخته العقيلة الصيحة فدنت من أخيها وقالت: يا أخي، أما تسمع هذه الأصوات قد دنت منا؟!

فرفع الحسين عليه السلام رأسه وقال: «إنِّي رأيتُ رسولَ اللهِ الساعةَ في المنام وهو يقولُ: إنَّك صائرٌ إلينا عن قريبٍ».

(وفي رواية العالم الكبير السيد ابن طاووس (المتوفى عام ٦٦٤ هـ) أنه قال عليه السلام: يا أختاه إنِّي رأيت الساعةَ جدِّي مُحَمَّداً وأبي عَلِيًّا وأمِّي فاطِمَةَ وأخي الحسن وهم يقولون: يا حُسَيْنَ إنَّكَ رائحٌ إلينا عن قريبٍ، وفي بعض الروايات «غَداً»[١٨٥]).

فلطمت زينب عليها السلام وجهها ونادت بالويل والثبور: يا ويلتاه!!

فقال لها الحسين عليه السلام: «ليس لكِ الوَيْلُ يا أخيَّة، اسكتي رحمك اللهُ، لا تُشْمِتي بنا القوم»، فسكتت[١٨٦].

على هذا، كان الإمام الحسين عليه السلام وأخته زينب عليها السلام يواسي أحدهما الآخر، وكأنهما تقاسما الهموم والأحزان بينهما.

ووردت رواية أخرى أنه بعدما جاءت زينب عليها السلام إلى أخيها وأخبرته بما يجري حول المخيم جاء العباس بن علي عليه السلام فقال له: يا أخي، أتاك القوم!!

فقال له الحسين عليه السلام: اركب - بنفسي أنت - حتى تلقاهم.

إلى أن قال عليه السلام: إن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا هذه العشية لعلنا نصلي لربنا وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني أحب الصلاة وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار[١٨٧].

فرجع العباس إلى القوم فاستمهلهم العشية، فأمهلوهم وما كادوا يفعلون.

سعي زينب عليها السلام الدؤوب ليلة عاشوراء

ليلة عاشوراء!! وما أدراك ما ليلة عاشوراء!!

ليلة لم يغمض فيها جفن ولم تجف فيها عين، عتمة ظلماء لا يُبصر فيها إلا أنوار لامعة وقلوب خاشعة تحيط بمصباح الهدى وعلم التقى وسبط خير الورى، ليلة فاضت على قلوبهم الخشوع وعلى أبدانهم الخضوع فأحيوها راكعين ساجدين تالين القرآن المبين قد أعدوا أنفسهم للقاء رب العالمين.

في هذه الليلة استضافت زينب عليها السلام أعزة أهلها من إخوتها وأبناء إخوتها وأبنائها وبني عمومتها تتزود منهم وتنظر إليهم.

وكيف يهدأ لها بال وتغمض لها عين وهي تعلم علم اليقين أنها آخر ليلة تحاط بتلك الأقمار النيرة معززة مجللة وبعدها الشتات والضياع والأسر والسبي!!

كانت للسيدة زينب الكبرى عليها السلام في تلك الليلة مواقف تتفطر لها القلوب وتتحير فيها العقول ولعلها تكون درسا لنا في الصبر والاستقامة في الشدائد والمحن وعبرة لنا في الجهاد في سبيل الدين والدفاع عن مقام الولاية الطاهرة:

١ - زينب عليها السلام تمرّض السجاد عليه السلام وتسمع أشعارا لأخيها الحسين عليه السلام في غدر الزمان

يقول الشيخ المفيد رضي الله عنه: روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال:

إني لجالس في تلك العشية التي قتل أبي في صبيحتها، وعندي عمتي زينب تمرِّضني، إذ اعتزل أبي في خباء له وعنده جون مولى أبي ذر – وهو يعالج سيفه ويصلحه – وأبي يقول:

يا دَهْرُ أُفٍّ لكِ من خليلِ

كَمْ لكِ بالإِشْراقِ والأصيلِ

مـــن صـــاحِـــبٍ أَوْ طَـــالِـــبٍ قـتـيـلِ
والـــــدَّهْـــــرُ لا يـــقْـــنَـــعُ بـــالـــبـديـلِ
وإنَّـــــمـــا الأمْـــــــرُ إلـــى الـجَـلـيـلِ
وكُـــــلُّ حَـــــيٍّ سَـــالِـــكٌ سَـبـيـلِ
مـــا أقْـــرَبُ الـــوَعْـــدُ مِـــنَ الـرَّحـيـلِ

فأعادهـا أبي مرتين أو ثلاثا حتى فهمتها، فعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة، فرددت دمعتي ولزمت السكوت وعلمت أن البلاء قد نزل.

وأما عمتي زينب عليها السلام لما سـمعت ما سـمعت - وهي امرأة ومن شـأن النسـاء الرقة والجزع - فلم تملـك نفسـها دون أن وثبت تجر أذيـالـهـا وهي حاسرة حتى انتهـت إليه وهـي تنادي: «وا ثكلاه، ليـت المـوتُ أعْدَمنـي الحيـاةَ، اليـوم ماتت أمِّـي فاطِمَـة وأبي عَـلِيٌّ وأخِي الحَسَـن، يا خليفـةَ الماضين وثـمالَ[188] الباقينَ».

فنظر إليها الحسين عليه السلام نظر رأفة ورحمة وقال: «يا أخيَّـة، لا يَذهبَنَّ بحلمكِ الشيطانُ».

قالت: بأبي أنت وأمي، أستُقـتَـل نفسي فداك؟!

قـــالـــتْ أتـــقْـــتَـــلُ نَـــصْـــبَ عَـــيْـــنـي جَـهْـرَة
مـــا الــــرَّأيُ فـــي ومـــا لَـــــدَيَّ خَـفـيـرُ
فـــأجـــابَـــهـــا قَـــلَّ الـــفِـــدا كَـــثُـــرَ الـــعِـــدَى
قَـــصُـــرَ الـــمَـــدى وسَـبـيـلُـنـا مَـحْـصـورُ

فرد الحسين غصته، وترقرقت عيناه بالدموع.

فقالت: ردنا إلى حرم جدنا رسول الله.

فقال: هيهات، لو تُرِك القـطـا لـيـلا لـغـفَـا ونـام.

فقالت: يا ويلتاه!! أفتغتصب نفسك اغتصابا؟! فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي.

ثم لطمت وجهها، وأهوت إلى جيبها فشقته، وخرت مغشيا عليها.

فقـام إليها الحسـين عليه السلام وصب عـلى وجهها الماء حتى أفاقت، فقال لها: «يا أخيَّـة، اتـَّقي اللهَ وتعزَّيْ بعزاءِ الله، واعْلَمي أنَّ أهلَ الأرضِ يموتون وأنَّ أهلَ السماءِ لا يـبْقـون، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلاَّ وجهُ الله تعـالَى الـذي خلـقَ الخَلْقَ بقُدرتـه ويبعثُ الخلْـقَ فيعودون وهو فَرْدٌ وحْـدَهُ، أبي خيـرٌ مـنِّي وأمِّـي خيَـرٌ مـنِّي وأخي خيـرٌ مـنَّي، ولي ولهم ولكلِّ مُسْلِـمٍ برسولِ الله أسْوةٌ».

فعزاها بهذا ونحوه، ثم قال لها:

«يـا أخْـتــاه، إنِّي أقْسِــمُ عليكِ، فأبِـرِّي قَـسَــمي، إذا أنا قُـتِـلْـتُ فلا تَشُــقِّـي عَـلَيَّ جَـيْـبـاً ولا تَـخمِشي عَلَـيَّ وجهـاً ولا تَـدعـي عَلَيَّ بالـويـلِ والثُّبـورِ إذا أنـا هَلَـكْـتُ».

قال زين العابدين عليه السلام: ثم إن أبي جاء بعمتي وأجلسها عندي، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعـض بيوتهـم من بعض وأن يدخلوا الأطنـاب بعضها في بعض، وأن يكونوا بين البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت من ورائهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم[١٨٩].

٢ - إخبار نافع بن هلال[١٩٠] عن حالات زينب عليها السلام ليلة عاشوراء

قال بعض أرباب المقاتل: ثم إن الحسين عليه السلام خرج ليلة العاشر من المحرم في جوف الليل إلى خارج الخيام يتفقد التلال والعقبات، فتبعه نافع بن هلال الجملي فسأله عما أخرجه في هذه الساعة.

فقــال نـافـع: يــا ابـن رســول الله، أفزعنـي خروجـك إلى جهـة معسـكر هـذا الطاغيـة في هذه الساعة!!

قـال الحسـين عليه السلام: إني خرجـت أتفقـد التـلاع والروابي، مخافـة أن تكـون مكمنا لهجـوم الخيل يوم تحملون ويحملون.

ثم رجع عليه السلام وهو قابض على يد نافع وهو يقول: هي هي والله، وعدٌ لا خلف فيه.

ثم قال لنافع: ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل وتنجو بنفسك؟!

فوقع نافع على قدمي أبي عبدالله يقبلهما ويقول: إذاً ثكلت نافعا أمُّه، سيدي إن سيفي بألف وفرسي مثله، فوالله الذي منَّ بك عليّ، لا فارقتك حتى يكلأ عن فَري وجَري.

ثـم دخـل الحسـين خيمـة النسـاء ووقف نافـع بـإزاء الخيمـة ينتظـره، فسـمع زينـب عليها السلام تقول للحســين عليه السلام – وقد اختنقت بعبرتها -: وا أخاه، وا حسـيناه، أشـاهد مصرعك، وأبتلي برعايتي هذه المذاعير من النساء، والقوم – يا ابن أمي – كما تعلم ما هم عليه من الحقد القديم، ذلك خطب جسيم، يعز عليّ مصرع هذه الفتية وأقمار بني هاشم.

ثـم قالـت: يـا أخي، هل اسـتعلمت من أصحابك نياتهم؟! فإني أخشـى أن يسـلموك عنـد الوثبة واصطكاك الأسنة.

فبكـى الحسـين عليه السلام وقـال لهـا: أمـا والله، لقـد بلوتهـم، فما وجـدت فيهـم إلا الأشـوس الأقعس، يستأنسون بالمنية دوني استيناس الطفل إلى محالب أمه.

قال نافع: فلما سمعت هذا منه بكيت، وأتيت حبيب بن مظاهر، فوجدته جالسا في خيمته والسيف مصلت بين يديه، فحكيت له ما سمعت من الحسين ومن أخته زينب.

فنهض حبيب قائما على قدميه وقال: والله، لولا انتظار أمره لعاجلتهم وعاجتهم بسيفي هذه الليلة ما ثبت قائمه بيدي.

فقلت له: إني خلفته عند أخته زينب، وهي في حال وجل ورعب، وأظن أن النساء قد أفقن وشاركنها في الحسرة، فهل لك أن تجمع أصحابك وتواجههن بكلام يطيب قلوبهن ويذهب رعبهن.

فقام حبيب - ومعه نافع - ونادى بين الخيام: يا أصحاب الحمية، ويا ليوث الكريهة!!

فتطالعوا من مضاربهم كالأسود الضارية يقدمهم أبو الفضل العباس بن علي‌عليه السلام، ثم التفت إلى أصحابه وحكى لهم ما شاهده وسمعه نافع من الحسين ومن أخته زينب.

فقالوا بأجمعهم: والله الذي من علينا بهذا الموقف، لولا انتظار أمره لعاجلناهم بسيوفنا الساعة، فطب نفسا وقرّ عينا.

فجزاهم حبيب خيرا وقال: هلموا لنواجه النسوة ونطيب خاطرهن.

وجاء حبيب ومعه أصحابه إلى خيم النساء، وأخذ ينادي: السلام عليكم يا ساداتنا، السلام عليكم يا معشر حرائر رسول الله، هذه صوارم فتيانكم، آلوا أن لا يغمدوها إلا في رقاب من يريد السوء بكم، وهذه أسنة غلمانكم أقسموا أن لا يُركِزوها إلا في صدور من يفرق ناديكم.

فخرجن النساء إليهم ببكاء وعويل - تقدمهن العقيلة زينب - وقلن لهم: «أيها الطيبون، حاموا عن بنات رسول الله وحرائر أمير المؤمنين».

فضج القوم بالبكاء حتى كأن الأرض تميد بهم[١٩١].

٣ - تفقُّد زينب‌عليها السلام أحوال أصحاب أبي عبدالله‌عليه السلام ومعرفة خلوص نياتهم

ومن وقائع ليلة عاشوراء أن زينب‌عليها السلام كانت تتنقل بين الخيام تتفقد فيها أحوال أصحاب الإمام الحسين‌عليه السلام لمعرفة حالاتهم الروحية والنفسية ومدى خلوص نياتهم في البقاء إلى جانب أخيها أبي عبدالله الحسين‌عليه السلام.

ومن المناسب هنا أن نسمع هذه الواقعة من لسان فخر المخدرات زينب‌عليها السلام حيث تقول:

لما كانت ليلة عاشوراء من المحرم خرجت من خيمتي لأتفقد أخي الحسين‌عليه السلام وأنصاره وقد أفرد له خيمة فوجدته جالسا وحده يناجي ربه ويتلو القرآن، فقلت في نفسي: أفي مثل هذه الليلة يُترك أخي وحده!! والله لأمضين إلى إخوتي وبني عمومتي وأعاتبهم بذلك.

فأتيت إلى خيمة العباس فسمعت منها همهمة ودمدمة، فوقفت على ظهرها فنظرت فيها فوجدت بني عمومتي وإخوتي وأولاد إخوتي مجتمعين كالحلقة وبينهم العباس بن أمير المؤمنين‌عليه السلام وهو جاث

على ركبتيه كالأسد على فريسته، فخطب فيهم خطبة ما سمعتها إلا من الحسين عليه السلام مشتملة بالحمد والثناء لله والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وآله، ثم قال في آخر خطبته: يا إخوتي وبني عمومتي، إذا كان الصباح، فما تقولون؟!

فقالوا: الأمر إليك يرجع، ونحن لا نتعدى لك قولك.

فقال العباس: إن هؤلاء، أعني الأصحاب، قوم غرباء، والحمل الثقيل لا يقوم به إلا أهله، فإذا كان الصباح فأول من يبرز إلى القتال أنتم، نحن نقدِمهم للموت لئلا يقول الناس قدَّموا أصحابهم فلما قتلوا عالجوا الموت بأسيافهم ساعة بعد ساعة.

فقامت بنو هاشم وسلوا سيوفهم في وجه أخي العباس وقالوا: نحن على ما أنت عليه.

قالت زينب عليها السلام: فلما رأيت كثرة اجتماعهم وشدة عزمهم وإظهار شيمتهم سكن قلبي وفرحت، ولكن خنقتني العبرة فأردت أن أرجع إلى أخي الحسين عليه السلام وأخبره بذلك فسمعت من خيمة حبيب بن ظاهر همهمة ودمدمة فمضيت إليها ووقفت بظهرها ونظرت فيها فوجدت الأصحاب على نحو بني هاشم مجتمعين كالحلقة وبينهم حبيب بن مظاهر وهو يقول: يا أصحابي، لم جئتم إلى هذا المكان؟! أوضحوا كلامكم رحمكم الله.

فقالوا: أتينا لننصر غريب فاطمة!!

فقال لهم: لم طلقتم حلائلكم؟!

فقالوا: لذلك.

قال حبيب: فإذا كان في الصباح، فما أنتم قائلون؟!

فقالوا: الرأي رأيك ولا نتعدى قولا لك.

قال: فإذا صار الصباح فأول من يبرز إلى القتال أنتم، نحن نقدِمهم للقتال، ولا نرى هاشميا مضرجا بدمه وفينا عرق يضرب، لئلا يقول الناس قدَّموا ساداتهم للقتال وبخلوا عليهم بأنفسهم.

فهزوا سيوفهم على وجهه وقالوا: نحن على ما أنت عليه.

قالت زينب عليها السلام: ففرحت من ثباتهم ولكن خنقتني العبرة، فانصرفت عنهم وأنا باكية وإذا بأخي الحسين عليه السلام قد عارضني فسكنت نفسي وتبسمت في وجهه، فقال: أخية!! فقلت: لبيك يا أخي، فقال عليه السلام: يا أختاه، منذ رحلنا من المدينة ما رأيتك مبتسمة، أخبريني ما سبب تبسمك؟!

فقلت له: يا أخي رأيت من فعل بني هاشم والأصحاب كذا وكذا.

فقال لي: يا أختاه!! اعلمي أن هؤلاء أصحابي من عالم الذر وبهم وعدني جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، هل تحبين أن تنظري إلى ثبات أقدامهم؟!

فقلت: نعم.

فقال: عليك بظهر الخيمة.

قالت زينب عليها السلام: فوقفت على ظهر الخيمة، فنادى أخي الحسين عليه السلام: أين إخواني وبنو أعمامي؟!

فقامت بنو هاشم وتسابق منهم العباس وقال: لبيك لبيك، ما تقول؟!

فقال الحسين عليه السلام: أريد ان أجدد لكم عهدا.

فأتى أولاد الحسين وأولاد الحسن وأولاد علي وأولاد جعفر وأولاد عقيل فأمرهم بالجلوس فجلسوا.

ثم نادى: أين حبيب بن مظاهر؟! أين زهير؟! أين هلال؟! أين الأصحاب؟!

فأقبلوا وتسابق منهم حبيب بن مظاهر وقال: لبيك يا أبا عبدالله.

فأتوا إليه وسيوفهم بأيديهم، فأمرهم بالجلوس فجلسوا، فخطب فيهم خطبة بليغة ثم قال: يا أصحابي، اعلموا أن هؤلاء القوم ليس لهم قصد سوى قتلي وقتل من هو معي، وأنا أخاف عليكم من القتل، فأنتم في حل من بيعتي، ومن أحب منكم الانصراف فلينصرف في سواد هذا الليل.

فعند ذلك قامت بنو هاشم وتكلموا بما تكلموا وقام الأصحاب وأخذوا يتكلمون بمثل كلامهم، فلما رأى الحسين عليه السلام حسن إقدامهم وثبات أقدامهم قال عليه السلام: إن كنتُم كذلك فارْفَعوا رؤوسَكم وانْظُروا إلى منازلِكم في الجنَّة!!

فكشف لهم الغَطاء ورأوا منازلهم وحورهم وقصورهم فيها والحور العين ينادين العجل العجل فإنا مشتاقات إليكم!!

فقاموا بأجمعهم وسلوا سيوفهم وقالوا: يا أبا عبدالله، ائذن لنا أن نغير على القوم ونقاتلهم حتى يفعل الله بنا وبهم ما يشاء.

فقال عليه السلام: اجلسوا رحمكم الله وجزاكم الله خيرا.

ثم قال عليه السلام: ألا ومن كان في رحله امرأة فلينصرف بها إلى بني أسد.

فقام علي بن مظاهر وقال: ولماذا يا سيدي؟!

فقال عليه السلام: إن نسائي تسبى بعد قتلي، وأخاف على نسائكم من السبي.

فمضى علي بن مظاهر إلى خيمته فقامت زوجته إجلالا له فاستقبلته وتبسمت في وجهه، فقال لها: دعيني والتبسم.

فقالت: يا ابن مظاهر، إني سمعت غريب فاطمة خطب فيكم وسمعت في آخرها همهمة ودمدمة فما علمت ما يقول.

قال: يا هذه، إن الحسين عليه السلام قال لنا ألا ومن كان في رحله امرأة فليذهب بها إلى بني عمها لأني غدا أقتل ونسائي تسبى.

فقالت: وما أنت صانع؟! قال: قومي حتى ألحقك ببني عمك بني أسد.

فقامت ونطحت رأسها بعمود الخيمة وقالت: والله ما أنصفتني يا ابن مظاهر، أَيَسُرُّك أن تُسبى بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا آمنة من السبي؟! أيسرك أن تُسلب زينب إزارها من رأسها وأنا أستتر بإزاري؟! أيسرك أن تذهب من بنات الزهراء أقراطها وأنا أتزين بقرطي؟! أيسرك أن يبيض وجهك عند رسول الله صلى الله عليه وآله ويسود وجهي عند فاطمة الزهراء؟! والله أنتم تواسون الرجال ونحن نواسي النساء.

فرجع علي بن مظاهر إلى الحسين عليه السلام وهو يبكي، فقال له الحسين عليه السلام: ما يبكيك؟!

فقال: سيدي، أبت الأسدية إلا مواساتكم.

فبكى الحسين عليه السلام وقال: جزيتم منا خيرا[١٩٢].

٤ - زينب عليها السلام تبحث عن الماء

كانت وقدة الصيف لا تنطفئ، وقد منع الماء من أهل البيت فلا هو يُحمل إليهم ولا هم يصلون إليه، وطغت كارثة العطش، وأحست زينب بنت علي عليه السلام بالكارثة فجعلت تقتصد من جرع الماء التي تنتزع من أيدي القوم انتزاعا حتى تسقي الأطفال والصبية، فلما غاب الماء عن مخيم أهل البيت وجفت أواني الماء ضجت النساء والأطفال من الظمأ والعطش فقامت زينب عليها السلام وأخذت طفل أخيها الحسين عبدالله الرضيع بين يديها تعلله ليسكت عن البكاء وهي تقوم به وتقعد لعل الجهد يعييه فينام.

وقامت سكينة إلى عمتها زينب عليها السلام لعلها ادخرت شيئا من الماء فرأتها جالسة وبين يديها أخوها عبدالله الرضيع فقد أتت به إليها أمه شاه زنان بنت الملك يزدجرد، هذا بعد أن قلقت من صراخه قالت لها يا ابنة رسول الله أنا أصبر على العطش ولكن هذا الطفل ليس له صبر على الظمأ مثلي، خذيه إلى أبيه الحسين عليه السلام يأخذه إلى القوم لعلهم يرحمونه فيسقونه الماء، ولكن الحوراء زينب عليها السلام ما أحبت أن تزعج أخاها الحسين ببكاء الطفل الرضيع فجعلت تعلله، فلما رأت سكينة حالة أخيها الصغير بين يدي عمتها خنقتها العبرة ولزمت الصمت ولم تسأل عمتها عن الماء، ولكن أمر سكينة لا يخفى عن عمتها فليس هناك شيء يُسعى إليه غير الماء، فنظرت زينب إلى بنت أخيها تخنق عبرتها، فقالت لها: ما الذي يبكيك يا سكينة؟!

قالت: حال أخي الرضيع أبكاني.

وقامت هي وعمتها زينب تطلبان الماء من مخيم الرجال فلا تجدانه أبدا، وعند ذلك قام برير

بـن خضـير الهمداني وقـال لأصحابه: أيسركم أن آل بيت رسـول الله يموتون عطشـا وقوائم سـيوفنا بأيدينا؟!

فقالوا: ماذا نصنع؟! فالقوم لا يدعون أحدا أن يأتي بقطرة من ماء الفرات.

قال برير: فليأخذ كل واحد منا بيد إحدى الفتيات ونأتي بهن إلى ماء الفرات فيشربن منه.

فقـال لـه رجل من أصحابه: لقد طاش سـهمك يا بريـر، فإن القوم مصرون عـلى قتالنا، فإذا نحن قاتلناهـم أو قتلنـا عـلى الماء فمن يـأتي بالصبية والأطفـال إلى المخيم؟! ولكـن الرأي أن تأخـذ القربة وتملأها من ماء الفرات للنساء والأطفال فإذا اعترضك القوم نحن ندافع عنك وعن القربة.

فاستحسـن بريـر هـذا الرأي فقام وأخـذ القربة وذهـب بها نحو مـاء الفرات ومعـه من أصحاب الحسين عليه السلام ثلاثون رجلا، فأقبلوا في جوف الليل الغابر حتى انتهوا إلى ماء الفرات، فقال لهم عمرو بن الحجاج - الحارس على الماء -: من أنتم وما تريدون؟!

فقال له برير: بنو عمك، جئنا لنشرب الماء.

فقال لهم: اشربوا الماء ولا تحملوا معكم شيئا منه إلى الحسين.

فقال برير: ويحك، أتأمرنا بشرب الماء وآل بيت محمد كلهم عطاشى ظامئين!!

فقال عمرو بن الحجاج: صدقت كما تقول، ولكن أمرنا ابن زياد بأمر لابد أن ننتهي إليه.

فقال برير لأصحابه: املأوا القربة وعجلوا بذلك.

فسـمعهم ابـن الحجـاج فقال لأصحابـه: لا تدعـوا أصحاب الحسـين أن يأخـذوا من المـاء قطرة واحدة.

فحملـوا عـلى أصحاب الحسـين وقد مـلأوا القربـة ونهضوا بها نحـو المخيم والأعداء يرشـقونهم بالسـهام والنبـال، وكان برير يدافع عن الماء بيده وجسـمه ويقول: الحمد لله الـذي جعل رقبتي وقاية لقربتي، صدَّ الله رحمته عمن صدَّنا عنكن أهل البيت.

وجعلوا يدافعون عن القربة حتى انتهى برير إلى مخيم بنات رسـول الله والقربة سـالمة فنادى بأعلى صوته: هلموا يا آل رسول الله فاشربوا الماء هنيئا مريئا[١٩٣].

زينب عليها السلام ويوم عاشوراء

لم يشهد التاريخ يوما أكثر مصيبة وبلاء من مصيبة يوم عاشوراء!! مصيبة صغرت عندها مصائب العالمين من الأولين والآخرين!!

يوم تعالت فيه نداءات سبط الرسول وقرة عين البتول: وا عطشاه!! وا قلة ناصراه!! فلم يجبه أحد إلا السيوف وشرب الحتوف ويذبح ذبح الشاة من القفا ويحمل رأسه على القنا!!

إنَّ الرماحَ الوارداتِ صُدورُها
نحْوَ الحسين تُقاتِلُ التَّنزيلا
ويهلِّلُون بأنْ قُتِلْتَ وإنَّما
قَتَلوا بكَ التكبيرَ والتَّهْليلا

انهالت المصائب على أهل البيت عليهم السلام لا سيما زينب عليها السلام، فالشهداء نالوا ما كانوا إليه يتسابقون، وأُنجز لهم ما كانوا يوعدون، فمضوا إلى رضا من الله ورضوان وجنة وريحان، ولكن زينب الكبرى عليها السلام تضاعفت مصائبها فقد شاركتهم في مصائبهم كلها مضافا إلى ذلك مصائبها بعد استشهاد إخوتها وحماها وما لاقته من الضرب والشتم والتشريد والأسر والسبي، وفوق كل ذلك رؤيتها مصرع أخيها مقطع الأوصال مضرجا بالدماء مرملا بالعراء مسلوب الرداء ورأسه مقطوع وعلى القنا مرفوع!!

١ - زينب عليها السلام تشهد مصرع علي الأكبر عليه السلام

حملت السيدة زينب عليها السلام على عاتقها من المصائب ما لا تطيقه الجبال الراسيات، فكانت السند الوحيد لابن رسول الله صلى الله عليه وآله في محنته يوم عاشوراء، وتتلقى تلك المصائب بقلب صابر وإيمان راسخ.

وكان جل اهتمام السيدة زينب عليها السلام يوم عاشوراء هو بقاؤها حول الخيام تسكّت اليتامى وترعى

الثكالى وتصبِّرهن على تحمل النوائب والبلايا، ولا تدعهم يخرجون من الخيام لكيلا يذعروا بمشاهدة جثث الشهداء، وكانت تملك نفسها من الخروج من الخيام لأن مع خروجها تتعلق بها النساء والأطفال فيراهم أعداء الله وأعداء رسوله فيفرحون بذلك ويشمتون بهم.

وفي استشهاد ولديها محمد وعون لم تخرج من خيمتها حتى لا تفقد صبرها عند رؤية أجسادهم المضرجة بالدماء إيمانا واحتسابا ولكي لا يراها الإمام الحسين عليه السلام على هذا الحال فيستحيي منها.

ولكن حينما استشهد علي الأكبر عليه السلام[١٩٤] لم تثبت الأمور على حالها، ولم تصبر زينب الكبرى عليها السلام على هذا المصاب الجليل ولم تطق البقاء في خيمتها، فخرجت مسرعة إلى أخيها الحسين عليه السلام وهو يحمل نعش ولده علي الأكبر عليه السلام.

وهنا وردت روايات على وجهين مختلفين، وهذا لا ينافي وقوع الحدثين في ذلك اليوم:

١ - قال بعض أرباب المقاتل: لما قتل علي الأكبر عليه السلام أقبلت زينب عليها السلام إليه ووقعت عليه قبل مجيء الحسين عليه السلام، وإنما سبقت أخاها لأنها علمت بأن عليا قد قتل ولو رآه الحسين عليه السلام مقتولا لفارقت روحه جسده فأشغلته بأمر الناموس حتى تهون عليه المصيبة لأن أمر الناموس أصعب الأمور على الغيور، فإذا رأى الإنسان أخته أو حرمه بين الأعداء ينسى غير ذلك[١٩٥].

العلاّمة آية الله السيد نور الله الجزائري يقول في هذا المورد:

على الرغم أن الإمام الحسين عليه السلام كان راكبا فرسه، إلا أن السيدة زينب عليها السلام أسرعت راجلة إلى نعش علي الأكبر عليه السلام، ولما وصل الإمام الحسين عليه السلام إلى مصرع ولده وقع بصره على أخته زينب عليها السلام، ومن شدة غيرته على حريمه أرجع أخته إلى الخيمة ثم رجع هو إلى نعش ولده، وعلى هذا تمكنت زينب عليها السلام بتدبيرها هذا أن تمتص جزءا كبيرا من جزع الحسين عليه السلام على مصابه بولده[١٩٦].

٢ - كما قلنا سابقا أن السيدة زينب عليها السلام في يوم عاشوراء أرسلت ولديها وفلذة كبدها محمد وعون إلى ميدان القتال ولما استشهدا أتى الإمام الحسين عليه السلام بنعشيهما إلى باب الخيمة، ولكن زينب عليها السلام لم تخرج من خيمتها حتى لا يزيد همّ أخيها وغمه برؤيتها وهي تندب ولديها، ولكن الأمر لم يكن كذلك حينما أتى الحسين عليه السلام بنعش ولده علي الأكبر عليه السلام، هنالك خرجت زينب عليها السلام مسرعة ولم تندب أحدا من القتلى مثل ما ندبت علي الأكبر عليه السلام.

يقول حميد بن مسلم: فكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس الطالعة تنادي بالويل والثبور وتقول «يا حبيباه!! يا ثمرة فُؤاداه!! يا نورَ عيْناه!! يا أخيَّاه وابْنَ أخيَّاه!!»

فسألت عنها قيل هي زينب بنت علي عليه السلام[١٩٧].

وفي مقتل أبي مخنف نقل أن السيدة زينب عليها السلام صرخت ونادت: «وا ولداه!! وا قَتيلاه!! وا قلَّةَ

ناصراه!! وا غريباه!! وا مُهْجَةَ قلْباه!! ليتني كُنتُ قبلَ هذا عمْيـاء، ليتني وسَدْتُ الـثرى».

وجـاءت وانكبت على نعش علي الأكبر عليه السلام، فبكى الحسـين رحمة لبكائها وقـام وأخذ بيدها وردها إلى الفسطاط(١٩٨).

٢ - زينب عليها السلام تندب العباس عليه السلام

كما ذكر في المقاتل أن السيدة زينب عليها السلام فقدت في يوم عاشوراء ستة من إخوتها وهم:

سـيد الشـهداء الإمام الحسـين عليه السلام، أبو الفضل العباس عليه السلام وإخوته لأمه (أم البنين) عبدالله وجعفر وعثمان، ويحيى بن علي عليه السلام وأمه أسماء بنت عميس.

من المصائب التي اشتدت على زينب عليها السلام هي مصيبتها بقتل أخيها حامل راية الحسين عليه السلام أبي الفضل العباس عليه السلام.

لما رأت زينب عليها السلام أخاها رجع إلى المخيم باكيا منكسرا منحني الظهر يكفكف دموعه بكمه صاحت وهي تقول: «واأخـاه! واعَبَّـاسـاه! واقلَّـة نـاصـراه! واضيعـتَـنا من بعدِك!»(١٩٩).

ثم قالت السيدة زينب عليها السلام لأخيها الحسين عليه السلام: لِمَ لَمْ تأتِ بأخي العباس عليه السلام؟!

فقـال لها الحسـين عليه السلام: أختاه، كلـما أردت حمل أخي العباس رأيت أن أعضـاءه مقطعة إربا إربا فلم أستطع حمله!!

فأخـذت السـيدة زينب عليها السلام تندب أخاها العبـاس بالعبارات التي ذكرنا، فقال الحسـين عليه السلام: «إي والله من بَعْدِه وا ضيعـتـاه!! وا انقطـاع ظـهـراه بعدك يا أبـا الـفَـضْـل!!»(٢٠٠).

٣ - علي الأصغر في حجر زينب عليها السلام ثم مناولتها إياه لأبيه عليه السلام

ومن المصائب التي فجعت بها زينب الكبرى عليها السلام استشهاد عبدالله الرضيع وعلي الأصغر.

وكما ورد في المقـاتل أن في يـوم عاشـوراء اسـتشـهـد طفـلان رضيعان لأبي عبدالله الحسـين عليه السلام وهما:

عبدالله الرضيع: الذي ولد يوم عاشوراء، وأمه الرباب بنت امرئ القيس الكندية، وأخته سكينة.

علي الأصغر: وكان عمره ستة أشهر (أو أقل من ذلك) وأمه شهربانو أم السجاد عليه السلام(٢٠١).

والعجيب في الأمر أن زينب عليها السلام هي التي ناولت الحسين عليه السلام الطفلين ليودعهما.

كتـب في شـأن عبـدالله الرضيـع أن الإمـام الحسـين عليه السلام تقدم إلى بـاب الخيمـة، ودعا بابنـه عبدالله الرضيع ليودعه، فأجلسه في حجره، وأخذ يقبله ويقول: «ويـلٌ لهـؤلاء القومِ إذا كان جدُّك المصْطفَى

خصْمَهم»، فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فذبحه وهو في حجر أبيه.

وأما علي الأصغر، فقد أتى به الإمام الحسين عليه السلام نحو القوم يطلب له الماء، وقال: فرماه حرملة بسهم مسموم ذي ثلاث شعب وذبحه فتلقى الحسين عليه السلام الدم بكفه ورمى به نحو السماء، ولم يسقط من ذلك الدم قطرة إلى الأرض[٢٠٢].

مِنْ دَمِهِ الزَّاكِي رَمَى نَحْوَ السَّمَا
فما أَجَلّ لُطْفِهِ وأعْظَمَا
لَوْ كانَ لَمْ يَرْمِ بِهِ إليهَا
لَساخَتِ الأرْضُ ومَنْ عَلَيْهَا[٢٠٣]

هذه المآسي المفجعة التي ألَّمت بأهل البيت كانت أشد وقعا على زينب عليها السلام منه على الإمام عليه السلام نفسه، فزينب عليها السلام إضافة إلى أنها كانت ترى بأم عينيها مصارع الشباب والأطفال التي يدمي لها القلب وتختنق لها العبرة كانت ترى الحزن على وجه أخيها أبي عبدالله الحسين عليه السلام فيزداد همها.

نعم، «من أحَبَّ شيئا أحبَّ آثاره».

وزينب عليها السلام بحبها الفائق لأخيها الحسين عليه السلام كانت تتألم بآلامه وتحزن لأحزانه، وبفيض هذا الحب وقفت كالجبل الراسخ تتلقى المصائب بقلب صابر ولسان شاكر وحمد على البلاء.

٤ - زينب عليها السلام تندب أولاد أخيها الحسن عليه السلام

من المصائب التي مرت على زينب يوم عاشوراء هي مصيبة استشهاد ستة من أولاد أخيها الحسن المجتبى عليه السلام.

وحسب ما ورد في الروايات أن سبعة من أولاد الإمام الحسن عليه السلام كانوا يوم الطف إلى جوار عمهم الإمام الحسين عليه السلام، ستة منهم نالوا الشهادة وهم: أحمد، أبو بكر، قاسم، عبدالله الأكبر، عبدالله الأصغر وعمر، ونجا منهم حسن بن الحسن عليه السلام[٢٠٤].

كان قلب زينب عليها السلام يحترق بنار الأسى حينما تنظر إلى هؤلاء الفتية من أولاد أخيها الإمام الحسن عليه السلام المخلصين في طاعة ولي الله والحامين عن حرم رسول الله وهم يتسابقون إلى الحتوف.

ومن هؤلاء الفتية الأبطال عبدالله بن الحسن الذي لم يتجاوز عمره أحد عشر عاما، فقد أوكل الإمام الحسين عليه السلام أخته الحوراء زينب عليها السلام بأن تمسكه كي لا يخرج من الفسطاط، ولكن ما أن سمع الغلام نداء عمه الحسين عليه السلام وهو يستغيث خرج من الخيمة، فلحقته زينب عليها السلام لتحبسه، فقال لها الحسين عليه السلام احبسيه يا أختي، فأبى وامتنع عليها امتناعا شديدا وقال: والله لا أفارق عمي، وأهوى

أبحر بن كعب إلى الحسين عليه السلام بالسيف فقال له الغلام: ويلك يا ابن الخبيثة أتقتل عمي فضربه أبحر بالسيف فاتقاه الغلام بيده وأطنها إلى الجلد فإذا يده معلقة، ونادى الغلام: يا عماه!! يا أبتاه!!

فأخذه الحسين عليه السلام فضمه إليه وقال: يا ابن أخي صبرا على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين.

ثم رفع الحسين عليه السلام يديه وقال: اللهم فإن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا واجعلهم طرائق قددا ولا ترضي الولاة عنهم أبدا، فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا فقتلونا.

فرماه حرملة بن كاهل بسهم فذبحه في حجر عمه الحسين عليه السلام.

وخرجت زينب بنت علي عليه السلام وهي تنادي: وا ابْنَ أخاه!! وا نورَ عيناه!! ليت الموتَ أعْدَمني الحياة!![٢٠٥].

٥ - زينب عليها السلام تندب ولديها

كما ذكرنا سابقا أن عبدالله بن جعفر - زوج الحوراء زينب عليها السلام - أرسل ولديه محمد وعون - وأمهما عقيلة الهاشميين زينب عليها السلام - إلى مكة المكرمة، وأمرهما بلزوم خالهما الإمام الحسين عليه السلام والمسير معه والجهاد دونه، فلحقا بالإمام الحسين عليه السلام وهو خارج من مكة.

والجدير بالذكر أن خيمة زينب الكبرى عليها السلام كانت في مقدمة خيام أهل البيت عليهم السلام، ولما حميت الحرب بين الطرفين كان لزينب عليها السلام دور كبير في رفع معنويات أصحاب أبي عبدالله في القتال تستثير بذلك حفائظهم إلى جانب اهتمامها البالغ بالأطفال واليتامى والثكالى، فكانت تخرج هي وحرائر الرسالة وبنات الزهراء من الخيمة ويصحن: يا معشر المسلمين، ويا عصبة المؤمنين، ادفعوا عن حرم الرسول وعن إمامكم المنافقين لتكونوا معنا في جوار جدنا رسول الله صلى الله عليه وآله.

فعند ذلك بكى أصحاب الحسين عليه السلام وقالوا: نفوسنا دون أنفسكم ودماؤنا دون دمائكم، وأرواحنا لكم الفداء، فوالله لا يصل إليكم أحد بمكروه وفينا عرق يضرب!![٢٠٦]

وأما عون ومحمد - أشبال الحوراء زينب عليها السلام - فكانا من أبطال يوم عاشوراء، فدوا أنفسهم في سبيل رفع راية الحق مع إمام معصوم، وكيف لا وقد ورثوا البطولة الهاشمية والمحاسن العلوية.

في ليلة عاشوراء، أراد الإمام الحسين عليه السلام أن يختبر أهل بيته وأصحابه قال لهم: «قد أذنتُ لكم فانطَلِقوا جميعاً في حِلٍّ من بيعتي ليس عليكُمْ مِنّي ذِمامٌ وهذا اللَّيلُ قد غَشِيَكم فاتخِذوه جَمَلاً ولْيأخذْ كلُّ رجلٍ منكم بيدِ رجلٍ من أهلِ بيتي وتفرَّقُوا في سوادِ هذا اللَّيلِ وذروني

وهؤلاء فإنهم لا يريدون غيْري»، فقال له إخوته وأبناؤه وأبناء عبدالله بن جعفر: ولِمَ نفعل ذلك؟! لنَبْقَى بعدَك!! لا أرانا اللهُ ذلك أبداً!![٢٠٧]

وفي ظهيرة يوم عاشوراء لما اشتدت الحرب ووقعت النوبة على ولدي العقيلة زينب عليها السلام، أخذت السيدة زينب عليها السلام بيدي محمد وعون وتقدمت بهما إلى محضر أخيها الحسين عليه السلام وقالت له: جدي إبراهيم عليه السلام قَبِل الأضحية من قِبَل الله عز وجل (وهو كبش من الجنة)، فاقبل مني هذين الولدين ليفدوا بأنفسهما في سبيلك، ولو لم يسقط الجهاد عن المرأة لفديتك بنفسي ألف مرة، وطلبت في كل ساعة ألف شهادة في سبيلك!![٢٠٨]

قَبِل الإمام الحسين عليه السلام بذلك وعبأ ولديها للمبارزة مع الأعداء، فتقدم محمد بن عبدالله إلى الإمام عليه السلام يستأذن منه البراز فقال: «سيدي، أتأذن لي قبل أن أطير مع جدي (جعفر الطيار) في الجنان أن أقلع جذور هؤلاء الخبثاء؟!»

فأذن له الإمام الحسين عليه السلام، وخرج من الخيمة كالأسد الضرغام وأخذ يرتجز ويقول:

نَشْكُو إلى اللهِ من العُدْوانِ فِعَالَ قومٍ في الرَّدى عُمْيانِ
قد تركوا معالمَ القُرآنِ ومُحْكَمَ التَّنزيلِ والتبيانِ
وأظهروا الكُفْرَ معَ الطُّغْيانِ

فقاتل حتى قتل عشرة أنفس ثم شد عليه عامر بن نهشل التميمي فقتله.

ثم برز أخوه عون إلى الميدان، وهو يرتجز ويقول:

إنْ تُنكِروني فأنا ابْنُ جَعْفَرِ شَهيدُ صِدْقٍ في الجِنانِ أَزْهَرِ
يطيرُ فيها بجناحٍ أخْضَرِ كَفَى بهذا شَرَفاً في المَحْشَرِ

ثم قاتل حتى قتل ثلاثة فوارس وثمانية عشر رجلا، ثم حمل عليه عبدالله بن قطنة الطائي فقتله[٢٠٩].

وطبقا لبعض الروايات لما رأى عون قاتل أخيه - عامر بن نهشل - قد وضع له كمينا ليقتله هو الآخر حمل عليه وبضربة واحدة قتله، ثم اتجه مسرعا إلى خيمة الإمام الحسين عليه السلام ليعتذر منه وقال: لم أستطع صبرا على فراق أخي، على هذا لم أتقدم إلى محضركم لأستأذنكم القتال، فضمه الحسين عليه السلام إلى

صدره وأذن له بالمبارزة، فودعه وتوجه إلى القوم وقلبه يفيض إيمانا وتوكلا على رب العالمين حاملا سيفه المسلول، فأخذ يقاتلهم قتال الأبطال وقتل منهم رجالا وفرسانا حتى قُتل[٢١٠].

رد فعل زينب عليها السلام في استشهاد ولديها

وحسب ما ورد في بعض الروايات: أن زينب عليها السلام يوم عاشوراء بيدها ألبست ولديها لباس القتال ومسحت عنهما الغبار وأعطتهما سيفيهما وأقبلت بهما إلى محضر أخيها الحسين عليه السلام تستأذن لهما المبارزة مع الأعداء، فلم يأذن لهما الإمام الحسين عليه السلام وقال لزينب عليها السلام: قد لا يرضى بذلك زوجك عبدالله، فقالت زينب عليها السلام: بل هو الذي أرسلهما إليك وأوصاهما بالجهاد دونك، وأوصاني أن أقدمهما للمبارزة على غيرهما من أبناء إخوتي.

وبعد إصرار زينب عليها السلام على أخذ الإذن لولديها من أبي عبدالله الحسين عليه السلام، أذن لهما الإمام عليه السلام، فخرجا من الخيمة ترافقهما أمهما الحوراء زينب عليها السلام، واتجهوا إلى ميدان القتال.

لما رأى عمر بن سعد عونا ومحمدا في الميدان قال: عجبي لهذه المحبة بين زينب والحسين، كيف فدت بولديها وقرة عينها دون أخيها الحسين!!

بعد استشهاد محمد وعون، حمل الحسين عليه السلام نعشيهما معا ورجلاهما تخطان الأرض وجاء بهما إلى الخيمة، فخرجت نساء بني هاشم تستقبلهما إلا العقيلة زينب عليها السلام أبت أن تخرج من خيمتها لكي لا تفقد صبرها فينقص بذلك من أجرها وحسب قول البعض لكي لا يراها أخاها الحسين عليه السلام في حال من البكاء والجزع فيخجل منها ولا يجد لذلك جوابا[٢١١].

نعم، كان حب زينب عليها السلام لأخيها الحسين عليه السلام وإيثارها في سبيل السير على نهجه القويم إلى حد أنها لم تظهر أي جزع وفزع على مقتل ولديها، ولم تجعل لمصيبتها بهما إلى قلبها سبيلا وكأن لم يكن شيئا مذكورا، ولم تتحدث في أمرهما لئلا تجرح به قلب إخوتها وأبناء إخوتها وتثبط بذلك عزيمتهم ولئلا تخدش خلوص صبرها وإيثارها في سبيل الله عز وجل، مع العلم أن السيدة زينب عليها السلام كان لها من العمر في ذلك الوقت ٥٥ عاما.

نعم، وهل يتوقع غير ذلك من بطلة كربلاء وأم المصائب والبلاء زينب الكبرى عليها السلام.

وفي صريح زيارة الناحية المقدسة الواردة عن حجة آل محمد صاحب الزمان وإمام الإنس والجان الحجة بن الحسن المهدي (عج) يقول في شأن ولدي السيدة زينب عليها السلام محمد وعون: «السَّلام على عَونِ بْنِ عَبْدِالله بْنِ جعفرٍ الطيَّار، حَليفِ الإيمانِ ومُنازِلِ الأقْرانِ الناصحِ للرَّحْمنِ التالي للمَثاني والقُرآنِ، لَعَنَ اللهُ قاتِلَهُ عبدالله بنَ قُطْنَةَ النبهاني، السَّلامُ على محمد بن عبدِالله

بـنِ جعفـرٍ الشـاهِـدِ مكانَ أبـيـهِ والتالي لأخيهِ وواقيـه ببـدنِـه، لَـعَـنَ اللهُ قـاتِـلَـهُ عـامِـرَ بْـنَ نهشـلٍ الـتـمـيـمـيِّ»(٢١٢).

٦ - زينب عليها السلام ووداع الإمام الحسين عليه السلام لولده الإمام السجاد عليه السلام

ذكـر أرباب السـير والمقاتل أن الحسـين عليه السلام لما بقي وحيـدا فريدا قد قتل جميع أصحابـه وأهل بيته، ورآهـم عـلى وجه الأرض مجزريـن كالأضاحي، ولم يجد أحدا ينصره ويذب عـن حريمه، وهو إذ ذاك يسمع عويل العيال وصراخ الأطفال، فعند ذلك نادى بأعلى صوته:

«هل من ذابٍّ عن حَرَمِ رسـولِ اللهِ؟! هل من مُـوحـِّـدٍ يخافُ اللهَ فيـنـا؟! هل من مُـغـيـثٍ يرجو اللهَ في إغاثـتـنـا؟!»، والحسـين عليه السلام يعلَم علم اليقين أنه ما بقي ممـن عاهد الله تبارك وتعالى على نصرته أحـد إلا وقـد قُتِل بين يديه، وما كانت نداءاته عليه السلام إلا لإلقاء الحجـة على القوم الظالمين فينالهم العذاب الأكبر يوم القيامة.

فارتفعت أصوات النساء بالبكاء والعويل.

قالوا: ونهض علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام وخرج من الخيمة وهو يتوكأ على عصا ويجر سيفه، إذ لا يقدر على حمله لأنه كان مريضا لا يستطيع الحركة.

فصاح الحسين بزينب عليها السلام – أم كلثوم الكبرى –: احبسيه يا أختاه لئلا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال زين العابدين عليه السلام: يا عمتاه، ذريني أقاتل بين يدي ابن رسول الله!!

فأخذت زينب عليها السلام تمانعه وتنادي خلفه: يا بني ارجع، حتى أرجعته إلى فراشه(٢١٣).

وقال الحائري في الدمعة الساكبة: قد رأيت في بعض مؤلفات أصحابنا أنه لما ضاق الأمر بالحسين عليه السلام وقد بقي وحيدا فريدا التفت إلى خيم بني أبيه فرآها خالية منهم، ثم التفت إلى خيم بني عقيل فوجدها خاليـة منهـم ثم التفت إلى خيم أصحابه فلم ير أحدا منهم، فجعـل يكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم ذهب إلى خيم النساء، فجاء إلى خيمة ولده زين العابدين عليه السلام فرآه ملقى على نطع من الأديم، فدخل عليه وعنده زينب عليها السلام تمرضه، فلما نظر علي بن الحسين عليه السلام أراد النهوض فلم يتمكن من شدة المرض فقـال لعمته سنديني إلى صدرك، فهذا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أقبل، فجلست زينب عليها السلام خلفـه وأسـندته إلى صدرها فجعل الحسـين عليه السلام يسـأل ولده عن مرضـه وهو يحمد الله تعـالى، ثم أخذ الإمام زين العابدين يسـأل والده عن أصحاب أبيه وأهل بيته وقد اختنقت زينب عليها السلام بعبرتها وجعلت تنظر إلى أخيها كيف يجيبه، فقال الحسين عليه السلام: يا بني، اعلم أنه ليس في الخيام رجل إلا أنا وأنت!! وأما

هؤلاء الذين تسأل عنهم كلهم صرعى على الثرى، فبكى علي بن الحسين عليه السلام بكاء شديدا ثم قال لعمته زينب عليها السلام: يا عمتاه، علي بالسيف والعصا!! فقال له أبوه: وما تصنع بهما؟! قال: أما العصا فأتوكأ عليها وأما السيف فأذب به بين يدي ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنه لا خير في الحياة بعده، فمنعه الحسين عليه السلام من ذلك وضمه إلى صدره(٢١٤)، وقال له: لا أدعك تفعل ذلك، فأنت حجتي على أهل بيتي وشيعتي، وترد هؤلاء النساء إلى المدينة.

ونرى مرة أخرى صبر زينب عليها السلام وهي تمرض ابن أخيها وتقف إلى جانبه في مرضه مع كثرة المصائب التي حلت عليها، ثم ترى مشهد وداع أخيها الحسين عليه السلام لابنه زين العابدين عليه السلام وهما يحتضنان بعضهما ويبكيان مما زادها هما فوق همومها.

ثم لزم الإمام الحسين عليه السلام بيد ولده زين العابدين عليه السلام وصاح بأعلى صوته: يا زينب، ويا أم كلثوم ويا سكينة ويا رقية ويا فاطمة، اسمعن كلامي، واعلمن أن ابني هذا خليفتي عليكم وهو إمام مفترض الطاعة(٢١٥).

٧ - زينب عليها السلام تودع أخاها الحسين عليه السلام

ذكر المرحوم ثقة الإسلام النوري رحمه الله هذا المنام عن رجل من الأخيار والأبرار والفضلاء والزهاد واسمه ميرزا يحيى الأبهري الذي قال:

أتيت كربلاء لزيارة الحسين عليه السلام في أيام عرفة حتى كانت ليلة الأضحى خرجت من الحرم الشريف وأتيت منزلي فنمت، وإذا بقائل يقول في المنام إن ملا محمد باقر المجلسي يدرِّس في الصحن الشريف وأشار لي إلى المكان، فأتيت إلى ذلك المكان فرأيت مسجدا كبيرا وقد اجتمع فيه خلق كثير من أهل العلم والمجلسي رحمه الله على المنبر جعل يدرسهم، فلما فرغ أخذ في ذكر المصيبة، فدخل شخص من داخل الحجرة وقال إن الصدِّيقة الطاهرة عليها السلام تقول: اذكر المصائب المشتملة على وداع ولدي الشهيد، فشرع في ذكر تلك المصائب، فاجتمع خلق كثير وبكوا بكاء شديدا لم أر مثله في عمري ثم نزل(٢١٦).

نعم، إن مصيبة وداع الحسين عليه السلام مع عياله وأخواته من أعظم المصائب وأجلها على الحسين عليه السلام وأهل بيته، فكان عليه السلام يرى غربة بنات العترة الطاهرة والصفوة المختارة ووحدتهم وقد شملتهم شماتة الأعداء ونوائب الدهر، وأصابهم ما أصابهم من الفجائع وفقد الأحبة، ويعلم ما سيصيبهم من الأسر والسبي والشتم والضياع بعده، فكان قلبه الشريف يعتصر ألما وحزنا وهو يراهن على هذا الحال.

وما أشد وقع هذه المصيبة على قلب الحوراء زينب عليها السلام، أتمسك نفسها عن الجزع أم تصبِّر أخواتها

وبنات أبي عبدالله الحسين عليه السلام على البلاء أم تسكّت الأطفال اليتامى عن البكاء!! لم يبقِ لها الزمان من تلجأ إليه وتشكو إليه بثها وحزنها، فصبرت إيمانا واحتسابا وتيقنت أن ابتلاءها بمصائب كربلاء هو امتحان امتحنها الله عز وجل ولابد لها أن تتجاوزه بنجاح.

نستنبط من أقوال أرباب المقاتل أن الإمام الحسين عليه السلام ودع البعض بصورة خاصة وودع أهل بيته بصورة عامة أكثر من مرة، وكانت السيدة زينب عليها السلام ملازمة لأخيها الحسين عليه السلام وتشهد في كل مرة وداع الحسين عليه السلام أهله وعياله وأصحابه ويتفطر قلبها على هذه المشاهد الأليمة والمحزنة.

ونورد هنا بعض الروايات التي ورد فيها اسم زينب عليها السلام:

في الوداع الأول، لما عزم الإمام الحسين عليه السلام على ملاقاة الحتوف ، جاء ووقف على باب خيمة النساء مودعا لحرم مخدرات الرسالة وعقائل النبوة ونادى:

«يا زينب، ويا أمَّ كلثوم، ويا فاطِمَة، ويا سُكَيْنة، عليكُنَّ منِّي السَّلام»

فأقبلن إليه ودرن حوله ولسان حال زينب عليها السلام يقول:

قُومُوا إلى التوديعِ إنَّ أَخي دَعا
بجَوادِهِ إنَّ الفِراقَ طَويلُ
فخَرَجْنَ رَبَّاتُ الحِجَالِ حَواسِراً
وغَدا لها حَوْلَ الحُسَيْنِ عَويلُ [٢١٧]

وقيل أنه لما وقف على باب الخيمة أخذ ينادي: مَنْ ذا يقدِّم لي جوادي؟!

فجاءته زينب وقد أخذت بعنان الجواد فأسرجته وألجمته وقدمته إلى أخيها الحسين عليه السلام، فلما استوى الحسين عليه السلام على ظهر جواده خنقتها عبرتها وقالت: أخي لمن تنادي؟! قطَّعْتَ نياط قلبي»، ثم قالت: «ما أجْلَدَني وأقْساني، أيُّ أخْتٍ تُقَدِّمُ لأخيها فرسَ المَنون؟!

فرقَّ لها الحسين عليه السلام وبكى لحالها [٢١٨].

يقول الراثي:

مَنْ ذا يُقَدِّم لِي الجَوادَ وَلامَتي
والصَحْبُ صَرْعَى والنصِيرُ قَليلُ
فأَتَتْهُ زينبُ بالجَوادِ تقودُهُ
والدَّمْعُ مِنْ ذِكْرِ الفِراقِ يسِيلُ
وتقولُ قدْ قَطَّعْتَ قَلْبي يا أخي
حُزْناً ويا لَيْتَ الجِبالَ تزولُ

ولــمَــنْ تــنــدي والــحُـــمَـــاةُ عــلــى الــثَّــرى
صَـــرْعَـــى ولا مـــنْـــهُـــمْ يـــبِـــلُّ غَــلــيــلُ
مــا فــي الــخِــيــامِ وقـــدْ تَــفــانَــى أَهْــلُــهَــا
إلاَّ نِــــســــاءً وَلَــــهـــــاً وعَــــلــــيــــلُ
أرأيــــــتَ أخْـــتــــاً قَــــدْ أتــــتْ لِــشَــقــيــقِــهــا
فَـــرَسَ الــمَــنــونِ ولا حِــمَــى وكَــفــيــلُ
فــتَــبــادَرَتْ مِــنْــهُ الــدُّمــوعُ وقــالَ يا
أخــتَــاهُ صَـــبْـــراً فــالــمُــصــابُ جَــلــيــلُ
فــبَــكَــتْ وقــالــت يــا ابْـــنَ أُمِّـــي لــيــس لي
وعــلــيــكَ مــا الــصَّــبْــرُ الــجَــمــيــلُ جَــمــيــلُ
يــا نـــورَ عَــيْــنــي يــا حَــشَــاشَــةَ مُــهْــجَــتــي
مَـــنْ لــلــنِّــســاءِ الــضــائِــعــاتِ دَلــيــلُ
ورَنَــــتْ إلَــــى نَــحْــوِ الــخِــيــامِ بِــعَــوْلَــةٍ
عُــظْــمَــى تَــصُـــبُّ الــدمْـــعَ وهـــي تــقــولُ
قـــومـــوا إلـــى الـــتَّـــوديـــعِ إنَّ أخـــي دَعـــا
بـــجَـــوادِهِ إنَّ الـــفِـــراقَ طـــويـــلُ
فــخَــرَجْــنَ رَبَّـــاتُ الـــخُـــدور عَـــواثِـــراً
وغَـــدا لــهــا نَـــحْـــوَ الــحُــسَــيْــنِ عَــويــلُ
الــلـــه مـــا حـــالُ الــعَــلــيــلِ وقـــد رأى
تــلــك الــمَــدامِــعِ لــلــوَداعِ تَــســيــلُ[٢١٩]

وأما وداعه الثاني حينما أمر عياله بالسكوت وودعهم ثانيا وكانت عليه جبة خز دكناء وعمامة موردة أرخى لها ذؤابتين والتحف ببردة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولبس درعه وتقلد بسيفه وطلب ثوبا لا يرغب فيه أحد يلبسه تحت ثيابه لئلا يجرد منه، فإنه مقتول مسلوب، فأتوه بتبان[٢٢٠] فلم يرغب فيه لأنه لباس من ضربت عليه الذلة، فأخذ ثوبا خَلِقا فمزقه وجعله تحت ثيابه، ودعا بسراويل حبرة ففزرها ولبسها لئلا يُسلبها[٢٢١].

ثم قال لأخواته وبناته: أودعتكن الله من نساء ضائعات حاسرات من بعدي!!

وفي هذا الوداع طلب الإمام الحسين عليه السلام أن يناولوه ولده علي الأصغر فناولوه، ثم أخذه إلى الميدان

يطلب له ماء فرموه بالنبال واستشهد وهو في حجر أبيه الحسين عليه السلام[٢٢٢].

وروي أيضا أنه حينما نظر الحسين عليه السلام إلى اثنين وسبعين رجلا من أحبته وثمانية عشر رجلا من أهل بيته صرعى، عزم على لقاء القوم بمهجته، ثم جعل ينادي: هل من راحم يرحم آل الرسول؟! هل من ناصر ينصر ذرية الطاهرة البتول؟! ثم التفت إلى الخيمة ونادى: يا سكينة ويا فاطمة ويا زينب ويا أم كلثوم، عليكن مني السلام، فهذا آخر الاجتماع، وقد قرب منكن الافتجاع.

ثم بكى الحسين عليه السلام بكاء شديدا، فقالت له زينب عليها السلام: أخي، لا أبكى الله عينك، مم بكاؤك؟! فقال الحسين عليه السلام: «كيف لا أبْكي وعمَّا قليلٍ تساقُون بين العِدَى».

فعلت أصواتهن بالبكاء وصحن: «الوداع الوداع، الفراق الفراق»[٢٢٣].

وفي رواية أنه: لما سمعت زينب عليها السلام كلام أخيها الحسين عليه السلام بكت ونادت:

«وا وحدتاه!! وا قِلَّةَ ناصِراه!! وا سوءَ مُنقَلَباه!! وا شؤم صباحاه!!»

فشقت ثوبها ونشرت شعرها ولطمت على وجهها.

فقال لها الحسين عليه السلام: «مَهْلاً يا بنتَ المُرتضى، إنَّ البُكاءَ طويلٌ!!»

فأراد الحسين عليه السلام أن يخرج من الخيمة فتعلقت به وقالت: «مَهْلاً يا أخي، توقَّفْ حتَّى أتزوَّدَ منك ومن نظَري إليك وأودِّعُك وداعَ مُفارِقٍ لا تَلاقي بعْده»[٢٢٤].

فجعلت تقبل يديه ورجليه وأحطن به سائر النسوة وجعلن يقبلن يديه ورجليه، فسكتهن الحسين عليه السلام وردهن إلى الفسطاط، ثم دعا بأخته زينب عليها السلام وصبَّرها، وأمَرَّ يده على صدرها وسكنها من الجزع وذكر لها ما أعد الله من الثواب للصابرين وما وعد الله من الكرامات للمقربين.

تلك اليد المباركة، يد الولاية والإمامة، حينما لا مست صدر زينب عليها السلام المليئة بالأحزان والشجون، وتلك الكلمات التي خرجت من فم العصمة والطهارة فزينت أذن زينب الكبرى عليها السلام، هنالك رضيت وأظهرت الفرح والسرور في وجهه المبارك وقالت:

«يا ابْن أمِّي، طِبْ نفْساً وقَرَّ عيناً، فإنَّك تجِدُني كما تحِبُّ وترْضَى»[٢٢٥].

وقالت بلسان الحال:

صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ
سأصْبِرُ حتَّى يَعْجَزُ الصَّبْرُ عَنْ صَبْري

هي الصابرة بنت الصابرة وبنت أمير المؤمنين عليه السلام وهو أصبر الصابرين.

بأبي الَّتي وَرَثَتْ مَصائِبَ أُمِّها
فَغَدَتْ تُقَابِلُها بِصَبْرِ أبِيها[٢٢٦]

٨ - زينب عليها السلام تفي بوصية أمها الزهراء عليها السلام

في خضم هذه الأحداث الأليمة يوم عاشوراء تذكرت زينب عليها السلام وصية أمها الزهراء عليها السلام، فقد أوصت الزهراء فاطمة عليها السلام ابنتها الحوراء زينب عليها السلام أنه سيأتي يوم على قرة عيني الحسين عليه السلام يتوجه إلى ميدان القتال ولن أكون معه آنذاك، فنيابة عني قبّليه في نحره قبل أن يتوجه إلى الميدان.

هنالك قالت زينب عليها السلام لأخيها الحسين عليه السلام: أخي، توقف قليلا حتى أعمل بوصية أمي.

توقف الإمام عليه السلام فقبلته زينب عليها السلام في نحره ثم رجعت إلى الخيمة[٢٢٧].

٩ - مقابلة زينب عليها السلام مع عمر بن سعد عند مصرع الحسين عليه السلام

ووقعت الطامة الكبرى والمصيبة العظمى حينما أقبل فرس الحسين عليه السلام - ذو الجناح - يدور حوله ويلطخ عرفه وناصيته بدمه ويشمه ويصهل صهيلا عاليا، ثم جعل يرمح برجليه حتى قتل رجالا وأفراسا كثيرة. وبهذا الصهيل الحزين توجه نحو المخيم، فلما نظرن النساء إلى الجواد مخزيّا، برزن من الخدور، ناشرات الشعور، على الخدود لا طمات، وللوجوه سافرات وبالعويل داعيات، وبعد العز مذللات وإلى مصرع الحسين مبادرات[٢٢٨].

وخرجت زينب بنت علي عليها السلام - ومن خلفها النساء والأرامل واليتامى - من الفسطاط إلى جهة المعركة وهي تنادي: «وامُحَمَّداه!! واعَليَّاه!! واجَعْفَراه!! واحَمْزتاه!! واسَيِّداه!! هذَا حُسَيْنٌ بالعراءِ صَريعُ كَرْبَلاء ليت السماءَ أطْبَقَتْ على الأرضِ وليت الجبالَ تَدَكْدَكَتْ على السَّهْلِ»[٢٢٩].

وانتهت زينب بنت علي عليها السلام نحو الحسين عليه السلام وقد دنا منه عمر بن سعد - والحسين يجود بنفسه - فصاحت به: «أيْ عُمَر، ويحك أيُقْتَلُ أبُو عبْدالله وأنت تنظُرُ إليهِ؟!».

فصرف وجهه عنها ودموعه تسيل على وجهه ولحيته[٢٣٠].

فعند ذلك صاحت زينب عليها السلام بالقوم: «ويْحَكُمْ، أَما فيكم مُسْلِمٌ!!»، فلم يجبها أحد[٢٣١].

ثم صاح ابن سعد بالناس: ويحكم انزلوا إليه فأريحوه!!

فنزل إليه شمر بن ذي الجوشن فضربه برجله وألقاه على قفاه، ثم أخذ بكريمته المقدسة - والحسين عليه السلام يلوك بلسانه من شدة العطش - فضربه بالسيف اثنتي عشرة ضربة، ثم حز رأسه ودفعه إلى خولي بن يزيد فقال: احمله إلى الأمير ابن سعد، وزينب عليها السلام تنظر إلى ذلك[٢٣٢].

وجاءَت لشِمرٍ زَينبُ ابنةُ فاطِمٍ
تعَنِّفُهُ عَن أمْرِهِ وتعْذِلُ

تـدافِـعُـه بـالـكَـفِّ طَـوراً وتَـارَةً
إلـيـهِ بِـطـهَ جَـدِّهـا تـتـوَسَّـلُ
أيـا شِـمْـرُ لا تـعْـجَـلْ عـلـى ابـنِ مُـحَـمَّـدٍ
فَـذو تِـرَةٍ فـي أمْـرِهِ لـيـس يَـعْـجَـلُ
أيـا شِـمْـرُ مـهـما كـنـتَ فـي الـنـاس جاهِـلاً
فـمِـثْـلُ حُـسَـيـنٍ لَـسْـتَ يـا شِـمـرُ تـجْـهَـلُ
أيـا شِـمـر هـذا حُـجَّـةُ الـلـه فـي الـوَرَى
أعِـدْ نَـظَـراً يـا شِـمـرُ إن كُـنـتَ تـعْـقِـلُ
ومَـرَّ يَـحُـزُّ الـرَّأسَ غـيـرَ مُـراقِـبٍ
مِـنَ الـلـهِ لا يـخْـشَـى ولا يَـتَـوَجَّـلُ(٢٣٣)

وفي بعض المقاتل ورد أن زينب عليها السلام اعتنقت أخاها ووضعت فمها على نحره وهي تقبّله وتقول: «أَخِي لَو خُيِّرْتُ بين الرحيلِ والمقامِ عندك لاخْتَرْتُ المقامَ عندك ولو أنَّ السِّباعَ تأكلُ من لحمي، يا ابن أمي، لقد كَلَلْتُ من المُدافعةِ لهؤلاء النساءِ والأطفالِ وهذا مَتْنِي قد اسْوَدَّ من الضَّرْبِ»(٢٣٤).

لهفي على زينب الكبرى عليها السلام حينما قبّلت أخاها الحسين عليه السلام في موضع لم يسبقها أحد أن قبّله فيها، قبّلته في نحره الشريف والدماء تسيل منه، فارتوت من فيضه المبارك والمقدس.

وفي تظلم الزهراء للقزويني أن زينب عليها السلام لما علمت بالوقعة خرت مغشيا عليها فلما أفاقت من غشيتها ركضت نحو المعركة وهي تارة تعثر بأذيالها وتارة تسقط على وجهها من عظم دهشتها حتى انتهت إلى المعركة فجعلت تنظر يمينا وشمالا فرأت أخاها الحسين عليه السلام على وجه الأرض يقبض يمينا وشمالا والدم يسيل من جراحاته كالميزاب، فطرحت نفسها على جسده الشريف وجعلت تقول:

أأنت أخي الحُسَين! أأنت ابنُ أمّي! أأنت نورُ بَصَري! أأنت مُهْجَةُ قَلْبي! أأنت حِمانا! أأنت رَجانا! أأنت كَهْفُنا! أأنت عِمادُنا! أأنت ابنُ مُحَمَّدٍ المُصْطَفَى! أأنت ابْنُ عَلِيٍّ المُرتضى! أأنت ابْنُ فاطِمَةَ الزَّهْراء!

وأقول: ماذا جرى على الجسد الشريف والبدن الطاهر لكي تقول زينب الكبرى عليها السلام: أأنت أخي!! أأنت ابن أمي؟!! كيف لم تتعرف زينب عليها السلام على جسد أخيها وهي لم تكد تفارقه إلا لحظات قلائل!!

المصيبة أعظم من قطع رأس أو بتر إصبع أو سلب رداء، فالحسين عليه السلام لم يبق من جسده الطهر الطاهر بمقدار أنملة إلا وأصيب بجراح!!

إذاً كيف تعرفت عليه وهو على مثل هذا الحال؟!

لعلها كانت تجول على أرض كربلاء تبحث عن يوسف زمانها، فجذبتها رائحته الزكية ونسمته العطرة، فقالت بلسان الحال: «إني لأجد ريح الحسين»!!

كل هذا ولا يرد عليها جوابا ولا يسمع لها خطابا لأنه عليه السلام كان مغشيا عليه لكثرة ما لاقاه من الجراحات، فألحت عليه بالخطاب وكثر منها البكاء إلى أن أفاق، فرمقها بطرفه الشريف وأشار إليها بيده فغشي عليها فلما أفاقت قالت له: «أخي بحَقِّ جَدِّي رّسولِ الله صلى الله عليه وآله إلاَّ ما كَلَّمْتَني، وبحَقِّ أبي أَميرِ المُؤمنين إلاَّ ما خاطَبْتَني، يا حَشاشَ مُهْجَتي بحَقِّ أُمِّي الزَهْراء إلاَّ ما جاوَبْتَني، يا ضِياءَ عَيْني، يا شَقيقَ رُوحي جاوِبْني»، فانتبه الحسين من قولها وقال:

«يا أختاه، هذا يَومُ التَّنادِ والهُزاق، هذا اليومُ الذي وَعَدَني به جَدِّي وهو إليَّ مُشْتاق»، ثم أغمي عليه، وعند ذلك جلست خلفه وأجلسته حاضنة له بصدرها فالتفت الحسين عليه السلام وقال: «أخيَّة زينب، كَسَرْتِ قَلْبي، وزدْتِني كَرْباً فوقَ كَرْبي، فبالله عليكِ إلاَّ ما سَكَتْتِ» وسكت عليها السلام، فصاحت: «واويْلاه، أخي وابْنَ أمِّي، كيف أسْكُن وأسْكُت وأنتَ بهذه الحالة تُعالِجُ سَكَراتِ الموتِ تقبضُ يميناً وتمدُّ شِمالا، تقاسي مَنوناً وتلاقي أهوالاً، روحي لروحِك الفداء، ونفْسي لنفْسِكَ الوِقاء»(٢٣٥).

وارتفعت في ذلك الوقت غبرة شديدة سوداء مظلمة، فيها ريح حمراء، لا يرى فيه عين ولا أثر، وارتجت الأرض وكسفت الشمس حتى ظن القوم أن العذاب قد جاءهم، فلبثوا كذلك ساعة، ثم انجلت الغبرة عنهم وسكنت وذلك لوجود حجة الله على الأرض وهو الإمام زين العابدين عليه السلام(٢٣٦).

١٠ - مواجهة زينب عليها السلام الشديدة مع شمر بن ذي الجوشن

بينما كانت زينب عليها السلام تخاطب أخاها الحسين عليه السلام وتبكيه، وإذا بالسوط بين كتفيها وقائل يقول: تنحي عنه وإلا ألحقتك به!! فالتفتت وإذا هو شمر بن ذي الجوشن، فاعتنقت أخاها وقالت لشمر: يا عدوَّ الله، لا أتَنَحَّى عنه، إنْ ذبحتَه فاذبَحْني معه!!

فجذبها عنه قهرا وضربها ضربا عنيفا وقال والله إن تقدمت إليه أضرب عنقك بهذا السيف!!

ثم دنا وقد كان أغمي على الحسين عليه السلام وارتقى على صدره الشريف المطهر وقلَبَه على وجهه المنور.

وأقول شاء الله أن يلقى الحسين عليه السلام ربه ساجدا وواضعا جبهته الكريمة على التراب، فتجلت بذلك

حقيقة الخضوع وكمال الخشوع والاستسلام لقضاء الله عز وجل. فلما رأت ذلك تقدمت وجذبت السيف من يده وقالت: «يا عدوَّ الله، ارفِقْ به، لقد كَسَرْت صدرَه، أما علِمتَ أنَّ هذا الصدر تربَّى على صدر رسولِ الله صلى الله عليه وآله وعليٍّ عليه السلام وفاطمة عليها السلام!! ويحك هذا الذي ناغاه جبرائيل وهزَّ مهده ميكائيل، فبالله عليكَ إلاَّ أمهلْتَه ساعته لأتزوَّد منه، ويحك دعْني أقبِّله، دعْني أغمضُه، دعْني أنادي بناتَه يتزوَّدْن منه، دعْني آتيه بابنته سكينة فإنَّه يحبُّها وتحبُّه».

فعند ذلك غار عليها فوقعت على وجهها مغشيا عليها، كل هذا ولم يعبأ بكلامها ولا رق لها قلبه وصنع ما صنع(٢٣٧).

١١ - إخبار زينب عليها السلام عن رض الخيل جسد أخيها الحسين عليه السلام

ومن المصائب التي ألمت بالعقيلة زينب الكبرى عليها السلام حينما أُخبرت أن عمر بن سعد نادى في أصحابه فيمن ينتدب إلى الحسين فيوطيء الخيل ظهره وصدره فانتدب له عشرة من الفوارس، فداسوا ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله بحوافر الخيل(٢٣٨).

وحسب ما ورد في بعض الروايات أن فضة هي التي أخبرت زينب عليها السلام بهذا الخبر المفجع.

وفي روايات أخرى أن فضة حينما دخلت على زينب عليها السلام رأتها وهي تبكي بكاء شديدا لم ترها مثل هذا الحال من قبل، فسألتها عن ذلك، فقالت لها عليها السلام: أولم تعلمي أن عشرة من الفرسان قد ركبوا الخيول يريدون أن يرضوا جسد أخي بحوافر الخيول!!

١٢ - نهب خيام آل سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله

لم يكتف أعداء الله بقتل سبط الرسول وقرة عين البتول وذرية الأطهار وإحراق قلوب بنات الرسالة وحرم النبوة بنار الافتجاع والحزن، بل انقلبوا على أعقابهم ينهبون ويسلبون بيوت آل الرسول حتى جعلوا ينزعون ملحفة المرأة عن ظهرها، وأضرموا النار في الخيام فخرجت بنات الطهر من الخيام نادبات باكيات حاسرات.

وأشْجَى مُصابٍ أغْضَبَ الحقَّ غَيرةً
وأدْمَى جُفونَ المَجْدِ فهي له عَبْرَى
هُجومُ بَني حَرْبٍ على حَرَمِ الهُدَى
على حين رَبُّ العَرْشِ شَرَّفَه قَدْرا
فتُمْسي بلا سِتْرٍ بَناتُ مُحَمَّدٍ

وإنْ هُنَّ قد أُلْبِسْنَ مِنْ هَيْبَةٍ سِتْرا
وأنَّ أَكُفَّ الخَمْرِ تَمْتَدُّ نَحوَها
على قِصَرٍ فيها فتَنْتَزِعَ الخُمْرا
ومَذْعورة باليُتْمِ قد ريعَ قَلْبُها
كطيرٍ عليها الصَّقْرُ قد هاجَمَ الوَكْرا[٢٣٩]

قالت زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام: كنت في ذلك الوقت واقفة في الخيمة، إذ دخل رجل أزرق العينين فأخذ ما كان في الخيمة، ونظر إلى علي بن الحسين عليه السلام وهو على نطع من الأديم، وكان مريضا، فجذب النطع من تحته ورماه إلى الأرض والتفت إلي وأخذ القناع من رأسي ونظر إلى قرطين كانا في أذني، فجعل يعالجهما وهو يبكي حتى نزعهما، فقلت: تسلبني وأنت تبكي!! فقال: أبكي لمصابكم أهل البيت، فقلت له: قطع الله يديك ورجليك وأحرقك الله بنار الدنيا قبل نار الآخرة.

وقال أبو مخنف: فما مضت الأيام حتى ظهر المختار بن عبيد الله الثقفي رضي الله عنه يطلب بثار الحسين عليه السلام في الكوفة، فوقع ذلك الملعون بيده، فلما وقف بين يديه قال ما صنعت يوم كربلاء؟! قال: أتيت إلى علي بن الحسين عليه السلام فأخذت نطعا من تحته وأخذت قناع زينب بنت علي وقرطيها.

فبكى المختار وقال: فما قالت لك؟!

قال: قالت قطع الله يديك ورجليك وأحرقك الله بنار الدنيا قبل نار الآخرة.

فقال المختار رضي الله عنه: فوالله لأجيبن دعوة الطاهرة المظلومة.

ثم قدمه وقطع يديه ورجليه وأحرقه بالنار[٢٤٠].

١٣ - حفظ العقيلة زينب عليها السلام ابن أخيها السجاد عليه السلام من القتل .

لما انتهى القوم إلى علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام - وهو مريض منبسط على فراشه لا يستطيع النهوض - وإذا بجماعة من الرجالة في مقدمتهم شمر بن ذي الجوشن يقولون: ألا نقتل هذا العليل؟!

فهمَّ شمر بقتله فقال حميد بن مسلم: سبحان الله، أتقتل الصبيان؟! إنما هذا صبي!![٢٤١]

فقال شمر: قد صدر أمر الأمير عبيد الله بن زياد بقتل جميع أولاد الحسين.

وسلَّ سيفه ليقتله، فألقت زينب عليها السلام بنفسها عليه وقالت: «والله لا يقتل حتى أقتل دونه»، فكفوا عنه[٢٤٢].

١٤ - زينب عليها السلام تحمي فاطمة الصغرى عليها السلام

يقـول العلامة المجلسي رضي الله عنه في بحار الأنوار أن فاطمة الصغرى عليها السلام قالت: كنت واقفة بباب الخيمة وأنـا أنظـر إلى أبي وأصحابه مجزرين كالأضاحي على الرمال والخيول على أجسـادهم تجول، وأنا أفكر فيما يقع علينا بعد أبي من بني أمية أيقتلوننا أو يأسروننا، فإذا أنا برجل على جواده يسوق النساء بكعب رمحـه وهـن يلذن بعضهن ببعض وقد أُخذ ما عليهن من أخمرة وأسـورة وهـن يصحن وا جدّاه!! وا أبتاه!! وا علياه!! وا قلة ناصراه!! وا حسناه!! أما من مجير يجيرنا!! أما من ذاب يذود عنا!!

قالـت: فطار فؤادي وارتعـدت فرائصي، فجعلت أحيل بطرفي يمينا وشـمالا على عمتي زينب (أم كلثوم الكبرى) خشية منه أن يأتيني فبينا أنا على هذه الحالة وإذا به قد قصدني ففررت منهزمة وأنا أظن أني أسـلم منه وإذا به قد تبعني، فذهلت خشـية منه، وإذا بكعب الرمح بين كتفي فسقطت على وجهي فخرم أذني وأخذ قرطي ومقنعتي وترك الدماء تسيل على خدي ورأسي تصهره الشمس، وولّى راجعا إلى الخيم وأنا مغشي علي، وإذا أنا بعمتي عندي تبكي وهي تقول: قومي نمضي، ما أعلم ما جرى على البنـات وعـلى أخيك العليل، فقمت وقلت: يا عمتاه هل من خرقة أسـتر بها رأسي عن أعين النظار؟! فقالت: يا بنتاه، وعمتك مثلك!!

فقمت فرأيت رأسها مكشوفا ومتنها قد اسود من الضرب، فما رجعنا إلى الخيمة إلا وهي قد نهبت ومـا فيهـا، وأخي علي بن الحسـين عليه السلام مكبوب عـلى وجهه لا يطيق الجلوس من كثـرة الجوع والعطش والأسقام فجعلنا نبكي عليه ويبكي علينا[٢٤٣].

١٥ - حرق خيام آل بيت الأطهار

بعد استشهاد سيد الشهداء وأبي الأحرار أبي عبدالله الحسين عليه السلام وبعد نهب خيام أهل بيته وسلبها، أقبل عمر بن سعد إلى الخيام ونادى: يا أهل بيت الحسين، اخرجوا من الخيام!!

فلم يعتن أهل البيت عليهم السلام بكلامه، فأخذ ينادي ثانية: اخرجوا من الخيام!!

فقالت له العقيلة زينب عليها السلام: كف يدك عنا يا عمر!!

فقال عمر بن سعد: يا بنت علي، اخرجن من الخيام لكي نحملكم أسرى.

فقالت العقيلة الهاشمية عليها السلام: أما تخاف الله؟! أما يكفيك ما فعلت؟!

فقال عمر بن سعد: لا مفر من أسركن.

فقالت الحرة الأبية عليها السلام: نحن لا نخرج من الخيام ولا نلقي بأنفسنا في الأسر.

هنالك أمر عمر بن سعد أن يضرموا النار في الخيام[٢٤٤].

فخرجت النساء حواسر حافيات باكيات.

وفي بعض المقاتل أن زينب الكبرى عليها السلام أقبلت على زين العابدين عليه السلام وقالت:
«يــا بَقـيَّـة الماضين وثـمالَ[٢٤٥] البـاقيـن قـد أضْـرمـوا النـارَ في مَـضـارِبِنا، فما رأيُـك فـيـنـا؟!»، فقال عليه السلام: «عليكُـنَّ بالفِرارَ!!».
ففررن بنات رسول الله صلى الله عليه وآله صائحات باكيات نادبات[٢٤٦].
وأقول: وهل من ملجأ إلا الفرار!! فلِمَ تستشير زينب الكبرى عليها السلام الإمام السجاد عليه السلام في هذا الأمر الاضطراري؟!
هنا تتجلى عظمة عقيلة بني هاشم عليها السلام في طاعتها لولي أمرها وإمام زمانها وتعظيمها لشأن الولاية المقدسة وإجلالها لمقام الإمامة المعظمة في كل صغيرة وكبيرة، وإذا كان الإمام السجاد عليه السلام قد أمر بالبقاء في الخيام التي تلتهمها النيران من كل جانب، لما خرجت زينب عليها السلام عن هذا الأمر قيد أنملة ولبقيت في الخيام بأمر وليها!!
فعجبي كل العجب من مقام هذه الطاهرة الزكية بنت محمد المصطفى وعلي المرتضى وفاطمة الزهراء، وأخت النجباء الأكرمين الحسن والحسين عليهم صلوات الله أجمعين.

١٦ - زينب الكبرى عليها السلام تحمي السجاد عليه السلام والخيام تحترق من حولهما

حينما لاذت بنات الزهراء عليها السلام بالفرار من الخيام، بقيت زينب عليها السلام واقفة تنظر إلى زين العابدين عليه السلام لأنه لا يتمكن من النهوض والقيام.
قال بعض من شهد: رأيت امرأة جليلة واقفة بباب الخيمة و النار تشتعل من جوانبها وهي تارة تنظر يمنة ويسرة وأخرى تنظر إلى السماء وتصفِق بيديها وتارة تدخل في تلك الخيمة وتخرج، فأسرعت إليها وقلت: يا هذي، ما وقوفك ههنا والنار تشتعل من جوانبك وهؤلاء النسوة قد فررن وتفرقن ولم تلحقي بهن وما شأنك؟!
فبكت وقالت: «يا شيخ إنَّ لـنـا عليـلاً في الخَيمةِ وهو لا يتمكَّنُ من الجُلوسِ والنُّهـوضِ فكيف أفارِقُـهُ وقد أحاطَ النَّارُ به هـكـذا!!»[٢٤٧].
نعم، وقفت زينب الكبرى عليها السلام تحامي عن الإمام السجاد عليه السلام بقلب من حديد، تمنع النار أن تصل إليه، وكيف لا ولم يُبقِ الزمان لها من يؤنسها وحشتها غيره، فهو بقية الأبرار وخليفة الأطهار وأبو الأئمة الحجج الأخيار.

زينب عليها السلام في عصر يوم عاشوراء

عرج الحسين عليه السلام بروحه الطاهرة ونفسه الزكية إلى الملكوت الأعلى ومعه ثلة من أهل بيته وأصحابه الغر الميامين يُحَلَّون بحُلَل من نور والذي قال فيهم الحسين عليه السلام: «إنِّي لا أعْلَمُ أصْحاباً أوفَي ولا خيْراً من أصْحابي ولا أهْلَ بيتٍ أبَرَّ وأوصَلَ من أهْلِ بيتي».

فأظلمت الأرض بفقده وأنارت الآخرة بنوره فمضى وأصحابه إلى رَوح وريحان وجنة ورضوان.

وأما زينب الكبرى عليها السلام، بقيت على أرض الطفوف وقد عظم عليها المصاب تنظر يمينا فترى أهل بيتها صرعى مجزرين بلا رؤوس مرملين بالعراء تسفي عليهم الريح بينهم بضعة الزهراء البتول، وتنظر شمالا فترى الثكالى واليتامى قد أنهكتهم الأحداث حاسرات باكيات نائحات قد أحرق أهل البغي والجور خيامها.

حقا إنها «أم المصائب»، فأي امرأة بل أي إنسان يصبر على مثل ما صبرت عليه عقيلة بني هاشم!! هي بنت الشهداء وأخت الشهداء وأم الشهداء وعمة الشهداء وخالة الشهداء!!

أقبل الليل الكئيب بظلامه الدامس وقد بات آل رسول الله على أرض الكرب والبلاء منكسرة قلوبهم دامية عيونهم، في حال من القلق والرعب بلا حمى ولا كفيل، ولم يبق لهم إلا حجة الله على خلقه زين العباد وهو عليل.

ولكن لم تنس زينب الكبرى عليها السلام ما وعدت به أخاها الحسين عليه السلام حينما قالت له: «يا ابْنَ أمِّي، طِبْ نفساً، وقَرِّ عَيْناً، فإنَّكَ تجِدُني كما تحِبُّ وترْضَى»!![٢٤٨]

فلم يحدّها جور الزمان من تنفيذ ما وعدت به، ولم تشغلها نوازل الدهر ونوائبه عن ذكر ربها ومناجاته والتضرع له، فكانت مصداقا - بل أكمل مصداق - للآية الكريمة: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ...»[٢٤٩]، علمت علم اليقين أنه لا معين لها إلا الله عز وجل فانصرفت إليه وأقبلت عليه

وهـي راضيـة برضائه مستسـلمة لقضائه، وكيف لا وقد جمعت في ذاتها المقـدس عصـارة الصبـر من جـدهـا الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم الـذي كان يقول: «مـا أوذِيَ نـبـيٌّ مِثْـلَ ما أوذِيـت»[٢٥٠]، ومـن أبيها المظلوم الـذي قال: «صَـبَـرْتُ وفـي العيـنِ قَـذى وفـي الحَـلْـقِ شـَجَـى»[٢٥١]، وأمها المقهورة التي قالت: «صُـبَّـتْ عَـلَيَّ مَـصـائِــبٌ لَـوْ أنَّـهـا صُـبَّـتْ على الأيـَّامِ صِرْنَ لَـيـالِيـا»[٢٥٢]!!

نعم، صلت زينب الكبرى عليها السلام نافلة الليل جالسـة، فقـد أنهكتها المصائب وأضعفت قواها البدنية، ولكن لا سبيل لهذه المصائب إلى قلب زينب ونفسها وروحها المقدسة.

استشهاد طفلين من أهل البيت عليهم السلام مساء عاشوراء

(وفي الإيقـاد) عـن مقتل ابن عربي ما مضمونه أن الحسـين عليه السلام أوصى أخته زينب عليها السلام بجمع العيال بعـد أن يحـرق الأعـداء الخيـام، وبعد أن أحرقـت الخيـام ذهبت زينـب عليها السلام في جمعها ففقـدت طفلين للحسـين عليه السلام، فذهبـت وأختهـا أم كلثوم عليها السلام في طلبهـما فرأتهما معتنقين نائمين عـلى الأرض، فلما دنت منهما حركتهما فإذا هما ميتين عطشا!![٢٥٣]

الفصل الثالث

زينب عليها السلام
بعد عاشوراء إلى وفاتها

إشارة

من هنا يبدأ فصل جديد من حياة العقيلة الحوراء زينب الكبرى عليها السلام البناءة والمليئة بالفخر والاعتزاز حاملة راية النهضة الحسينية تخوض بها معركتها القادمة ضد الباطل والجور، وتحمي بها قدسية دينها وشريعة جدها وولاية أئمتها.

كان على زينب عليها السلام القيام بالأعمال الشاقة التالية:

١ - تكفلها حال اليتامى والثكالى ومراقبتهم ومداراتهم على أحسن وجه.

٢ - الاهتمام الخاص والعناية الفائقة بإمام زمانها علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وتعميم ولايته ونشرها.

٣ - العمل بدورها على تبليغ رسالة الشهداء وبيان مقاصدهم العليا من تلك الثورة المقدسة على أكمل وجه، وذلك ببليغ خطبها وفصيح مقالاتها.

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي مرت بها والضغوط التي أحيطت بها إلا أنها قامت بتلك الأعمال خير قيام، فكشفت المستور وزرعت بذلك بذور الثورة في قلوب الناس فأحيتها بعد موتها.

وفي هذا الفصل نود أن نتوسع في بيان عظمة شخصية زينب بنت علي عليهما السلام:

حمل السبايا عصر الحادي عشر من المحرم إلى الكوفة

بعد زوال يوم الحادي عشر من المحرم أمر ابن سعد أن تحمل النساء على الأقتاب بلا وطاء وحجاب، فقدمت النياق إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أحاط القوم بهن وثم قالوا لهن تعالين واركبن فقد أمر ابن سعد بالرحيل، فلما نظرت زينب عليها السلام إلى ذلك التفتت إلى ابن سعد وقالت: «سَوَّدَ الله

وَجْهَكَ يا ابنَ سَعد في الدُّنيا والآخِرة، تأمُرُ هؤلاء القَوم بأن يُركِبونا ونحن وَدائعُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله!!
فقُلْ لهم يتباعَدون عنَّا، يُرْكِبُ بعضُنا بعضاً».

فقال: تنحوا عنهن.

فتقدمت زينب عليها السلام ومعها أم كلثوم عليها السلام وجعلت تنادي كل واحدة من النساء باسمها وتركبها على المحمل حتى لم يبق أحد سوى زينب عليها السلام، فنظرت يمينا وشمالا فلم تر أحدا سوى زين العابدين عليه السلام وهو مريض، فأتت إليه وقالت: «قُمْ يا ابْنَ أخي واركَب الناقَة».

فقال: «يا عَمَّتاه، اركَبي أنتِ ودَعيني أنا وهؤلاء القَوم».

فامتثلت لأمر الإمام زين العابدين عليه السلام، ثم التفتت يمينا وشمالا فلم تر إلا أجسادا على الرمال ورؤوسا على الأسنة بأيدي الرجال، فصرخت وقالت: «وا غُرْبتاه!! وا أخاه!! وا حُسَيناه!! وا عَبَّاساه!! وا رجالاه!! وا ضيعَتاه بعدَك يا أبا عبدالله!!»

فلما نظر الإمام زين العابدين عليه السلام إلى ذلك لم يتمالك على نفسه دون أن قام وهو يرتعش من الضعف فأخذ بعصاه يتوكأ عليها وأتى إلى عمته وثنى ركبته وقال: «اركَبي!! فلقدْ كَسَرْتِ قَلبي، وزِدْتِ كَرْبي!!».

فأخذ ليركبها فارتعش من الضعف وسقط على الأرض، فلما رآه الشمر أتى إليه وبيده سوط فضربه فجعل عليه السلام ينادي: «وا جَدَّاه! وا مُحَمَّداه! وا عَلِيَّاه! وا حَسَناه! وا حُسَيناه!».

فبكت زينب عليها السلام وقالت: «وَيْلَكَ يا شِمْر، رِفْقاً بيتيمِ النُبُوَّةِ وسَليلِ الرِّسالَةِ وحَليفِ التُّقَى وتاجِ الخِلافَة!!».

فلم تزل تقول كذا حتى نحته عنه، وإذا بجارية مسنة سوداء قد أقبلت إلى زينب عليها السلام فأركبتها فسألت عنها فقالوا هذه فضة جارية فاطمة الزهراء عليها السلام.

ثم أركبوا الإمام عليه السلام على بعير أعجف، فلم يتمالك الركوب من شدة الضعف فأخبروا ابن سعد فقال: قيدوا رجليه من تحت بطن الناقة!!

ففعلوا ذلك وساروا بهم على تلك الحالة[٢٥٤].

مرور السبايا على مصارع القتلى

حسب ما ورد في بعض الروايات أن النسوة من أهل البيت عليهم السلام طلبن من الموكَّلين بهن أن يمروا بهن على مصارع القتلى ليجددن العهد بالنظر إلى قتلاهن وليودعنهم الوداع الأخير، فمروا بهن على مصارع القتلى، ولما وقعت أنظارهن على الأجساد المقطعة مطروحة على الرمضاء بينهم سيد شباب

أهل الجنة بكين ولطمن الخدود.

وأما زينب عليها السلام فجعلت تحدُّ النظر من جسم أخيها الحسين عليه السلام وهي تنادي بصوت حزين وقلب كئيب:

«يا مُحَمَّداه!! صلَّى عليك مَليكُ السَّماء، هذا حُسينٌ بالعَراء، مُرَمَّلٌ بالدِّماء، مُقَطَّعُ الأعْضاءِ، مَحْزوزُ الرَّأسِ من القَفَا، مَسلوبُ العَمامَةِ والرِّداء، يا مُحَمَّداه، وبناتُكَ سَبايا، وذرِّيَّتُكَ مُقَتَّلةٌ تَسْفِي عليهم ريحُ الصَّبَا، بأبي مَنْ عَسكَرُهُ في يوم الاثنين نُهْبا، بأبي مَنْ فُسطاطُه مُقَطَّعُ العُرَى، بأبي مَنْ لا هو غائب فيُرتجَى ولا هو مريض فيُداوى، بأبي المهمومُ حَتَّى قَضَى، بأبي العطْشانُ حَتَّى مَضَى، بأبي مَن شَيْبَتُه تَقْطُرُ بالدِّماء....»(٢٥٥).

ثم يقول الراوي: «فأبْكَتْ والله كُلَّ عَدُوٍّ وصَديقٍ حتَّى جَرَتْ دُمُوعُ الخَيلِ على حَوافِرِها»(٢٥٦).

العلاَّمة ضياء الدين يقول:

فوالـلـهِ مـا أنْسَى الـحُـسَـينَ مُلَطَّخاً
وبـيـن يَـدَيـهِ زَيـنـبُ وهـي تـنْـدبُ

أخـي يـا أخـي أنـتَ ابْـن أمِّـي على الثَّرى
لَعَمْرُكَ هـذا فـي العَجـائِبِ أعْجَبُ

أخـي كَـيـفَ لا أبْـكـي دَمـاً بِـمَدامِعي
وجُـثْـمـانُـكَ الـمَـجْروحُ بـالـدَّمِ تـنْحَـبُ(٢٥٧)

«إلهي تقبَّل منا هذا القربان»

وقفت زينب عليها السلام على جسد أخيها بخشوع وتأمل وبسطت يديها تحت الجثمان المقدس والمقطع إربا إربا ورفعته نحو السماء وقالت:

«إلـهي تـقَـبَّلْ مِـنَّا هـذا الـقُـرْبان»!!(٢٥٨)

وفي رواية أخرى أنها قالت: «اللَّـهُـمَّ تقَـبَّلْ مِـنَّـا هـذا الـقَـليلَ من الـقُرْبان»(٢٥٩).

وورد في ناسخ التواريخ أنها قالت: «إلـهـي، تقَبَّلْ هـذا قَـليلَ مِـنَ الـقُـربـانِ مِـنَّـا أهلَ الـبَـيـت».

هذا التعبير الذي ورد على لسان العقيلة زينب عليها السلام إن دل على شيء فإنما يدل على عظيم مقام الشكر والثناء على قدَر الله وقضائه، والإقرار بالعجز وتصغير النفس أمام عظمة الخالق وجلاله، وتلك من

صفات المتقين الذي قال في وصفهم إمام المتقين أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلين: «عَظُمَ الخالِقُ في أَنفُسِهم فصَغُرَ ما دونهُ في أعْيُنِهم»!![٢٦٠]

على الرغم من الظروف القاسية التي أحاطت بزينب عليها السلام وعلى الرغم من بكائها المستمر الذي لم يتوقف، وإن كان بكاؤها ونحيبها أحد أسباب النهضة والثورة بعد مقتل أخيها الحسين عليه السلام إلا أنها لم تنس دورها الذي أنيطت به فكان جُلُّ اهتمامها ونشاطها هو توسيع دائرة التبليغ عن رسالة الشهداء وبيان سمو أهدافهم من ثورتهم ضد البغاة الظالمين، وأرغمت بدعائها هذا أنوف المعتدين المستكبرين حينما قالت بلسان حالها:

نحن قدمنا هذه الضحايا من أهل البيت الكرام إلى الساحة القدسية لا غير، وعلى الرغم من عظمة الحسين عليه السلام ومكانته الرفيعة عند ربه إلا أنه صغير في ذات الله وعظمته، فالعظيم بالعَرَض لابد أن يفنى في العظيم بالذات، ولابد أن نستصغر أنفسنا وإيثارنا في ذات الله في سبيل نيل الأهداف الإلهية السامية.

مواساة زينب عليها السلام للإمام السجاد عليه السلام

حينما ينظر الإنسان إلى ساحة المعركة وقد امتلأت بجثث الزواكي من آل طه والمخلصين من شيعة الحسين عليه السلام مجزَّرين على الثرى بلا رؤوس والدماء تسيل منهم يتوسطهم سبط الرسول الكريم سيد شباب أهل الجنة، تنتابه حالة من الدهشة والألم والحسرة والجزع، وتبكي عيناه دما على ما فعله أهل الجور والبغي على نسل العترة الطاهرة الزكية، وكيف بحال زينب عليها السلام والإمام زين العابدين عليه السلام الذين هما ظاهرا ومعنويا أقرب الناس إليالحسين عليه السلام.

قالوا: لما نظر الإمام زين العابدين عليه السلام إلى أبيه والقتلى من أهل بيته، عظم عليه ذلك المنظر المؤلم واشتد قلقه وعظم عليه الحزن والمصاب وكادت روحه أن تخرج، فلما تبينت ذلك منه عمته العقيلة زينب ابنة علي عليه السلام التفتت إليه - وهي تصبِّره - قائلة:

«ما لي أراكَ تَجودُ بنفْسِكَ يا بَقِيَّةَ جَدِّي وأبي وإخْوَتي؟!»

فقال: «وكيفَ لا أجْزَعُ وأهْلَع وقد أرى سيِّدي وإخوتي وعمومتي وبني عمي وأهلي مُضَرَّجين بدمائِهم، مُرَمَّلين بالعَراء، مسلَّبين لا يُكَفَّنون ولا يُوارَوْن، ولا يَعرجُ إليهم أحَدٌ، ولا يقْرَبُهم بَشَرٌ، كأنَّهم أهْلُ بيتٍ من الدَّيْلَم والخَزَر!!»

فقالت زينب عليها السلام: «لا يجْزَعنَّك ما ترى، فوالله إنَّ ذلك لَعَهْدٌ مِن رَسولِ الله صلى الله عليه وآله إلى جَدِّك

وأبيك وعمِّك، ولقد أخَذَ اللهُ ميثاقَ أناسٍ من هذه الأمَّةِ لا تعْرفُهم فراعنةُ أهلِ الأرضِ وهم معْروفون في أهْلِ السَّماواتِ أنَّهم يجْمعون هذه الأعضاءَ المُتفرِّقةَ وهذه الجُسومَ المُضَرَّجةَ فيُوارونَها، وينصِبون بهذا الطفِّ علَماً لقبرِ أبيك سيِّدِ الشهداء، لا يُدرَس أثرُه ولا يُمحَى رسمُه على كُرور اللَّيالي والأيام، ولَيَجْتَهِدَنَّ أئِمَّةُ الكفْرِ وأشياعُ الضَّلالِ في مَحْوِهِ وتطميسِه، فلا يزدادُ أثرُه إلاَّ ظهوراً وأمْرُه إلاَّ عُلَوّاً.....»(٢٦١).

ثم ذكرت له حديث أم أيمن الذي سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(٢٦٢).

وبهذا الحديث جعلت السيدة زينب عليها السلام تواسي وتصبِّر ابن أخيها الإمام زين العابدين عليه أفضل صلوات المصلين.

توديع زينب عليها السلام الأجساد الطاهرة

كان أعداء الله يسعون لحمل أهل بيت الرسالة سبايا وأسارى إلى الكوفة بأسرع ما يمكن وذلك لنيل الجوائز التي وعدهم بها ابن زياد، ولكن أهل البيت عليهم السلام لم يطيقوا فراق أجساد أحبتهم وأعزتهم وتركهم مطروحين على الثرى، وكان زجر بن قيس من الجلاوزة القساة والغلاظ، فكان يضرب بنات الزهراء عليها السلام بالسوط ويصرخ في وجوههن بأن يسرعوا في ركوب الجمال(٢٦٣).

ولم تر زينب عليها السلام بُدّاً من فراق أخيها عليه السلام، فأخذت تبكي وقلبها يتفطر من الألم والحزن، وقالت من على ظهر الراحلة:

«أوَدِّعُكَ اللهَ عزَّ وجلَّ يا ابْنَ أمِّي، يا شقيقَ روحي، فإنَّ فِراقي هذا ليس عن ضَجَرٍ ولا عن مَلامَةٍ، ولكن يا ابن أمِّي كما ترَى يا نورَ بَصَري، فاقْرَأ جَدِّي وأبي وأمِّي وأخي منِّي السَّلامَ، ثم أخبِرْهُم بما جَرَى علينا من هؤلاء اللِّئامِ»(٢٦٤).

لما أرادت الزكية الطاهرة زينب الحوراء عليها السلام أن تركب، عند ذلك تذكرت يوم خروجها من مكة معززة مكرمة يركبها أبو الفضل العباس عليه السلام على محملها المجلل وهي في غاية العزة والشموخ مصونة في خدرها إذ أحاط بها إخوتها وبنوها وبنو عمومتها، فكانت أنوارهم المتلألئة حجابا لها فوق حجابها وسترا على سترها، فتنعم بالنظر إليهم والتحدث معهم، ولكن أسفي على زينب عليها السلام في هذا اليوم المشؤوم وهي تنظر إلى تلك الفتية من بني هاشم ضحايا مرملين بالعراء وتنظر إلى قمر عشيرتها مقطع الأوصال يحملها جلاوزة بني أمية سبية وقد اسود متنها من ضرب السياط، هنالك شعرت زينب عليها السلام بألم الفراق وجراح الغربة وهي تسار في جمع من الثكالى واليتامى إلى الكوفة!!

ولله در قائل:

حَـــرُّ قَـلْـبـي لَـهُـنَّ إذْ صِـرْنَ أَسْــرَى

حـــاسِـــراتٍ مِـــن بـعـدِ صَـــونِ خَـيـالِـهـا

صـــادِيـــاتٍ[٢٦٥] غَـــرْثَـــى[٢٦٦] وأعْـنـاقُـهـا

فـي الـسَّـيـرِ مَـلْـوِيَّـةٌ لـحـامـي حِـمـاهـا

إنْ تـبـاكَـيْـنَ مـا لَـهُـنَّ رحـيـمٌ

أو تَـنـادَيْـنَ لا يُـجـابُ نِـداهـا

والـعَـلـيـلُ الـسَّـجَّـادُ فـي الأسْـرِ يَـسْـري

لـسِـبـاهـا وذلِّـهـا وعَـنـاهـا

ورؤوسُ الـهُـدَى عـلـى الـسـمْـرِ لاحَـت

فـاقَ ضَـوءَ الـبُـدور لَـمْـعُ سَـنـاهـا

حُمل عيال الحسين عليه السلام ونساؤه ومعهم زينب الكبرى عليها السلام على أحلاس أقتاب الجمال بلا وطاء ولا حجاب مكشوفات الوجوه بين الأعداء وهن مخدرات الرسالة وحرائر النبوة يساقون كما يساق سبي الترك والروم.

أهل البيت عليهم السلام على أعتاب الكوفة

خرجت قافلة العترة الطاهرة أسرى من أرض كربلاء متجهة إلى الكوفة يوم الحادي عشر من المحرم يحملهم أربعين جملا، ولما وصل عسكر عبيد الله بن زياد إلى الكوفة غربت الشمس، فأخبروا ابن زياد بذلك فأمرهم أن يبقوهم خارج الكوفة وأن يؤجل دخولهم إلى يوم غد حتى يتمكن عملاء الحكم الأموي وجلاوزته أن يظهروا للناس أفراحهم وانتصاراتهم بقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته وسبي نسائه!!

نزل طوائف منهم من الحرسة والموكلين على السبايا والرؤوس المطهرة في خارج الكوفة وضربوا الخيام والفساطيط لأنفسهم في ناحية وأنزلوا السبايا وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله في ناحية أخرى، فلما مضت ساعة من الليل خرجت جماعة من أهل الكوفة ومعهم الأواني والموائد المملوءة باللحوم المطبوخة وسائر الأطعمة من المطبوخات وغيرها، فجاءوا بها إلى الحرسة والموكلين، وأطفال أهل البيت عليهم السلام في ذلك الوقت في شدة البكاء والجزع من ضر الجوع، وزاد جزعهم لما شموا رائحة المطبوخات، فجاءت فضة إلى زينب الطاهرة وقالت: يا سيدتي، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي: إن لك ثلاث دعوات مستجابة، فمضت دعوتان منها وبقيت الثالثة، فاذني لي أن أدعو الله تعالى يفرجنا في شأن

الأطفال!! فرخصتها فجاءت فضة إلى ناحية فيها تل صغير، فصلَّت فيه ركعتين لاستجابة الدعاء، ثم دعت، فبينما هي في أثناء دعوتها فإذا قد نزلت من السماء قصعة مملوءة باللحم والمرق وفوقها قرصان من الخبز وكانت نفحات المسك والعنبر والزعفران تفوح من تلك القصعة ، فكان غذاء أهل البيت والسجاد عليه السلام والنساء والأطفال من تلك القصعة ومن هذين القرصين فكانوا كلما يحتاجون إلى الغذاء يأكلون منها ويشبعون، ثم كانت القصعة بحالها (أي مملوءة باللحم والمرق) كأنها لم ينقص منها شيء أصلا وكذا القرصان، فكانت هذه الآية الساطعة والنعمة الإلهية والمائدة السماوية موجودة عند أهل البيت عليهم السلام إلى اليوم الذي وردوا المدينة وبعد ذلك اليوم فُقِدت وارتفعت!![٢٦٧].

دخول زينب عليها السلام وأهل البيت الكوفة

كان يوم الثاني عشر من المحرم وقد أمر بتزيين المدينة ورفع رايات النصر وخروج أهلها في الشوارع لكي يتفرجوا على حصاد فعلهم المشؤوم من قتل ريحانة رسول رب العالمين وسبي كرائم سيدة نساء العالمين وأسر حجة الله على الخلق أجمعين وقد أوهموا الناس بأنهم فئة ضالة ومن الخوارج، وكان زبانية بني أمية وأتباعهم يدقون الطبول وينفخون في الأبواق ويهنئون بعضهم بعضا معلنين بذلك فرحهم وسرورهم بتلك الانتصارات الزائفة، ولكن هذه المظاهر من الفرح والسرور كانت مشوبة بالحذر والخوف الشديدين، ولهذا أمر بعشرة آلاف فارس لكي يملأوا شوارع وزقاق الكوفة خوفا من الناس حينما يرون أهل البيت من نساء وأطفال وصبية أسرى وسبايا وفي حالة من الجوع والضعف فتحركهم الحمية ويثورون ضد حكومة بني أمية الجائرة.

كانت الكوفة مقرا لخلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وقضت ابنته العقيلة زينب الكبرى عليها السلام ما يقارب الخمس سنوات من عمرها الشريف مع والدها في الكوفة كانت فيها معلِّمة لنساء الكوفة تفسر لهن آيات القرآن الكريم وتبين لهن أحكام الدين القويم، فنالت نساء الكوفة بذلك الشرف العظيم، وكان دارها عليها السلام ملاذا للفقراء والمساكين وملجأ للسائلين والمحرومين.

كانت زينب الكبرى عليها السلام في أيام خلافة أبيها عليه السلام في الكوفة محاطة بهالات العزة والجلال، ولكن اليوم تدخلها أسيرة تُحمل على بعير بلا وطاء ولا غطاء، محاطة بالهموم والآلام قد أثقلت كاهلها المصائب والأحزان، تدخل مدينة مضطربة ومخدوعة بخداع أهل الجور والباطل، تلك المدينة التي بايع أهلها ابن عمها مسلم بن عقيل عليه السلام – سفير الحسين عليه السلام – ثم لم يلبثوا أن نكثوا البيعة فقتلوه، تلك المدينة التي كتب أهلها إلى الإمام الحسين عليه السلام يبايعونه ويستقدمونه إلى الكوفة، واليوم يدخلها ولكن برأس على القنا والجسم مطروح بكربلاء وعياله وأهل بيته سبايا!![٢٦٨]

الحديث هنا كثير ولكننا نقتصر برواية نقلها العلامة المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) ورواها مسلم الجصّاص يبين لنا فيها ما جرى على أهل البيت حين ورودهم الكوفة:

رواية مسلم الجصّاص في كيفية ورود أهل البيت عليهم السلام إلى الكوفة

قال العلامة المجلسي رضي الله عنه في البحار: رأيت في الكتب المعتبرة روى مرسلا عن مسلم الجصاص قال:

دعاني بن زياد لإصلاح دار الإمارة في الكوفة، فبينما أنا أجصص الأبواب وإذا أنا بالزعقات قد ارتفعت من جنبات الكوفة، فأقبلت على خادم كان يعمل معنا فقلت: ما لي أرى الكوفة تضج بأهلها؟! قال: الساعة أتوا برأس خارجي خرج على يزيد، فقلت: من هذا الخارجي؟! فقال: الحسين بن علي عليه السلام.

قال: فتركت الخادم حتى خرج ولطمت على وجهي حتى خشيت على عيني أن تذهبا وغسلت يدي من الجص وخرجت من ظهر القصر وأتيت إلى الكناس، فبينما أنا واقف والناس يتوقعون وصول السبايا والرؤوس إذ قد أقبلت نحو أربعين شقة[٢٦٩] تُحمل على أربعين جملا فيها الحرم والنساء وأولاد فاطمة عليها السلام، وإذا بعلي بن الحسين عليه السلام على بعير بغير وطاء وأوداجه تشخب دما وهو مع ذلك يبكي ويقول:

يا أمَّةَ السُّوءِ لا سُقْيا لِرَبْعِكُمُ
يا أمَّةً لَمْ تُراعي جَدَّنا فينا

لو أنَّنا ورَسولُ اللهِ يجمَعُنا
يومَ القِيامَةِ ما كنتُم تقولونا

تُسَيِّرونا على الأقتابِ عاريةً
كأنَّنا لم نُشَيِّد فيكمُ دينا

تصْفِقونَ علَينا كَفَّكُم فَرَحاً
وأنتم في فجاجِ الأرضِ تَسْبونا

أليس جَدِّي رَسولُ اللهِ وَيلَكُمُ
أهْدَى البَرِيَّةَ مِن سُبُلِ المُضِلّينا

يا وَقْعَةَ الطَّفِّ قدْ أورثتِني حُزناً
واللهُ يهْتِكُ أسْتارَ المُسيئينا

قال: وصار أهل الكوفة يناولون الأطفال الذين على المحامل بعض الخبز والتمر والجوز فصاحت بهن زينب عليها السلام[270]: «يا أهْلَ الكوفةِ، إنَّ الصَّدَقَةَ علينا حَرامٌ!!»[271]

وصارت تأخذ ذلك من أيدي الأطفال وأفواههم وترمي به الأرض.

قال: كل ذلك والناس يبكون على ما أصابهم.

ثم أن زينب عليها السلام أخرجت رأسها من المحمل وقالت: «صَهْ يا أهْلَ الكوفَة، تقْتُلُنا رجالُكُم وتبكينا نِساؤكم!! فالحاكِمُ بيننا وبينكم اللهُ يومَ فَصْلِ القَضاءِ»[272].

هذا العلو في الكلمة تنم عن فطنة زينب عليها السلام في الرد على غدر أهل الكوفة، فهي لم تقع تحت تأثير هذه الفقاقيع الجوفاء من الدموع السطحية الكاذبة، ولم تجعل هذه الدموع وجها للمصالحة مع قطرة طاهرة من دماء الشهداء الأبرار.

كان أهل الغدر والنفاق يتوهمون أن هذه الأحاسيس المزيفة والمشاعر الكاذبة قد تغطي غدرهم ونفاقهم، ولكن العقيلة زينب الكبرى عليها السلام كشفت بوقد ذكائها مكرهم وخداعهم، ووجهت إليهم أشد اللوم والتوبيخ لعلهم يتفكرون.

مجلس عزاء تقيمه زينب عليها السلام في الكوفة

ثم يكمل مسلم الجصاص حديثه ويقول:

فبينما هي تخاطبهن إذا بضجة قد ارتفعت وإذا هم قد أتوا بالرؤوس يقدمهم رأس الحسين عليه السلام وهو رأس زهري قمري أشبه الخلق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولحيته كسواد السبج قد اتصل بها الخضاب ووجهه دائرة قمر طالع والريح تلعب بها يمينا وشمالا، فالتفتت زينب عليها السلام فرأت رأس أخيها فنطحت جبينها بمقدم المحمل حتى رأينا الدم يخرج من تحت قناعها وأومأت إليه بحرقة وجعلت تقول:

يا هِلالاً لَمَّا اسْتَتَمَّ كَمالا
غالَهُ خَسْفُهُ فَأبْدَى غُروبَا

ما تَوَهَّمْتُ يا شَقِيقَ فُؤادِي
كانَ هذا مُقَدَّراً مَكْتُوبا

يا أخي فاطِمُ الصَّغيرَةُ[273] كَلِّمْها
فَقَدْ كادَ قَلْبُها أن يَذوبَا

يا أخي قَلْبُكَ الشَّفيقُ عَلَيْنا
مَا لَهُ قَدْ قَسا وصارَ صَليبا

يـا أخــي لَــوْ تَــرَى عَـلِـيًّـا لَـــدَى الأسْـــرِ
مَـــعَ الـــيُـــتْـــمِ لا يُـــطـــيـــقُ وجـــوبـــا
كُـلَّـمـا أوجَـــعـــوهُ بـــالـــضَّـــرْبِ نـــاداكَ
بـــــذُلٍّ يـــفـــيـــضُ دَمْـــعـــاً سَـــكـــوبـــا
يـــا أخــــي ضُـــمَّـــهُ إلَـــيْـــكَ وقَـــرِّبْـــهُ
وسَـــكِّـــنْ فُـــــؤادَهُ الـــمَـــرْعـــوبـــا
مـــا أَذَلَّ الـــيُـــتْـــمَ حـــيـــن يُـــنـــادي
بـــأبـــيـــهِ ولا يَـــــراه مُـــجـــيـــبـــا[٢٧٤]

تحليل

١ - زينب الكبرى عليها السلام بقراءتها هذه الأبيات في رثاء أخيها الحسين عليه السلام في جموع أهل الكوفة قد أسست أول مجلس عزاء لأخيها سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام، وعلى هذا تمكنت من فضح الظالمين وإفشاء خططهم الشيطانية، وبينت لأهل الكوفة هوية الشهداء التي حاول أعداء الله ورسوله إخفاءها بالمكر والحيلة والخداع.

٢ - أن زينب عليها السلام كما أشارت في الأبيات السابقة أنها كانت تعلم (كما أخبرها جدها وأبيها وأمها عليهم صلوات الله أجمعين) ما سيجري عليها من المصائب والأهوال في كربلاء، ولكنها لم تكن تعلم أن أهل البغي والجور وجلاوزة النظام كانوا من الدناءة والانحطاط وسوء السيرة بأن يأتوا برؤوس الشهداء من أهل بيتها الكرام ويطوفون بها أمام أعين الأطفال والنساء.

٣ - تشير زينب الكبرى عليها السلام في هذه الأبيات عن حال علي بن الحسين السجاد عليه السلام وما لاقاه من التعذيب والإهانة من العتاة الظالمين، وتطلب من أخيها الحسين عليه السلام أن ينظر إلى ولده نظرة رحمة ولطف ويسكن آلامه وأوجاعه.

٤ - وتشير أيضا إلى حال اليتامى والأطفال على الخصوص يتيمة الحسين عليه السلام والتي لم تنفك وهي تنادي: وا أبتاه!!

استطاعت زينب الكبرى عليها السلام من أول وهلة ومن أول كلمة نطقت بها في جموع أهل الكوفة أن تفضح بني أمية وأتباعهم الخونة وتكشف جرائمهم الدنيئة على الملأ، فأبدلت أفراح أهل الكوفة حزنا وعزاء وأخرجتهم من ظلمات الجهل والغفلة وأثارت فيهم الحمية والغيرة على أهل بيت الرسالة وزرعت في نفوسهم بذور الثورة ، وأعلنت للعالم أجمع أنه لابد من الوقوف في وجه الطواغيت الظالمين لإحقاق

الحق وإزهاق الباطل.

وعلى هـذا لم يكن بكاء زينب عليها السلام بكاء مذلة وانكسار بل كان بكاء ثورة ونهضة لتحقيق أهداف الشهداء السامية في إعلاء كلمة الحق وتثبيت الولاية الحقة التي خص الله تبارك وتعالى بها أهل البيت عليهم السلام.

أرادت زينب عليها السلام أن تبدد سحب الظلام والجهل التي أراد بنو أمية أن يخفوا من ورائها نور الحسين عليه السلام الزاهر وضياءه الباهر:

إنْ يقْتُلوك فلا عن فَقْدِ مَعرِفَةٍ
فالشمسُ مَعروفةٌ بالعَينِ والأثرِ
قد كنتَ في مَشرقِ الأرض ومغربِها
كالحَمْدِ لم تُغْنِ عنها سائرُ السُّوَرِ

على هذا عبَّرت السيدة زينب عليها السلام عن الحسين عليه السلام بالهلال الذي لم يستكمل نوره الظاهري فنوره الباطني قد وصل إلى أوج كماله وحد تمامه، هذا النور الإلهي الذي نهض وثار ضد الظلم والبغي أرادوا طمسه وإخفاءه وراء سحب النظام الأموي المظلم بالعار والشنار، فأرادت زينب الكبرى عليها السلام أن تستثير حفائظ الناس حتى لا يستبدلوا النور بالظلمة والقيادة الإلهية بالطاغوت الشيطاني.

فالمفهوم الحقيقي والسر الباطني لبكاء عقيلة بني هاشم زينب الكبرى عليها السلام، ورثائها لسيد الشهداء عليه السلام هو الصرخة الثورية وشعارات الولاية الحقيقية المصحوبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ودوي تلك الصرخة والشعارات سيبقى إلى أبد الدهر يسمعها حزب الرحمن فيحملونها راية ضد حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون.

خطبة زينب عليها السلام في جموع أهل الكوفة

إشارة

كانت نهضة السيدة زينب الكبرى عليها السلام استمرارا لنهضة أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام وذلك لتحقيق المقاصد العليا من تلك الثورة المباركة، فلم تستند زينب الكبرى عليها السلام في نهضتها على البكاء والنحيب وطرح بعض الشعارات، بل جاهدت بكل ثقلها من الشجاعة المحمدية والبلاغة العلوية والفصاحة الفاطمية في محاربة الظلم بالحق والصدق والإيمان واليقين، وقرنت حقائق الشعارات بواقع العمل فتقدمت بخطوات من الجرأة ورباطة جأش تفك بها عقد المواقف المحرجة وتنير بها

العقبات المظلمة.

بدأ أهل الكوفة رجالا ونساء ينتبهون من سباتهم وغفلتهم ففتحوا أعينهم على الجرائم الوحشية والمفجعة التي ارتكبها النظام الفاسد في حق إمام الهدى وعلم التقى وسبط سيد الورى أبي عبدالله الحسين عليه السلام وأهل بيته النجباء الأطهار.

انتبه الغافلون واستبصر الجاهلون فقامت الضجة الكبرى وطغت أحزان أهل البيت عليهم السلام على أفراح بني أمية فأقيمت المآتم وعلت الأصوات بالبكاء والعويل.

يقول حذيم بن شريك الأسدي[٢٧٥]: «ونظَرْتُ إلى زينب بنتِ عَلِيٍّ عليه السَّلامُ يومَئِذٍ ولَمْ أرَ والله خَفِرَةً[٢٧٦] قَطُّ أنْطَقَ منها كأنَّما تَفْرُغُ عن لسانِ أميرِ المُؤمنين عَلِيِّ بن أبي طالب عليه السلام وقد أومَأتْ إلى الناسِ أن اسْكُتوا، فارتَدَّت الأنفاسُ وسَكَنَت الأجْراسُ»!![٢٧٧]. حارت الألباب والعقول فكلّت الألسن عن وصف المنقول، امرأة جار عليها الدهر الخؤون فأخرجها من خدرها المصون، تقف أمام أناس قد غدروا بأبيها وإخوتها وأهل بيتها وتتصدى لأهل الكذب والنفاق وأهل الجفاء الأشقياء بهذه القوة والعظمة والهيبة والوقار وبإشارة منها ترتد الأنفاس وتسكن الأجراس!!

وذلك لا يوجد إلا في آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين آتاهم الله تبارك وتعالى من مخزون علمه ما لا يؤتيه غيرهم وأودع قلوبهم ينابيع الحكمة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

متن خطبة زينب الكبرى عليها السلام في جموع أهل الكوفة

يقول حذيم بن شريك الأسدي ثم قالت - السيدة زينب عليها السلام -[٢٧٨]:

«الحَمْدُ لله والصَّلاةُ علَى أبي محمدٍ وآله الطيبين الأخيار، أما بعد، يا أهْلَ الكوفة يا أهْلَ الخَتْلِ[٢٧٩] والغَدْر[٢٨٠]، أتبْكون!! فلا رَقَأت الدَّمْعَةُ، ولا هَدَأت الرَّنَّة (فلا رَقَأت العَبْرَةُ ولا هَدَأت الزَّفْرَةُ)، إنَّما مَثَلُكم كَمَثَلِ الَّتي نَقَضَت غَزْلَها[٢٨١] مِنْ بعدِ قُوَّةٍ أنكاثاً[٢٨٢]، تتَّخِذون أيْمانَكم دَخَلاً بينكم، ألا وهَلْ فيكم إلا الصَّلَفَ[٢٨٣] النَّطَف[٢٨٤] والصَّدرَ الشَّنَف[٢٨٥] ومَلْقَ الإماء وغَمْزَ الأعداء وكمَرْعى على دِمْنَة[٢٨٦] أو كفِضَّةٍ على مَلْحودةٍ[٢٨٧]، ألا ساءَ ما قَدَّمَت لكم أنفسُكم أنْ سَخِطَ اللهُ عليكم وفي العذابِ أنتم خالِدون، أتبكون وتنْتَحِبون!! إي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهَبْتم بعارِها[٢٨٨] وشَنارِها[٢٨٩] ولن ترْحَضوها بغَسْلٍ بعدَها أبداً وأنَّى ترحَضونَ قَتْلَ سَليلِ النُّبُوَّةِ ومعدِنِ الرِّسالةِ وسَيِّدِ شبابِ أهْلِ الجَنَّةِ ومَلاذِ خِيَرَتِكُم ومَفْزَعِ

نازِلَتِكم ومَنارِ حُجَّتِكم ومِدْرَةِ[٢٩٠] سِنَتِكم[٢٩١]، ألا ساءَ ما تزرون وبُعداً لكم وسُحقاً، فلقد خابَ السَّعْيُ وتبَّت الأيدي وخَسِرَت الصَّفْقَةُ وبُؤتُمْ بغضبٍ مِن الله وضُرِبَت عليكم الذلَّةُ والمَسْكَنةُ، ويْلكم يا أهْلَ الكوفة!! أتدرون أيَّ كَبدٍ لرسولِ الله فَرَيتُم[٢٩٢]!! وأيَّ دَمٍ له سَفكْتُم!! وأيَّ كَريمةٍ له أبْرَزْتُم!! وأيَّ حُرْمَةٍ له انتَهَكْتُم!! ولقد جِئْتُمْ بها صَلْعاءَ[٢٩٣] عَنْقاءَ[٢٩٤] فَقْماءَ[٢٩٥] خَرقاءَ[٢٩٦] شَوهاءَ كَطِلاعِ[٢٩٧] الأرْضِ ومِلْءِ السَّماءِ، أتعجبون إنْ قَطَرَت السَّماءُ دَماً ولَعَذابُ الآخِرةِ أخْزَى وأنتم لا تُنْصَرون، فلا يسْتَخِفَّنَّكم المَهَلُ فإنَّه لا يَحْفِزُهُ البِدارُ ولا يخافُ فَوتَ الثارِ وإنَّ رَبَّكم لَبِالمِرْصادِ»[٢٩٨].

آثار خطبة زينب عليها السلام على أهل الكوفة

كان لخطبة السيدة زينب عليها السلام التأنيبية وقع شديد على قلوب أهل الكوفة، يقول الراوي: فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم ورأيت شيخا واقفا إلى جنبي يبكي وقد اخضلت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي، كهولكم خير الكهول وشبابكم خير شبان ونساؤكم خير نساء ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا يبزى[٢٩٩].

ثم أخذت زينب عليها السلام تؤنب أهل الكوفة على فعلتهم الشنيعة ولسان حالها يقول:

مـاذا تقولون إنْ قال النبيُّ لَكُم ... ماذا فَعَلْتُم وأنْتُم آخِرُ الأمَمِ
بِعِتْرَتي وأهْلِ بَيْتي بَعْدَ مُفْتَقَدي ... مِنْهُم أُسارَى وقَتْلَى ضُرِّجُوا بِدَمِ
ما كانَ ذاكَ جَزائي إذْ نَصَحْتُ لكم ... أنْ تخْلِفوني بسوءٍ في ذوي رَحِمي
إنِّي لأخْشَى عليكم أنْ يَحِلَّ بكم ... مثلُ العَذابِ الذي أودَى على إرَمِ

ثم ولَّت عنهم وقد ضجوا بالبكاء والعويل ودعت النساء بالويل والثبور، يقول الراوي: فلم يُرَ باكية وباكٍ أكثر من ذلك اليوم.

فقال علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام لعمته:

«يا عَمَّة اسْكُتي، ففِي الباقي من الماضي اعتِبار، وأنتِ بحَمْدِ الله عالمةٌ غيرُ

مَعَلَّمَةٍ وفَهِمَةٌ غيرُ مُفَهَّمَةٍ، إنَّ البُكاءَ والحنينَ لا يَرُدَّانِ مَنْ قد أبادَهُ الدَّهْرُ».
فسكتت، ثم نزل عليه السلام وضرب فسطاطه وأنزل نساءه ودخل الفسطاط[٣٠٠].

خطبة أخرى لزينب الكبرى عليها السلام في الكوفة

نسبت خطبة إلى أم كلثوم عليها السلام ويعتقد كثير من المحققين أنها إكمال لخطبة زينب عليها السلام الأولى في الكوفة (كما أشرنا سابقا أن «أم كلثوم» هي كنية لزينب الكبرى عليها السلام، وأختها أم كلثوم الصغرى عليها السلام)، وفيها قالت زينب الكبرى عليها السلام:

«صَهْ يا أهْلَ الكوفَةِ!! تقْتُلُنا رجالُكم وتبكينا نِساؤكم!! فالحاكِمُ بيننا وبينكم اللهُ يومَ فَصْلِ القَضاءِ، يا أهْلَ الكوفةِ سَوْأةٌ لكم، ما لكم خَذَلْتُم حُسيناً وقَتَلتُموه وانْتَهَبْتُم أمْوالَه ووَرِثْتُموه وسَبَيتُم نساءَه ونكَبْتموه، فتبًّا لكم وسُحقاً، ويلكم أتدْرون أيَّ دَواةٍ دَهَتْكُم وأيَّ وِزْرٍ عَلَى ظُهورِكُم حَمَلتُم وأيَّ دِماءٍ سَفَكتُموها وأيَّ كَريمةٍ أصَبتموها وأيَّ صَبِيَّةٍ سَلَبتُموها وأيَّ أمْوالٍ انْتَهَبْتُموها!! قَتَلْتُم خَيرَ الرِّجالات بعدَ النَّبِيِّ ونُزِعَتِ الرَّحْمَةُ من قُلوبِكم، ألا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحون وحِزبَ الشيطانِ هُم الخاسِرون»[٣٠١].

نتيجة

نستفيد من متون الخطب التي ألقتها العقيلة زينب الكبرى عليها السلام في جموع أهل الكوفة مطالب كثيرة من جملتها:

١ - أعلنت للملأ العام أن الادعاءات والإشاعات التي روَّجت بين الناس بأن الحسين عليه السلام وأصحابه قد قتلوا لأنهم كانوا من الخوارج إنما هي ادعاءات مشوهة وأكاذيب باطلة، فعرف الناس حقائق الأمور وأن الحسين عليه السلام وأصحابه إنما قتلوا في سبيل إعلاء كلمة الحق والحفاظ على الشريعة المحمدية.

٢ - الكلمات التأنيبية اللاذعة التي ألقتها السيدة زينب الكبرى عليها السلام في خطبتها على مسامع أهل الكوفة كان لها وقع شديد وأثر عميق في توعية الغافلين وتنوير عقول الجاهلين.

٣ - إبلاغ رسالة الشهداء الأحرار وبيان سمو أهدافهم وعلو مقاصدهم في رفع راية الإسلام وحفظ كيانه والثورة في وجه الطواغيت ولو كان ذلك ببذل الأرواح دونها رخيصة.

٤ - جلاء غشاوة الغفلة عن أعين أهل الكوفة ومعرفة الخطيئة الكبرى التي ارتكبوها في حق

الله وحق رسوله وآل بيته الأطهار، فكانت هذه الاعترافات بالذنب أرضية خصبة للثورة ضد البغاة والطغاة.

٥ – علم أهل الكوفة أن العذاب الإلهي واقع لا محالة على من باع آخرته الأبدية بدنياه الفانية، ومن لم يتب منهم فقد باء بغضب من الله وعذاب شديد.

٦ – عرَّفت زينبعليها السلام أهل الكوفة بأنهم أهل الغدر والنفاق وأصحاب الظاهر الحسن والباطن النتن، وبينت للعالم أجمع أنه يجب على الإنسان الحذر من اتباع المضللين وأهل الحيل والمكر والخداع.

موقف زينبعليها السلام العظيم أمام طاغوت العراق

جلس ابن زياد في قصره الذي امتلأت جوانبه بمظاهر الزينة ومعالم البهجة وأذن للناس إذنا عاما في الدخول عليه، وجيء برأس الحسينعليه السلام المقدس ووضع بين يديه، ثم أدخل آل بيت رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وفي طليعتهم الإمام زين العابدينعليه السلام ودخلت سيدة الطف زينب الكبرىعليها السلام في جملتهم وانحازت إلى جهة من القصر وجلست وهي متنكرة وعليها أرذل ثيابها حتى لا يعرفها أحد وقد حف بها إماؤها وجواريها غير أن هيبتها وجلالها كانت أعظم من أن تتنكر، فخصها عبيدالله بن زياد بالسؤال وقال: من هذه التي انحازت فجلست ناحية ومعها نساؤها؟![٣٠٢] فلم تجبه زينبعليها السلام، فأعاد السؤال ثانية وثالثة، فقالت بعض إمائها: هذه زينب بنت عليعليه السلام!![٣٠٣]

فأقبل عليها ابن زياد وقال لها: الحَمدُ لله الَّذي فَضَحَكم وقَتَلَكم وأكْذبَ أحْدوثتكم.

فقالت زينبعليها السلام: الحَمْدُ لله الَّذي أكْرَمَنا بنبيِّهِ مُحَمَّدٍصلى الله عليه وآله وسلم وطَهَّرَنا من الرِّجْسِ تَطْهيراً إنَّما يُفْتَضَحُ الفاسِقُ ويُكَذَّبُ الفاجِرُ وهو غيرُنا!!

فقال ابن زياد: كيفَ رَأيْت صُنْعَ الله بأخيكِ وأَهْلِ بَيتِكِ؟!

قالت: مَا رَأيتُ إلاَّ جَميلاً، هؤلاءِ قَومٌ كَتَبَ اللهُ عليهِم القَتْلَ فبَرَزوا إلَى مَضاجعِهِم وسيَجْمَعُ اللهُ بينكَ وبينهم فتُحاجَّ وتُخاصَم فانظُر لِمَن يكونُ الفَلَجُ يومئذٍ![٣٠٤]

(قال ابن مخنف في مقتله: ثم قال ابن زياد: كَيفَ رأيتِ صُنْعَ الله بكِ وبأخيكِ إذ أرادَ أنْ يأخُذَ الخلافَةَ من يزيد فخيَّبَ أمَلَه وقَطَعَ رَجاهُ وأمْكَنَنا اللهُ تعالى منه؟! فقالت له العقيلة زينبعليها السلام: وَيلَكَ يا ابْنَ مَرْجانَة، إنْ كانَ أخي طَلَبَ الخِلافَةَ فميراثُه مِنْ أبيه وجَدِّه، وأمَّا أنْتَ فَاسْتَعِدْ جَواباً لنفسِك إذا كانَ القاضي اللهُ والخَصْمُ مُحَمَّد والسِّجْنُ جَهَنَّم!!)

فغضب ابن زياد وكأنه همَّ بها فقال له عمرو بن حريث: إنها امرأة والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها ولا تذم على خطابها.

فرَقَّت زينب عليها السلام وبكت وقالت: «لَعَمْري لقَدْ قَتَلْتَ كَهْلي وقَطَعْتَ فَرْعي واجْتَثَثْتَ أَصْلي، فإنْ كانَ هذا شِفاؤك فقد اشتَفَيت».

فقال ابن زياد: هذه سَجاعَةٌ ولعمري لقد كان أبوها شاعِراً سَجّاعاً.

فقالت: يا ابْنَ زِياد، ما لِلْمَرأةِ والسَّجاعَةِ!! إنَّ لي عنِ السَّجاعةِ لَشُغْلاً، وإنّي لأعْجَبُ مِمَّن يشْتَفي بقَتْلِ أئِمَّتِهِ وهو يعْلَمُ أنَّهم مُنتقِمون منه في آخرته!![٣٠٥]

ونقل السيد المقرم: لقد أفصحت زينب بنت علي عليها السلام وهي أسنُّ من حُمل إلى ابن زياد وأبلغت وأخذت من الحجة حاجتها.

فقال لها ابن زياد: إن تكوني بلغت من الحجة حاجتك فقد كان أبوك خطيبا شاعرا.

فقالت: ما للنساءِ والشِّعْر!![٣٠٦].

لما جرى بين الخبيث وبين زينب عليها السلام من الكلام، غار علي بن الحسين عليه السلام على عمته فصاح: يا ابْنَ زياد، إلى كَم تُهْتَكُ عَمَّتي بين مَنْ يعرفُها ومَنْ لا يعرفُها!![٣٠٧]

ثم التفت ابن زياد إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال: من أنت؟!

قال: أنا عليُّ بْنُ الحسين عليه السلام!!

فقال ابن زياد: أليس الله قد قتل علي بن الحسين؟!

فقال عليه السلام: قد كانَ لي أخٌ أكبرُ مني يسَمَّى عليًّا، قتَلَه الناسُ بأسْيافِهم.

فقال ابن زياد: بل الله قتله.

فقال علي بن الحسين عليه السلام: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾!![٣٠٨]

فقال له ابن زياد: أولك جرأة على جوابي وبقية للرد علي!!

فأمر غلمانه أن يضربوا عنقه، فأتته الجلاوزة فتعلقت به زينب عليها السلام وقالت: يَا ابْنَ زياد حَسْبُكَ مِن دِمائِنا، إنَّكَ لم تُبْقِ منَّا أحَداً، فإنْ كنتَ عَزَمْتَ على قتلِه فاقتلْني مَعَه!!

واعتنقته زينب عليها السلام وقالت: والله لا أفارقُهُ فإنْ قَتَلْتَه فاقْتُلني مَعَه.

فنظر ابن زياد إليها وإليه ساعة ثم قال: عجبا للرحم والله لأظنها ودّت أني أقتلها معه، دعوه فإني أراه لما به مشغولا[٣٠٩].

فقال علي بن الحسين عليه السلام لعمته: اسْكُتي يا عَمَّة حتى أكَلِّمَه.

ثم أقبل عليه وقال عليه السلام: أبالقَتْلِ تهَدِّدُني، أما عَلِمْتَ أنَّ القَتْلَ لنا عادَة وكرامَتَنا الشَّهادَة!! ثم

أمر ابن زياد بعلي بن الحسين عليه السلام ومن معه من الأسارى فحملوا إلى دار جنب المسجد الأعظم[٣١٠].

على هذا وقفت زينب الكبرى عليها السلام بشموخها وهيبتها التي ورثتها من جدها وأبيها وأمها وأخويها أمام طاغية العراق، وأرغمت أنفه في تراب المهانة والذلة، وبشجاعتها المعهودة دافعت عن حجة الله على خلقه أجمعين زين العابدين عليه أفضل صلوات المصلين.

ومن فوادح الأمور التي تعرضت لها زينب الكبرى عليها السلام حينما رأت ابن زياد قد وضع رأس أبي عبدالله الحسين المقدس بين يديه في طشت وجعل اللعين ينظر إليه ويتبسم ويستهزئ وهو ينكت بقضيبه موضعا طالما قبَّله رسول الله صلى الله عليه وآله وهو فمه الشريف وثغره المبارك ويقول: يا حسين، لقد كنت حسن المضحك!!

رأت العقيلة زينب عليها السلام كل ذلك وصبرت لله فلم تهزها هذه المشاهد المؤلمة والمناظر المفجعة ولم تثبطها عن الاستمرار في خطها ومنهجها التي قُدِّر لها.

زينب عليها السلام في سجن الكوفة

بعث عبيد الله بن زياد رسولا إلى يزيد بن معاوية يخبره بقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته وسبي بناته وأخواته وصبيته وينتظر أمره فيهم.

ولما كان البريد بين الكوفة والشام يستغرق اثني عشر يوما ذهابا وإيابا أمر ابن زياد بسجن الإمام السجاد عليه السلام والسيدة زينب عليها السلام ومن معهم في سجن في الكوفة وأمر بالتضييق عليهم حتى قيل أنه كتب رقعة ربط فيها حجرا ورماه في السجن المحبوس فيه آل محمد صلى الله عليه وآله وفيها: «خرج البريد إلى يزيد بأمركم في يوم كذا ويعود في كذا، فإذا سمعتم التكبير فأوصوا وإلا فهو الأمان»[٣١١].

لما وصل كتاب ابن زياد إلى يزيد بن معاوية ووقف عليه أعاد الجواب إليه يأمره فيه بحمل رأس الحسين عليه السلام ورؤوس من قُتل معه وحمل أثقاله ونسائه وعياله إلى الشام[٣١٢].

نعم هذا هو شأن الدهر الخؤون مع أولياء الله وأحبائه، إذ كانت زينب الكبرى عليها السلام ولخمس سنوات مباركات ملكة العالم الإسلامي في الكوفة إلى جنب أبيها العظيم سيد الوصيين وإمام المتقين علي عليه السلام محاطة بهالات القدسية والعظمة، واليوم تدخل على ابن زياد أسيرة ثم تسجن في ناحية من الكوفة وغدا تُسيَّر إلى يزيد ابن معاوية!!

مكثت زينب عليها السلام والإمام السجاد عليه السلام وباقي الأسارى في سجن جنب مسجد الكوفة الأعظم لمدة اثني عشر يوما، ولما لم ترغب العقيلة زينب عليها السلام بدخول النساء والأجانب على أهل بيت العصمة والطهارة حتى لا تنال أهلها الكرام أية إهانة أو شماتة قالت بصريح القول: «لا يدْخُلَنَّ عَلينا

اليـومَ عربِـيـَّـةٌ إلاَّ أمُّ وَلَـدٍ أو مَـمْـلـوكَـةٌ فـإنَّـهُـنَّ سُـبـيـنَ كمـا سُـبـيـنـا»!![٣١٣]

يقـول المرحـوم العلاّمـة الجزائري: أمر ابـن زياد أن يحمل أهـل البيت عليهم السلام إلى خربة جنب مسـجد الكوفـة الأعظـم، والبعـض يقول أنه أمر بسـجنهم والتضييق عليهـم، ثم يعقّب العلاّمـة ويقول: إذا كان ابـن زيـاد قد أمر بحملهم إلى الخربة بجنب المسـجد الأعظم فهذا ليس أقل اسـتخفافا بمقام أهل البيت عليهم السلام من السـجن، فمن ناحية أن قربهم من المسـجد كان يسـهل على المأمورين مراقبتهم وبالتالي قطع الاتصال بينهم وبين الناس، ومن ناحية أخرى أن ابن زياد حينما يتجه إلى المسـجد لصلاة الجماعة يتباهى بقدرته وسطوته وبطشه وبهذا الاعتقاد يحاول أن يضعف من معنويات أهل البيت عليهم السلام[٣١٤].

زينب عليها السلام في طريقها إلى الشام

امتثـل ابن زيـاد لأمر مولاه يزيد بن معاوية، فأمر بنسـاء الحسـين عليه السلام وصبيانه فجهـزوا وأمر بعلي بن الحسـين عليه السلام فغل بغل في عنقه، واختار من أصحابه أربعة وهم شـبث بن ربعي وزجر بن قيس (أو زحر بن قيس) ومخفر بن ثعلبة العايذي وشـمر بن ذي الجوشـن، وأرسـل معهم جماعة ممن ارتضاهم وكان عددهم يقارب الألف والخمسين فارسا (حسب قول أبي مخنف في مقتله)، فسلم إليهم الرؤوس والسبايا والأسرى من أهل البيت عليهم السلام وساروا بهم إلى دمشق شام الشؤم كما يسار سبايا الكفار تصهرهم الشمس ويتصفح وجوههم أهل الأقطار[٣١٥].

عظمت المصيبة على أهل البيت عليهم السلام واشتدت بهم الآلام والأحزان، فلقد كان المسير من الكوفة إلى الشـام مسـير شـهر للإبل ذوات القوة والصبر، ولكن غلاظ القلوب وضعاف النفوس أرهقوا قوتها وصبرها فحملوا عليها فقطعت المسافة في ما يقارب العشرة أيام!![٣١٦]

وأمـا زينـب الكـبرى عليها السلام فعلاوة عـلى ما لاقته من ظلـم وتعذيب من تلـك العصابـة الباغية، وما كانـت تشـعر به مـن التعب والإرهاق، إلا أنهـا كانت على الـدوام تتفقد الأطفال والنسـاء، حتى قيل أن سـكينة بنت الحسـين عليه السلام حينما رفعت صوتها بالبكاء على أبيها وقد تعبت وأعيت من طول السـفر والمسير في الطريق، حذرها الظالم شمر بن ذي الجوشن من البكاء ولكنها لم تملك نفسها أن تسكت عن البكاء فجذبها ورمى بها في الصحراء ومضى يتابع سـيره وكان الوقت ليلا، فجعلت تسرع وراء الإبل وتستغيث، فلما سمعت زينب عليها السلام صراخها واستغاثتها ألقت بنفسها عن ظهر راحلتها تبحث عن ابنة أخيها، فوقف الركب قليلا حتى جاءت بها العقيلة وأركبتها معها[٣١٧].

وذُكرت رواية في كتاب مصباح الحرمين أنه حينما رمى بسكينة على الأرض جعلت تمشي حافية في سـواد الليل تقوم تارة وتقعد تارة تسـتغيث بالله وبأبيها وتارة تنادي: عمتاه!! ولما لم تر أثرا من القافلة

خرت مغشية، فعند ذلك اقتلع الرمح الذي كان عليه رأس الحسين عليه السلام من يد حامله وانشقت الأرض ونـزل الرمـح في الأرض إلى نصفـه وثبت فيها كالمسـمار في الحائـط، وكلما اجتهد الحامـل أن يقلعها لم يتمكن، واجتمع خلق كثير وكلما اجتهدوا لم يستطيعوا، فأخبروا بذلك عمر بن سعد فقال اسألوا علي بن الحسـين عن ذلـك، وراجَعوا إليه، فلما سـألوا الإمام قال عليه السلام: قولوا لعمتي زينـب تتفقد الأطفال، فلربـما قد ضاع منهم طفل!! فلما قيل لزينب عليها السلام جعلت تتفقد الأطفال وتنادي بأسـمائهم، فلما نادت: بنيـة سـكينة، فلم تجبها!! فرمت زينب عليها السلام بنفسـها من عـلى ظهر الناقة وجعلت تنـادي: وا غربتاه، وا ضيعتاه، وا رجالاه، وا حسيناه!! بنية سكينة في أي أرض طرحوك وفي أي وادٍ ضيعوك!! فرجعت إلى وراء القافلة وهي تعدو في البراري حافية والشـوك يدخل في رجليها وتصرخ وتنادي، وإذا بسـواد قد ظهر، فمشت نحوه لتسأله فإذا هي امرأة جالسة وفي حجرها رأس اليتيمة وهي تبكي!!

فقالت الحوراء زينب عليها السلام: يا هذي!! من أنت التي تنعطفين على اليتامى؟!

قالت: بنية زينب!! أنا أمك الزهراء!! أظننت أني أغفل عن أيتام ولدي!![٣١٨]

مرور زينب عليها السلام وأهل البيت على منازل بين الكوفة والشام

مر موكب السـبايا والأسرى على ما يقارب الخمسـة عشر منزلا بين الكوفة والشـام، وهذه المنازل هي كالتالي:

١ - تكريـت ٢- الموصـل ٣- حـرّان ٤- دعـوات ٥- قُنسَـرين ٦- سَـيبور ٧- حِمْص ٨- بعلبك ٩- قصر بني مقاتل ١٠- حماه ١١- حلَب ١٢- نصيبين ١٣- عسقلان ١٤- دير قسيسين ١٥- دير راهب[٣١٩].

كان أغلـب أهل هـذه المنازل من أعداء أهل البيت عليهم السلام وأتباع يزيد بن معاوية، فقد زينوا الشـوارع والطرقـات بأنـواع الزينـة وعمت مظاهر الفـرح واللهو فيها،وكانـوا ينادون: هـذا رأس الخارجي!! فكانـت زينب عليها السلام تسـمع ذلـك كله فتزداد همّاً وكربـاً. ولمزيد من التفاصيل نتطـرق إلى بعض المواقف المؤلمة التي مرت بها العقيلة زينب عليها السلام حين مرورها على هذه المنازل:

١ - عن الشـيخ المفيد رحمه الله قال: لما رحلوا بالسـبايا والرؤوس إلى دمشق وعدل بهم الطريق إلى قصر بني مقاتل، وكان ذلك اليوم يوما شديد الحر وكانت القربة التي معهم مزقت وأريق ماؤها فاشتد بهم العطش، وأمر ابن سعد عدة من قومه في طلب الماء وأمر بفسطاط فجلس هو وأصحابه ورموا بالسبايا والأطفال على وجه الأرض تصهرهم الشمس، فأتت زينب عليها السلام إلى ظل جمل هناك وفي حضنها علي بن الحسـين عليه السلام وقد أشرف على الهلاك من شـدة العطش وبيدها مروحة تروحه بهـا من الحر وهي تقول:

«يعُزُّ عَلَيَّ أنْ أراكَ بهذا الحالِ يا ابْنَ أخي»!![٣٢٠]

٢ – عن ياقوت الحموي في معجم البلدان أن في قرب حلب جبلا اسمه جوشن وفي قبلة الجبل مشهد يسمى بمشهد السِقْط لأنه لما عبروا بسبي الحسين عليه السلام ونسائه كانت زوجة الحسين عليه السلام حاملا بولد اسمه محسن، وأسقطت هناك[٣٢١].

وكانت زينب عليها السلام وهي المتكفلة باليتامى والثكالى ناظرة لهذا المشهد المؤلم.

٣ – قال أبو مخنف في مقتله: ثم إنهم نزلوا نصيبين وشهروا السبايا والرؤوس، فلما رأت زينب عليها السلام إلى ذلك الحال الشنيع وازدحام الناس على الركب للفرجة قالت:

أتُشْهِرونا في البَرِيَّةِ عَنْوَةً
ووالِدُنا أوحَى إليهِ جَليلُ

كَفَرْتُم بِرَبِّ العَرْشِ ثُمَّ نبيِّه
كَأنْ لَمْ يَجِئْكُم في الزمانِ رَسولُ

لَحُكْمُ إلَهِ العَرْشِ يا شَرَّ أمَّةٍ
لَكُمْ في لَظَى يَومَ المَعادِ عَويلُ[٣٢٢]

٤ – وساروا بالسبايا والأسارى إلى أن وصلوا إلى مدينة عسقلان وأميره يعقوب العسقلاني وكان في حرب الحسين عليه السلام، فلما وصل العسكر مع الرأس والنساء أمر أن يزينوا البلد ويضربوا الطنبور والعود، فلما أدخلوا الرأس والنساء كان هناك رجل غريب عن البلد اسمه زرير الخزاعي وكان واقفا فسأل الناس عن سبب الفرح والسرور فقالوا (ما مضمونه) أن هناك رجل خارجي يدَّعي الخلافة خرج على يزيد فقُتل وأصحابه، ولما سأل عنه قالوا هو الحسين أبوه أمير المؤمنين علي وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!! فلما سمع زرير ذلك اسودت الدنيا في عينيه وضاقت الأرض عليه، فجاء قريبا من السبايا وهو يبكي فقال للإمام زين العابدين عليه السلام: يا سيدي هل لك حاجة فإني لك بشرط الخدمة!! فقال عليه السلام: قل للذي هو حامل رأس الحسين عليه السلام أن يتقدم على النساء لتشتغل النظارة بالرأس عن النظر إلى النساء. فمضى إلى حامل الرأس وأعطاه خمسين مثقالا من الذهب والفضة حتى اعتزل وتقدم به فاستراحت النساء من مدِّ النظر إليهن[٣٢٣].

٥ – كان لتلاوة رأس الحسين عليه السلام المطهر آيات من القرآن الكريم وهو مرفوع على القنا في منزل «حرَّان» وخُطب زينب الكبرى عليها السلام الأثر البالغ في إسلام رجل يهودي من تلك البلدة واسمه يحيى، هذاالرجل الذي حركت ضميره ووجدانه مظلومية أهل البيت عليهم السلام، فثار ضد عسكر الظالمين وشد عليهم بسيفه فقتل منهم خمسة، ثم تكاثروا عليه فقتلوه، وله مزار باسم «مقبرة يحيى الشهيد» عند باب

«حران»، يزوره شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله[٣٢٤].

٦ - قال أبو مخنف: لما نزلوا القادسية[٣٢٥] أنشأت زينب عليها السلام:

مـاتـتْ رجـالـي وأفْـنـى الـدَّهْـرُ ساداتـي
وزادَنـي حَـسَـراتٍ بَـعْـدَ لَـوعـاتِ

صـالـوا الـلِّـئـامُ عَـلَـيـنـا بَـعْـدَمـا عَـلِـمـوا
إنَّـا بَـنـاتُ رَسـولٍ بـالـهُـدى آتِـي

يُـسَـيِّـرونـا عَـلَـى الأقْـتـابِ عَـارِيـةً
كـأنَّـنـا بَـيـنـهُـمْ بَـعْـضُ الـغَـنِـيـمـاتِ

يَـعْـزُزْ عـلـيـكَ رَسـول الـلـهِ مـا صَـنَـعـوا
بـأهْـلِ بَـيْـتِـكَ يـا خـيـرَ الـبَـرِيَّـات

كَـفَـرْتُـمْ بـرَسـولِ الـلـهِ وَيْـلَـكُـمُ
أهْـداكُـمْ مِـنْ سُـلـوكٍ فـي الـضَّـلالاتِ[٣٢٦]

كشفت السيدة زينب عليها السلام بهذه الأبيات بعض المطالب من جملتها:

١ - إعرابها عن أليم المصاب الذي أصابها وأهل البيت عليهم السلام إثر الفاجعة الكبرى التي حلت بسبط الرسول الأعظم وعياله وأصحابه.

٢ - تحميل كل من شارك في قتل الحسين عليه السلام وأصحابه المسؤولية في أعمالهم الوحشية واللاإنسانية، ووصفتهم بأرذل الصفات وأحقرها.

٣ - كشف النقاب عن الجريمة النكراء التي ارتكبها الظالمون في حق بنات الرسالة ومخدرات النبوة، إذ حملوهن على ما كُنَّ فيه من ضعف ووهن على أقتاب عارية بلا وطاء ولا غطاء.

٤ - بيان أن الحرمة التي انتهكوها واعتدوا عليها إنما هي حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله والمقتول هو سبط الرسول الأعظم وسيد شباب أهل الجنة، وعلى هذا المقياس فالاعتداء كان على ذات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أليس هو القائل: «حُسَينٌ مِنِّي وأنا مِنْ حُسَين»!! فبئسما خلفوه في عترته الطاهرة من بعده.

٥ - وصف جريمتهم بالكفر برسول الله صلى الله عليه وآله والذي يستوجب مقت الله وغضبه وعذابه وسخطه.

ويجدر بالذكر أن بعض المنازل والبلاد التي مر عليها سبايا أهل البيت عليهم السلام، كالموصل وسيبور

وقنسرين وحماة وحمص كان أهلها من محبي آل البيت عليهم السلام، فرفضوا استقبال عسكر يزيد وأغلقوا الأبواب وجعلوا يلعنون القوم ويرمونهم بالحجارة بل قاتلوهم قتالا شديدا.

على سبيل المثال لما مرت السيدة زينب عليها السلام (أم كلثوم الكبرى) ومن معها على بلدة حماة وعرفت أن أهلها أغلقوا الأبواب في وجوه القوم ومنعوهم من دخول البلدة احتجاجا على فعلتهم النكراء، سألت عن اسم البلدة فقالوا لها تسمى «حماة» فقالت: «حَمَاهَا اللهُ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ»[٣٢٧].

زينب الكبرى عليها السلام في الشام - مركز السلطة الأموية

في اليوم الأول من صفر عام ٦١ للهجرة أقبلوا برأس الحسين عليه السلام والأسرى والسبايا من أهل البيت عليهم السلام إلى دمشق الشام وأوقفوهم على باب «الساعات» لثلاث ساعات تنكيلا بهم وإذلالا لهم وقد خرج الناس بالدفوف والبوقات وزينوا المدينة بشتى أشكال الزينة ورفعوا الرايات وهم في فرح وسرور[٣٢٨] بهذا الفتح العظيم.

وللشام فضائع كثيرة ومحن لا حصر لها حتى رُوِي أنه حينما سئل الإمام السجاد عليه السلام عن أشد مصيبة أصابتهم في الأسر قال عليه السلام: «الشام!! الشام!! الشام!!»[٣٣٠].

روي عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال لنعمان بن منذر المدائني: «أصابتنا في الشام سبعة مصائب لم نصب بمثلها من بدء أسرنا إلى نهايته» ثم بيَّن له تلك المصائب نوردها ملخصا:

١ - أحاط بنا جلاوزة يزيد شاهرين سيوفهم في وجوهنا وساقونا بكعوب رماحهم وأوقفونا على باب الشام ساعات طوال والناس حولنا يضربون بالدفوف وهم في بهجة وسرور.

٢ - خلت قلوبهم من الرحمة بأن حملوا الرؤوس على الرماح في أوساط المحامل أمام أعين عماتي زينب وأم كلثوم بغيا منهم وكفرا.

٣ - كانت نساء الشام تصب علينا من فوق السطوح الماء الحار وترمينا بالنار حتى احترقت عمامتي واحترق رأسي.

٤ - كانوا يسيرون بنا من طلوع الشمس إلى غروبها في الأسواق ليتفرج علينا أهل الشام ويقولون: اقتلوا هؤلاء القوم الذين لم يحفظوا للإسلام حرمة!!

٥ - أوثقونا بالحبال وساروا بنا إلى جنب بيوت اليهود والنصارى وهم يقولون: هؤلاء أبناء الذين قتلوا آباءكم (يوم خيبر وغزوة الخندق)، فثار اليهود والنصارى علينا ورمونا بالعصي والأحجار ونثروا علينا التراب.

٦ - أخذونا إلى سوق النخاسين ليبيعونا بيع الإماء والعبيد ولكن الله حال بينهم وبين ما كانوا يبتغون.

٧ - أمر بنا يزيد إلى محبس لا يكننا من حر ولا برد ليس له سقف والشمس تصهرنا ولا نرى الهواء حتى تقشرت وجوهنا ونساؤنا لم تشبع بطونهن ولم تكسَ رؤوسهن!![٣٣١]

لقد كان للتعتيم الإعلامي الأموي الأثر البالغ في قلوب الناس وعقولهم، فقد ورد أنه لما أوقفوا السبي على درج المسجد الجامع جاء شيخ ودنا من نساء الحسينعليه السلام وعياله وقال: الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وأراح البلاد من رجالكم وأمكن أمير المؤمنين منكم!!

هنا علم الإمامعليه السلام بطهارة نفس هذا الشيخ وصفاء سريرته فأراد أن يرشده إلى سواء السبيل فقال الإمام علي بن الحسينعليه السلام: يا شيخ هل قرأت القرآن؟!

قال: نعم.

فقالعليه السلام: هل عرفت هذه الآية: «قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»؟!

قال الشيخ: قد قرأت.

قالعليه السلام: نحن القربى يا شيخ!! هل قرأت: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى»؟!

قال: نعم.

قالعليه السلام: نحن القربى يا شيخ!! هل قرأت هذه الآية: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»؟!

قال: قد قرأت.

قال الإمامعليه السلام: نحن أهل البيت الذين خصصنا بآية التطهير يا شيخ!!

فبقي الشيخ ساكتا نادما على ما تكلم به وقال: بالله إنكم هم؟!!

فقال عليعليه السلام: تالله إنا لنحن هم من غير شك، وحق جدنا رسول الله إنا لنحن هم.

فبكى الشيخ ورمى عمامته ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك من عدو آل محمدصلى الله عليه وآله من الجن والإنس.

ثم قال: هل لي من توبة؟! قالعليه السلام: نعم، إن تبت تاب الله عليك وأنت معنا، قال: أنا تائب.

فبلغ يزيد بن معاوية حديث الشيخ فأمر بقتله[٣٣٢].

متن خطبة زينب الكبرى عليها السلام في مجلس يزيد

«الحَمْـدُ لله رَبِّ العالمَين، وصَلَّى اللهُ عَلَى رَسـولِـهِ وآلِهِ أجْمعيـن»[٣٤٩]، صَدَقَ اللهُ سُبحانَه كذلك يقـولُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّـهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٣٥٠]، أظَنَنْتَ يا يـزيد حيثُ أخَذْتَ علينا أقْطارَ الأرضِ وآفاقَ السَّماءِ فأصْبَحْنا نُساقُ كما تُساقُ الأسارَى أنَّ بنا علَى اللهِ هَواناً وبكَ عليه كرامَةً وأنَّ ذلك لِعِظَمِ خطَرِكَ عندَه فشَمِخْتَ بأنفِكَ ونَظَرْتَ في عِطفِكَ جَذلانَ مسْروراً حيثُ رأيتَ الدنيا لك مُستوثقَة والأمورَ مُتَّسِقَة وحين صَفا لكَ مُلْكُنا وسُلْطانُنا؟! فمَهْلاً مَهْلاً، أنَسيتَ قَولَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾؟![٣٥١]، أمِنَ العَدْلِ يا ابْنَ الطُّلَقاءِ تَخْديرُكَ حَرائِرَكَ وإماءَكَ وسَوقُكَ بَناتِ رَسولِ اللهِ سَبايا قد هَتَكْتَ سُتورَهُنَّ وأبْدَيْتَ وجوهَهُنَّ، تَحْدو[٣٥٢] بهِنَّ الأعْداءُ مِن بلَدٍ إلى بلَدٍ، ويسْتَشْرِفُهُنَّ[٣٥٣] أهْلُ المَناهِلِ والمَناقِلِ[٣٥٤] ويتَصَفَّحُ وجوهَهُنَّ القَريبُ والبعيدُ والدَّنيُّ والشَّريفُ، ليس مَعَهُنَّ مِن رجالِهِنَّ وَليٌّ ولا مِن حُماتِهِنَّ حَمِيٌّ، وكيف تُرْتَجَى مُراقبةُ مَن لَفَظَ فوهُ أكْبادَ الأزكياءِ ونَبَتَ لَحْمُه مِن دِماءِ الشهداءِ، وكيفَ يُسْتَبْطَأُ في بُغْضِنا أهْلِ البيتِ مَن نظرَ إلينا بالشَّنَفِ والشنآنِ والإحَنِ[٣٥٥] والأضْغانِ ثمَّ تقولُ غيرَ مُتأثِّمٍ ولا مُسْتَعْظِمٍ:

لأهَلُّوا واسْتَهَلُّوا فَرَحاً
ثمَّ قالوا يا يَزيدُ لا تُشَلْ

مُنتحياً على ثنايا أبي عبدالله سَيِّدِ شبابِ أهْلِ الجنَّة تنكُتُها بمخْصَرَتِكَ، وكيف لا تقولُ ذلك وقد نَكَأْتَ[٣٥٦] القُرْحَةَ واسْتأصَلْتَ الشَّأفَة[٣٥٧] بإراقتِكَ دِماءِ ذريَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ ونُجومِ الأرْضِ من آلِ عبدالمطلب، وتهْتِفُ بأشْياخِكَ زَعمْتَ أنَّكَ تناديهم، فلَتَرِدَنَّ وَشيكاً مَورِدَهم ولَتَوَدَّنَّ أنَّكَ شُلِلْتَ وبُكِمْتَ ولم تكُنْ قُلتَ ما قُلتَ وفَعَلْتَ ما فَعَلْتَ.

اللَّهُمَّ خُذْ لنا بحقِّنا وانْتَقِمْ مِمَّن ظَلَمَنا واحْلُلْ غَضَبَكَ بمَنْ سَفَكَ دِماءَنا وقَتَلَ حُماتَنا.

فوالله ما فَرَيْتَ إلاَّ جِلْدَكَ، وما حَزَزْتَ إلاَّ لَحْمَكَ ولَتَرِدَنَّ عَلَى رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَآلِهِ بما تحَمَّلْتَ مِنْ سَفْكِ دِماءِ ذرِّيَّتِهِ وانْتَهَكْتَ مِن حُرْمَتِهِ في عِتْرَتِهِ ولُحْمَتِهِ حيث يجْمَع اللهُ شمْلَهم ويُلِمُّ شَعَثَهم ويأخُذُ لهم بحقِّهم: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٣٥٨].

وحَسْبُكَ بالله حاكِماً وبمحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ خَصيماً وبجَبْرَئيلَ ظَهيراً، وسَيَعْلَمُ مَن سَوَّلَ لكَ ومَكَّنَكَ مِنْ رِقابِ المُسْلِمينَ، ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[٣٥٩]، وأيُّكم ﴿شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾[٣٦٠]، ولَئِنْ جَرَت عَلَيَّ الدَّواهي مُخاطَبَتَكَ إنِّي لأسْتَصْغِرُ قَدْرَكَ وأسْتَعْظِمُ تَقْريعَكَ وأسْتَكْثِرُ تَوْبيخَكَ، لكن العيونُ عَبْرَى والصُّدورُ حَرَّى.

ألا فالعَجَبُ كلُّ العَجَب لِقَتْلِ حِزْبِ الله النجَباءِ بحِزْبِ الشَّيْطانِ الطُّلَقاء، فهذِه الأيْدِي تَنْطِفُ[٣٦١] مِنْ دِمائِنا والأفْواهُ تَتَحَلَّبُ مِنْ لُحومِنا، وتلْكَ الجُثَث الطَّواهِرُ الزَّواكي تَنْتابُها العَواسِلُ[٣٦٢] وتُعَفِّرُها أمَّهاتُ الفَراعِلِ[٣٦٣]، ولَئِنْ اتَّخَذْتنا مَغْنَماً لَتَجِدَنَّا وَشيكاً مَغْرَماً حين لا تجِدُ إلاَّ ما قَدَّمْتَ، وما ربُّكَ بظلاّمٍ للعبيدِ، فإلى الله المُشْتكَى وعَلَيْهِ المُعَوَّلُ.

فكِدْ كَيْدَكَ واسْعَ سَعْيَكَ وناصِبْ جُهْدَكَ، والله لا تمْحو ذِكْرَنا ولا تُميتُ وَحْيَنا ولا تُدْرِكُ أمَدَنا، ولا يرْحَضُ عنكَ عارُها، وهَلْ رَأْيُكَ إلاّ فَنَدٌ[٣٦٤] وأيَّامُكَ إلاّ عَدَدٌ وجَمْعُكَ إلاّ بَدَدٌ، يَومَ يُنادي المُنادي: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٣٦٥].

«فالحَمْدُ لله الَّذي خَتَمَ لأوَّلِنا بالسَّعادَةِ والمَغْفِرَةِ ولآخِرِنا بالشَّهادَةِ والرَّحْمَةِ، ونسألُ اللهَ أنْ يُكْمِلَ لهم الثوابَ ويوجِبَ لهم المزيدَ ويُحْسِنَ علينا الخِلافَةَ إنَّه رحيمٌ ودودٌ وحَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ»[٣٦٦].

زينب الكبرى عليها السلام وأهل البيت في خربة الشام

قال الصدوق في الأمالي: ثم أن يزيد أمر بنساء الحسين عليه السلام فحبسن مع علي بن الحسين عليه السلام في محبس لا يكنُّهم من حرٍّ ولا قرٍّ حتى تقشرت وجوههم[٣٦٩].

وقال السيد ابن طاووس في اللهوف: ثم أمر بهم يزيد إلى منزل لا يكنهم من حر ولا برد فأقاموا به حتى تقشرت وجوههم وكانوا مدة إقامتهم ينوحون على الحسين عليه السلام[٣٧٠].

وفي بعض الأيام خرج السجاد عليه السلام من الخربة يتروَّح، فلقيه المنهال بن عمرو وقال له: كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟! قال عليه السلام: «أمْسَينا كمَثَلِ بَني إسْرائيلَ في آلِ فِرْعَون يُذَبِّحونَ أبْناءَهُم ويسْتَحْيونَ نِساءَهُم، أمْسَت العربُ تفتخِرُ على العَجَمِ بأنَّ محمَّداً منها، وأمْسَت قُريشٌ تفتخِرُ على سائرِ العَرَبِ بأنَّ محمَّداً منها، وأمْسَينا مَعْشَرُ أهْلِ بيتِهِ مَقْتولينَ مُشَرَّدين، فإنَّا لله وإنَّا إليهِ راجعون»[٣٧١].

ثم قال عليه السلام: «يا مِنْهال، الحَبْسُ الذي نحنَ فيه ليس لَهُ سَقْفٌ والشَّمْسُ تصْهَرُنا ولا نَرى الهَواءَ فأفِرُّ منه سُوَيعَةً لضَعْفِ بَدَني وأرْجِعُ إلى عَمَّاتي وأخواتي خَشْيَةً علَى النِّساء»[٣٧٢].

قال المنهال: وبينما يكلمني إذ امرأة خرجت خلفه تقول له: «إلى أينَ يا نِعْمَ الخَلَف؟!»، فتركني وأسرع إليها، فسألت عنها قيل: هذه عمته زينب[٣٧٣].

نعم، كانت السيدة زينب عليها السلام تهتم بالإمام زين العابدين عليه السلام أشد الاهتمام وترعاه ببصرها ولا تغفل عنه لحظة واحدة.

وأما قول زينب عليها السلام في السجاد عليه السلام: «يا نِعْمَ الخَلَف» تريد بذلك ترسيخ مفهوم الإمامة والولاية والمحافظة على هذا المقام الرفيع.

زينب عليها السلام ومصيبة رقية بنت الحسين عليه السلام في الخربة

ورد في كتاب (بحر المصائب - المجلد الثاني): حينما أرسل ابن زياد السبايا من آل الرسول صلى الله عليه وآله إلى الشام، أمر يزيد أن يوقفوا أهل البيت عليهم السلام على باب الشام[٣٧٤] حتى يتم تزيين البلد بأنواع الزينة.

يقول حارث الشامي وهو أحد حرسة يزيد: في الليلة الأولى من دخول أهل البيت عليهم السلام خربة الشام وبينما كان الحرسة نيام رأيت طفلة صغيرة من أسارى كربلاء تنظر يمينا وشمالا، ولما رأت عسكر يزيد نيام وقد أنهكهم تعب الطريق وكان رأس الحسين عليه السلام معلقا على فرع شجرة، تقدمت الطفلة إلى الرأس وكانت تقدم خطوة وتؤخر أخرى إلى أن جاءت ووقفت تحت تلك الشجرة، فأخذت تكلم أباها وهي تبكي، وفجأة رأيت الرأس قد هبط من علو الشجرة إلى أن استقر أمام الطفلة، فجعلت الطفلة - واسمها رقية - تقول:

«السَّلام عليكَ يا أبتاه!! وا مُصيبتاه بعدَ فِراقِك!! وا غُرْبَتاه بعْدَ شَهادتِك!!»

ثم رأيت الرأس يكلم الطفلة ويقول لها: «ابنتي، لقد آن لمصائبك أن تنتهي، ستأتينا عما قريب، فاصبري على البلاء لكي تنالي الأجر ومقام الشفاعة»!!

يقول حارث الشامي: كان بيتي قريبا من تلك الخربة، وانتظرت لكي أرى هل يتحقق ما قاله الرأس لتلك الطفلة وتلتحق بأبيها!! وفي ليلة من الليالي ارتفعت أصوات أهل البيت بالبكاء والنحيب، ولما سألت عن ذلك قيل: أن رقية بنت الحسين عليه السلام قد ماتت!!

وروى البهائي في كامله ملخصا أن نساء أهل البيت عليهم السلام أخفين عن الأطفال شهادة آبائهم وكان الحال على ذلك حتى أمر يزيد أن يدخلن داره وكان للحسين طفلة صغيرة لها أربع سنوات قامت ليلتها من منامها وقالت: أين أبي الحسين؟! إني رأيته في المنام مضطربا شديدا!! فلما سمعت النسوة ذلك بكين وبكى معهن سائر الأطفال وارتفع العويل فانتبه يزيد من نومه وقال: ما الخبر؟! فقصوا عليه القصة فأمر بأن يذهبوا برأس أبيها إليها فأتوا بالرأس الشريف وجعلوه في حجرها، فقالت ما هذا؟! قالوا لها: هذا رأس أبيك!! فصرخت الصبية وصاحت ومرضت وماتت في أيامها بالشام.

وأمر يزيد بغسلها وكفنها ودفنها[٣٧٥]، وفي رواية أن العقيلة زينب عليها السلام هي التي قامت بتجهيزها ولفها في ثوب ودفنها في جانب تلك الحظيرة الخربة.

وجاء في الكتاب المذكور (بحر المصائب) أنه حينما أتوا برأس الحسين عليه السلام ووضعوه بين يدي رقية عليها السلام قالت: «أبتاه، أوْفِ بعهْدِك وخُذني معك»!!، هنالك أوفى أبو عبدالله الحسين عليه السلام بعهده وأخذ ابنته إلى جواره في الرفيق الأعلى[٣٧٦].

هذه الفادحة الكبرى وقعت في مرآى من السيدة زينب عليها السلام، تنظر إلى عزيزة أخيها وهي طفلة

صغيرة تتألم في فراق أبيها ويشتد بكاؤها فتأخذها في حجرها وتسليها، ولكنها ما لبثت أن رأت في منامها أبيها ففزعت تطلبه، فلم تهدأ إلا وكانت بجوار أبيها عليه السلام!!

ورد في بعض الروايات: بينما كانت الغسالة تغسل البدن الطاهر لرقية عليها السلام توقفت عن الغسل ونادت: من هي راعية الأسرى؟! قالت زينب عليها السلام: ماذا تريدين؟! فقالت الغسالة: إني أرى أن بدن هذه الطفلة الصغيرة مسودا، فأي داء كانت مبتلية به؟! قالت زينب عليها السلام: إنها لم تكن مبتلاة بداء ولكن اسود متنها من أثر الضرب بالسياط!![٣٧٧]

اختلف المؤرخون في مدة إقامة أهل البيت عليهم السلام في خربة الشام، ولكن حسب ما جاء من الأخبار أن دخول أهل البيت عليهم السلام الشام كان في الأول من شهر صفر ووفاة السيدة رقية بنت الحسين عليه السلام كان في الخامس من الشهر المذكور، وعلى هذا نستنتج أن رقية عليها السلام أقامت في تلك الخربة أربعة أيام.

مجالس العزاء في الشام

كانت زينب عليها السلام ببصيرتها النافذة وإرادتها الصلبة تغتنم كل فرصة لبيان الأبعاد الحقيقية لمأساة أهل البيت عليهم السلام ومظلوميتهم مما أثار تعاطف الجماهير معهم وسخطهم واستنكارهم على حكومة يزيد الجائرة.

وفي خبر أن زينب عليها السلام أرسلت إلى يزيد تسأله الإذن أن يقمن المأتم على الحسين عليه السلام فأجاز ذلك وأنزلهن في دار الحجارة، وأقمن المأتم هناك سبعة أيام، يجتمع عندهن في كل يوم جماعة كثيرة لا تحصى من النساء، فقصد الناس أن يهجموا على يزيد في داره ويقتلوه، فاطلع على ذلك مروان وقال ليزيد: لا يصلح لك توقف أهل بيت الحسين في الشام، فأعد لهم الجهاز وابعث بهم إلى الحجاز[٣٧٨].

إن من يتأمل أفعال يزيد وأقواله يراه راضيا بقتل الحسين عليه السلام وسبي حريم رسول الله صلى الله عليه وآله، ولما عرف الناس هوية الأسرى والسبايا وأنهم من العترة الطاهرة وأن الرأس الشريف هو رأس سبط رسول الله صلى الله عليه وآله كرهوا فعل يزيد واستنكروه، ولما بلغ ذلك يزيد ندم على قتل الحسين عليه السلام بل نسب قتله إلى ابن زياد ولعنه بفعله ذلك.

سخط هند على زوجها يزيد

لما قتل الحسين عليه السلام وأتوا بنسائه وبناته وأخواته إلى الشام، قامت هند زوجة يزيد[٣٧٩] – ولم يكن لها علم بقتل الحسين عليه السلام – ولبست أفخر ثيابها، فلما رأتها الطاهرة زينب عليها السلام التفتت إلى أختها أم كلثوم عليها السلام وقالت لها: أخية، هذي خادمتنا هند بنت عبدالله!!

فسكتت أم كلثوم عليها السلام، ثم قالت هند: أخية من أي البلاد أنتم؟!

فقالت لها زينب عليها السلام: من بلاد المدينة.

ثم قالت هند: أخية أريد أن أسألك عن بيت في المدينة.

قالت لها زينب عليها السلام: اسألي ما بدا لك.

قالت: أريد أن أسألك عن دار علي بن أبي طالب.

قالت لها الطاهرة زينب عليها السلام: وأين لك معرفة بدار علي عليه السلام؟!

فبكت وقالت: إني كنت خادمة عندهم.

قالت زينب عليها السلام: وعن أيما تسألين؟!

قالت: أسألك عن الحسين وإخوته وأولاده وأسألك عن سيدتي زينب وأختها أم كلثوم وعن بقية مخدرات فاطمة الزهراء.

فبكت عند ذلك زينب عليها السلام بكاء شديدا وقالت لها: يا هند، أما إن سألت عن دار علي عليه السلام فقد خلفناها تنعى أهلها، وأما إن سألت عن الحسين عليه السلام فهذا رأسه بين يدي يزيد، وأما إن سألت عن العباس وعن بقية أولاد علي عليه السلام فقد خلفناهم على الأرض مجزرين كالأضاحي بلا رؤوس، وإن سألت عن زين العابدين عليه السلام فها هو عليل نحيل لا يطيق النهوض من كثرة المرض والأسقام، وإن سألت عن زينب فأنا زينب بنت علي وهذي أم كلثوم وهؤلاء بقية مخدرات فاطمة الزهراء!!

فلما سمعت هند كلام زينب عليها السلام رقت وبكت ونادت: وا إماماه!! وا سيداه!! وا حسيناه!! ليتني كنت قبل هذا اليوم عمياء ولا أنظر إلى بنات فاطمة الزهراء على هذه الحالة!!

ثم تناولت حجرا وضربت به رأسها فسال الدم على وجهها ومقنعتها وغشي عليها، فلما أفاقت من غشيتها أتت إليها الطاهرة زينب عليها السلام وقالت لها: يا هند قومي واذهبي إلى دارك لأني أخشى عليك من بعلك.

فقالت: والله لا أذهب حتى أنوح على سيدي ومولاي أبي عبدالله وحتى أدخلك وسائر النساء الهاشميات معي داري.

فقامت وحسرت رأسها وشقت الثياب وهتكت الستر وخرجت حافية إلى يزيد وهو في مجلس عام وقالت: يا يزيد!! أأنت أمرت رأس الحسين عليه السلام يشال على الرمح عند باب الدار؟!

فوثب إليها يزيد وغطاها وقال: نعم فاعولي يا هند وابكي على ابن بنت رسول الله وصريخة قريش، فقد عجّل عليه ابن زياد لعنه الله فقتله قتله الله.

فلما رأت هند أن يزيد غطاها، قالت: وَيلَكَ يا يَزيد!! أخَذَتْكَ الحَمِيَّةُ عليَّ!! فَلِمَ

لا أخَـذَتْـكَ الـحَـمـيَّـةُ عـلَى بَـنـاتِ فـاطِـمَـةَ الـزَهْـراء!! هَـتَـكْـتَ سُـتورَهُـنَّ وأبْـدَيْـتَ وُجـوهَـهُـنَّ وأنْـزَلْـتَـهُـنَّ في دارٍ خَـرِبَـةٍ!! واللهِ لا أدْخُـلُ حَـرَمَـكَ حتَّـى أدْخِـلَـهُـنَّ مَـعـي.

وأمر يزيد بهم إلى منزله وأنزلهم في داره الخاصة، فلما دخلت النسـوة استقبلتهن نساء آل أبي سفيان وقبّلـن أيـدي بنات رسـول الله وأرجلهن، ونُحن وبكـين وألقين ما عليهن من الثيـاب والحلي وأقمن المأتم ثلاثة أيام[٣٨٠].

تجهيز المحامل وخروج أهل البيت عليهم السلام من الشام

في منتخب التواريـخ: لما كان اليـوم الثامن من الأيام التي ناحوا فيها على الحسـين عليه السلام دعاهن يزيد وعـرض عليهـن المقام، فأبـين وأردن الرجوع إلى المدينـة، فأحضر لهن المحامل وزينهـا وأمر بالأنطاع الإبريسم وصب عليها الأموال[٣٨١]، ولما أراد أن يجهزهم قال للنعمان بن بشير صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله: جهـز هؤلاء النسـوة بما يصلحهم وابعث معهم رجلا من أهل الشـام أمينـا صالحا وابعث معهم خيلا وأعوانـا، ثـم كسـاهم وحباهم وفرض لهـم الأرزاق، ثم أوصى بهم الرسـول أن يسـيروا بهم في الليل ويرفقوا بهم[٣٨٢].

ولكن السيدة زينب عليها السلام بحدة ذكائها ونفاذ بصيرتها وحسن تدبيرها رأت أن هذه اللفتة من يزيد بن معاوية من تزيين المحامل والهوادج ليست إلا لصرف الأنظار عن لب القضية وتلويث النهضة بزيف المظاهر الخداعة، هنالك صاحت زينب عليها السلام وقد أحاطتها الهيبة والجلال وقالت:

«اجْعَـلوهـا سَـوداءَ حـتَّـى يَـعْـلَـمَ الـنـاسُ إنَّـا فـي مُـصـيـبَـةٍ وعَـزاءٍ لِـقَـتْـلِ أولادِ الزَّهْـراء»[٣٨٣].

مرور أهل البيت عليهم السلام بكربلاء

خرج موكب النور والولاية من الشـام يحمل معه بنات الرسـالة والوحي يتقدمهم فخر الساجدين وزين العابدين عليه السلام مخلفين وراءهم مدينة كئيبة تموج في الظلمات.

مـر الموكـب على منازل كثيرة في طريقهم إلى المدينـة، وفي كل منزل من تلك المنازل كانت زينب عليها السلام تقيـم المأتـم والعزاء على أخيها الحسـين عليه السلام، وتغتنـم كل فرصة تعـرب فيها عن ألـيـم المصـاب إثـر الفاجعـة الكبرى التي حلت بأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله[٣٨٤].

كان مـن المقـرر أن يرحل أهل البيت عليهم السلام من الشـام إلى المدينة، ولكن الإمام السـجاد عليه السلام والسـيدة

زينب عليها السلام عزما على أن يمر الركب على كربلاء تجديدا للعهد لزيارة أبي عبدالله الحسين عليه السلام وإحياء لذكراهم الخالدة.

يقول السيد ابن طاووس في اللهوف على أهل الطفوف: لما رجع أهل بيت الحسين عليه السلام ونساؤه وعياله من الشام وبلغوا العراق قالوا للدليل مرّ بنا على طريق كربلاء، فوصلوا إلى موضع المصرع فوجدوا جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه وجماعة من بني هاشم ورجالا من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد وردوا لزيارة قبر الحسين عليه السلام، فوافوا في وقت واحد، وتلاقوا بالبكاء والحزن واللطم وأقاموا المآتم المقرحة للأكباد واجتمع إليهم نساء ذلك السواد فأقاموا على ذلك أياما[٣٨٥]، فخرجت زينب عليها السلام في الجمع وأهوت إلى جيبها فشقته ونادت بصوت حزين يقرح القلوب: «وا أخاه!! وا حُسَيناه!! وا حَبيبَ رَسولِ الله!! وا ابْنَ مَكَّةَ ومِنَى!! وا ابْنَ فاطِمَةَ الزَّهْراء!! وا ابْنَ عَلِيٍّ المُرتَضَى!! آهٍ ثم آهٍ!!»

ووقعت مغشيا عليها، واجتمعن النساء فرششن عليها الماء حتى أفاقت كأني بها تقول بلسان الحال:

يا نازِلينَ بكَرْبَلا هَلْ عِنْدَكُم
خَبَرٌ بقَتْلانا وما أَعْلامُها

ما حالُ جُثَّةِ مَيِّتٍ في أَرْضِكُم
بَقِيَت ثَلاثاً لا يُزارُ مَقامُها

باللهِ هَلْ رُفِعَتْ جَنازَتُهُ وهَلْ
صَلَّى صَلاةَ المَيِّتينَ إمَامُها

باللهِ هَلْ وارَيْتُموها في الثَّرَى
وهَلْ اسْتَقَرَّتْ في اللُّحودِ رِمَامُها

يا جُثَّةً ما شُيِّعَتْ يَوماً ولا
نَحْوَ القُبورِ سَعَتْ بها أَقْدامُها[٣٨٦]

قضت زينب عليها السلام ثلاثة أيام بلياليها في كربلاء ترثي أخاها الحسين عليه السلام وتجدد أحزانها وتشكو له حالها وما جرى عليها وعلى أهل بيته بعد فراقه. ولله در القائل عن لسانهم:

فَناحَ لِسانُ حالِ بَناتِ طَهَ
وهُنَّ مِنَ الكَآبَةِ يَرْتَمينا

فَقَدْنا هَهُنا رُوحاً ورَوْحاً

وَرَيْـحـانـاً وَزَيْـتـونـاً وَتـيـنـا
فَـقَـدْنَـا هـهُـنـا قَـمَـراً مُـضـيـئـاً
بـنـورِ هُـداهُ يَـهْـدِي الـتـائِـهـيـنـا[٣٨٧]

لم يجد السجاد عليه السلام بدًّا من الرحيل من كربلاء إلى المدينة بعدما أقام فيها ثلاثة أيام، لأنه رأى عماته ونساءه وصبيته نائحات الليل والنهار يقمن من قبر ويجلسن عند آخر[٣٨٨].

نعم، إن مأساة كربلاء والأحداث التي أعقبتها لم تكن وليدة الصدفة بالنسبة للعقيلة زينب الكبرى عليها السلام، بل كانت على علم مسبق وإدراك عميق لهذه الواقعة الأليمة، فأعدت نفسها الطاهرة لقبول ما يجري عليها من حكم الله وقضائه، ونظرت إليه بعين الاطمئنان واليقين وعلمت أن ابتلاءها بمصائب كربلاء إنما هي نعمة من الله خصها بها دون غيرها، فكانت الشاكرة لنعمائه والحامدة لآلائه متقربة إليه بقبول بلائه، وتجاوزت كل العقبات التي حاولت أن تعيقها عن إتمام دورها البطولي بقلب ملؤه العرفان والإخلاص واليقين تشارك أخاها الحسين عليه السلام جنبا إلى جنب في نهضته المقدسة ضد تيار الظلم والجور حتى تبلغ شعاراته السامية غايتها.

دخول زينب عليها السلام وأهل البيت إلى المدينة

انفصل أهل البيت عليهم السلام من كربلاء طالبين المدينة وعلى رأسهم الإمام السجاد عليه السلام والسيدة زينب عليها السلام، وكلما اقتربوا من المدينة المنورة زاد حزنهم واشتد بكاؤهم.

لقد خرجت زينب عليها السلام من المدينة معززة مكرمة بصحبة سيد شباب أهل الجنة وإخوته وبنيه وبني عمومته، واليوم تدخلها قد أحيطت بجمع من الأرامل واليتامى.

قال بشير بن حذلم: لما قربنا من المدينة نزل علي بن الحسين عليه السلام وحط رحله وضرب فسطاطه وأنزل نساءه، وقال: يا بشير رحم الله أباك لقد كان شاعرا، فهل تقدر على شيء منه؟! قلت: بلى يا ابن رسول الله إني لشاعر، فقال عليه السلام: ادخل المدينة وانع أباعبدالله عليه السلام. قال بشير: فركبت فرسي حتى دخلت المدينة فلما بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعت صوتي بالبكاء وأنشأت:

يـا أَهْـلَ يَـثْـرِبَ لا مُـقـامَ لَـكُـمْ بها
قُـتِـلَ الـحُـسَـيـن فَـأَدْمُـعـي مِـدْرارُ
الـجِـسْـمُ مِـنْـهُ بِـكَـرْبَـلاءِ مُـضَـرَّجٌ
والـرَّأسُ مِـنْـهُ عَـلَـى الـقَـنـا يُـدارُ

ثم قلت: هذا علي بن الحسين عليه السلام مع عماته وأخواته قد حلوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم وأنا رسوله

إليكم أعرفكم بمكانه.

قال: فما بقيت في المدينة مخدرة ولا محجبة إلا برزن من خدورهن مكشوفة شعورهن مخمشة وجوههن ضاربات خدودهن يدعون بالويل والثبور[٣٨٩].

وأما زينب عليها السلام (أم كلثوم الكبرى)[٣٩٠] حين لمحت ببصرها أعتاب المدينة اغتمت وحزنت وجعلت تبكي وتنوح وأنشأت أبياتا من الشعر (ما يقارب الأربعين بيتا) من جملتها:

مَدينَةُ جَدِّنا لا تَقْبَلينا
فبالحسراتِ والأحْزانِ جينا

ألا فَاخْبِر رَسولَ اللهِ عَنَّا
بأَنَّا قَد فُجِعْنا في أبينا

خَرَجْنا مِنْكِ بالأهْلينِ جَمْعاً
رَجَعْنا لا رِجالَ ولا بنينا

وكُنَّا في الخُروجِ بجَمْعِ شَمْلٍ
رَجَعْنا حاسِرينَ مُسَلَّبينا

وكُنَّا في أمانِ اللهِ جَهْراً
رَجَعْنا بالقَطيعَةِ خائِفينا

ومَوْلانا الحُسينُ لنا أنيسٌ
رَجَعْنا والحُسينُ بهِ رَهينا

فنَحْنُ الضائِعاتُ بلا كَفيلٍ
ونحْنُ النائِحاتُ عَلَى أخينا

ألا يا جَدَّنا قَتَلوا حُسيناً
ولَمْ يَرْعَوا جَنابَ اللهِ فينا

ألا يا جَدَّنا بَلَغَتْ عِدانا
مُناها واشْتَفَى الأعداءُ فينا

لَقَد هَتَكوا النِّساءَ وحَمَلوها
عَلَى الأقْتابِ قَهْراً أجْمَعينا[٣٩١]

نحيب زينب عليها السلام عند دخول المدينة

ورد أن زينب عليها السلام حينما وصلت إلى المدينة أخرجت رأسها من المحمل ونادت في النساء والأطفال: «انزلوا من الهوادج، فإني أرى الروضة المنورة لجدي رسول الله صلى الله عليه وآله».

ثم ناحت وبكت بكاء شديدا حتى كادت نفسها تخرج، فأقبل الناس من كل ناحية يندبون ويلطمون، وارتفعت الأصوات بالبكاء، وضجت تلك البقعة ضجة شديدة كأن الأرض زلزلت تحت أقدامهم.

ثم مالت ببصرها إلى كربلاء وأخذت تكلم أخاها الحسين عليه السلام وتقول: «أخي حسين!! هؤلاء جدك وأمك وأخوك وأهل بيتك ينتظرون قدومك!! يا نور عيني!! قُتلت وأورثتنا الأحزان الطويلة، فيا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا»(٣٩٢).

زينب عليها السلام عند قبر جدها رسول الله صلى الله عليه وآله

ولما اقتربت فخر المخدرات زينب عليها السلام من المسجد النبوي الشريف ووقع طرفها على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله صرخت وبكت وأخذت بعضادتي باب المسجد ونادت: «يا جَدَّاه!! إنِّي ناعِيَةً إليكَ أخي الحسين عليه السلام»(٣٩٣)، وهي مع ذلك لا تجف لها عبرة ولا تفتر من البكاء والنحيب وكلما نظرت إلى علي بن الحسين عليه السلام تجدد حزنها وزاد وجدها(٣٩٤).

ولم تبرح مكانها بالقرب من قبر جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي تنوح وتقول:

إنْ كنتَ أوْصَيْتَ بالقُرْبى بخيرٍ جَزاءً
فإنَّهم قطعوا القربى وما وصلوا
حتَّى أبادوهُمْ قَتْلى على ظَمأ
مِنْ باردِ الماءِ ما ذاقوا وما وَصَلوا(٣٩٥)

ملاقاة زينب عليها السلام بأم البنين

يروى أنه حينما دخل أهل البيت عليهم السلام المدينة أقبلت أم البنين - أم العباس بن علي عليه السلام - إلى زينب عليها السلام وقالت: يا ابنة أمير المؤمنين عليه السلام، أين أولادي؟!

فقالت زينب عليها السلام: قد قتلوا جميعا.

فقالت أم البنين: أرواحهم لروح الحسين فداء، أين ولدي الحسين؟!

فقالت زينب عليها السلام: قتلوه عطشانا!!

لما سمعت أم البنين ذلك ضربت بيديها على رأسها وجعلت تصرخ وتنادي: «وا حُسيناه»!!

ثم قالت لها زينب عليها السلام: أتيتك بذكرى من ولدك العباس عليه السلام.

فقالت أم البنين: وما هي؟!

فأخرجت زينب عليها السلام ترس أبي الفضل العباس والملطخ بدمه الزاكي من تحت إزارها، ولما رأت أم البنين ذلك تفطر قلبها حزنا ولم تتحمل فوقعت مغشيا عليها[٣٩٦].

زينب عليها السلام تذكر مصيبة رقية بنت الحسين عليه السلام في المدينة

يروى أنه حينما رجعت زينب الكبرى عليها السلام إلى المدينة، أقبلت إليها نساء المدينة يعزونها، وأخذت زينب عليها السلام تبين لهم الوقائع المؤلمة التي ألمت بأهل البيت عليهم السلام في كربلاء والكوفة والشام، وهن يبكين وينحن، إلى أن وصلت إلى ذكر مصيبة رقية عليها السلام فقالت:

«وأمَّا مُصيبَةُ وَفاةِ رُقَيَّة في خَرِبَة الشام فقد احْدَوْدَبَ لَها ظَهْري وشابَ رَأسي».

فلما سمعت النساء ذلك زاد بكاؤهن ونحيبهن[٣٩٧].

حديث زينب عليها السلام عند قبر أمها الزهراء عليها السلام

يروى أن زينب عليها السلام أقبلت ومن معها إلى قبر أمها فاطمة الزهراء عليها السلام (أي حدود موضع قبرها عليها السلام) وبكوا هنالك بكاء عاليا وكأنه يوم المحشر، وأخذت زينب عليها السلام تنادي: أمَّاه!! أمَّاه!! حتى خرت مغشيا عليها، ولما أفاقت قالت: «أمَّاه!! لقد ضَربوني بالسياطِ حتَّى جَرَحوا مَتْني»، ثم قالت: «لقد أتيتُكِ بقميصِ الحُسين»[٣٩٨]. ويروى أيضا أنها عليها السلام أقبلت إلى قبر أمها فاطمة الزهراء عليها السلام ورمت بنفسها على القبر وغشي عليها فلما أفاقت قامت وهي تقول:

أفاطِمُ ما لَقِيتِ مِنْ عِداكِ
ولا قيراطَ مِمَّا لَقينا

أفاطِمُ لَوْ نَظَرْتِ إلى السَّبايا
بَناتِكِ في البِلادِ مُشتَّتينا

أفاطِمُ لَوْ نَظَرْتِ إلى اليَتامَى
ولَوْ أبْصَرْتِ زَيْنَ العابِدينا

فَلَوْ دامَتْ حَياتُكِ لَمْ تَزالي
إلى يَومِ القِيامَةِ تَنْدِبينا[٣٩٩]

كانت السيدة زينب الكبرى عليها السلام هي المبادرة في إقامة مجالس العزاء لأخيها الحسين عليه السلام، وبهذا

تمكنت من استثارة عواطف الناس ضد بني أمية والظالمين لأهل البيت عليهم السلام.

إقامة مجالس العزاء في المدينة

على الرغم أنه بعد واقعة الطف كان أهل المدينة وعلى الخصوص بني هاشم في عزاء دائم على أبي عبدالله الحسين عليه السلام، إلا أن بعد دخول أهل البيت عليهم السلام المدينة أقام الرجال والنساء خمسة عشر يوما عزاء رسميا وشعبيا يندبون فيه الحسين عليه السلام وأهل بيته[٤٠٠].

قضت زينب عليها السلام باقي أيام حياتها في البكاء والنحيب وإقامة المآتم على أخيها الحسين عليه السلام لا ترقأ لها دمعة ولا تهدأ لها زفرة، وكرست كل طاقاتها في أداء دورها الرسالي في تأجيج الثورة ضد الحكم الأموي، وبيان عمق المأساة وهول المصيبة التي أصيب بها قربى رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعلى الرغم أن زينب عليها السلام لم تتجاوز السادسة والخمسين من عمرها إلا أنه من عظم الفاجعة وقسوة الأحداث التي شهدتها احدودب ظهرها من الحزن وشاب رأسها من الغم.

يذكر السيد الشريف يحيى بن الحسن المعروف بالعبيدلي النسابة: أن السيدة زينب عليها السلام وهي في المدينة كانت تؤلب الناس على القيام بأخذ ثأر الحسين عليه السلام، فكتب والي المدينة عمرو بن سعيد الأشدق إلى يزيد يعلمه بالخبر، فكتب إليه يزيد أن فرِّق بينها وبين الناس، فأمرها الوالي بالخروج من المدينة، فأبعدت إلى مصر[٤٠١].

الفصل الرابع

مرقد زينب الكبرى عليها السلام وبعض كراماتها

وفاة السيدة زينب الكبرى عليها السلام

وحان الأجل الموعود للقاء رب الملك والملكوت، فأسلمت روحها الطاهرة لبارئها راضية بقضائه مرضية بجزيل عطائه منعمة بجنة لقائه والحشر مع أحبائه وأوليائه، عرجت روحها الزكية من دناءة الدنيا الفانية إليسعادة الآخرة الأبدية بعد أن تجرعت غصص الآلام والأحزان صابرة محتسبة.

اختلف المؤرخون في تحديد يوم وفاة سيدتنا العقيلة زينب الكبرى عليها السلام، وحسب تتبعنا للروايات والأخبار الواردة يمكن ترجيح أحد القولين التاليين:

١ - القول المعروف بين أغلب المؤرخين أنها لم تعش بعد استشهاد أخيها الحسين عليه السلام أكثر من سنة ونصف السنة وتاريخ وفاتها هو النصف من شهر رجب عام ٦٢ من الهجرة(٤٠٢).

٢ - هناك قول آخر أنها توفت يوم الخامس عشر من رجب عام ٦٥ من الهجرة، أي أنها عاشت بعد أخيها الحسين عليه السلام أربع سنوات وستة أشهر وخمسة أيام(٤٠٣).

وهناك أقوال أخرى منها:

أنها توفت يوم الأحد الخامس من رجب عام ٦٢ من الهجرة.

وقول آخر أن بعد رجوع أهل البيت عليهم السلام من الشام إلى المدينة بأربعة أشهر توفت السيدة أم كلثوم عليها السلام وبعد وفاة السيدة أم كلثوم عليها السلام بثمانين يوما توفت السيدة زينب عليها السلام(٤٠٤).

ويمكن مطابقة القول الأخير مع القول الأول مع العلم بعدم تحديد تاريخ دخول أهل البيت عليهم السلام المدينة.

وإذا قبلنا بالقول الأول (النصف من رجب عام ٦٢ هـ) وإذا كان يوم مولدها عليها السلام في السنة السادسة من الهجرة، على هذا يكون عمرها عند وفاتها ٥٦ عاما وبضع شهور، وعمرها حينما كانت في كربلاء ٥٥ عاما.

بكاء صاحب الزمان (عج) والملائكة في ذكرى وفاة زينب عليها السلام

ورد في كتاب (الخصائص الزينبية) للمرحوم آية الله السيد نور الله الجزائري (المتوفى عام ١٣٨٤ هجرية): أن العالم الحكيم والمحدث الخبير الشيخ محمد باقر القائيني - صاحب الكبريت الأحمر - ذكر في كتابه (الكشكول):

كنت في النجف الأشرف مشغولا بتحصيل العلوم الحوزوية، رأيت سيدا زاهدا ورعا ولكنه كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة، كان يوما من الأيام يزور أمير المؤمنين علي عليه السلام في حرمه الشريف ، فرأى بين الزائرين رجلا تركيا جالسا في جانب من الحرم المطهر يتلو القرآن، تأثر هذا السيد الجليل من هذا المشهد وقال في نفسه: هل يليق بك أن ترى هذا الرجل التركي يتلو القرآن وهو كتاب جدك رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت محروم من ذلك!!

فجعل السيد شطرا من يومه في سقاية زوار الحرم الشريف لكسب العيش وشطرا آخر لتحصيل العلوم الدينية، وبمرور الزمان وصل إلى حد من التعليم أنه كان يشارك في درس الخارج لآية الله العظمى الميرزا محمد حسن الشيرازي (المتوفى سنة ١٣١٢ هجرية)، ويعتقد أنه وصل إلى مرحلة الاجتهاد.

هذا السيد الجليل نقل لي هذه الرواية:

رأيت في عالم الرؤيا صاحب الأمر وولي العصر (عج) وكان مكتئبا حزينا، تشرفت بمحضره وسلمت عليه ثم قلت له: سيدي!! لم هذا البكاء والحزن؟! فقال عليه السلام: اليوم ذكرى وفاة عمتي زينب عليها السلام، والملائكة في مثل هذا اليوم من كل عام يقيمون العزاء في السماوات ويقرأون خطبتها التي ألقتها في جموع أهل الكوفة ويبكون، ولا يفترون عن البكاء حتى أذهب إليهم وأسكنهم[٤٠٥].

وعلى هذا، فيجدر بالمؤمنين ومحبي أهل البيت أن يذكروا مصائب سيدة الطف زينب الكبرى عليها السلام في يوم وفاتها (الرابع عشر أو الخامس عشر من رجب)، ويشاركوا الملائكة وإمام العصر والزمان (عج) أحزانهم بإقامة المآتم ومجالس العزاء.

أين دفنت السيدة زينب الكبرى عليها السلام؟!

اختلف المؤرخون حول مرقد السيدة زينب الكبرى عليها السلام على ثلاثة أقوال:

١ - في مقبرة البقيع في المدينة المنورة

٢ - في مدينة القاهرة بمصر

٣ - في قرية راوية بغوطة دمشق (تبعد سبعة كيلومترات جنوب شرقي دمشق)، وهي الآن متصلة بدمشق العاصمة، ولها فيها مشهدا ملكوتيا مجللا يقصده آلاف الزائرين من جميع أقطار العالم.

اختلفت آراء المحققين والباحثين في مرقد السيدة زينب الكبرى عليها السلام، ولكن ثبت للكاتب بعد التحقيق وتتبع الروايات والقرائن والمصادر أن المرقد المطهر للسيدة زينب الكبرى عليها السلام في الشام ولا اعتبار في القولين الأولين.

ولا يخفى على القاريء الكريم أن البحث في هذا المجال طويل، ولكن نقدم له ما قيل في ذلك بصورة مختصرة:

مرقد السيدة زينب عليها السلام في المدينة

يعتقد البعض أن السيدة زينب عليها السلام بعد فاجعة كربلاء دخلت المدينة المنورة ولم تخرج منها إلى أن توفت فيها ودفنت في مقبرةالبقيع، ولا يرون أن هناك دليل مقنع وقاطع بخروجها من المدينة، وذهب إلى هذا الرأي العلامة السيد محسن الأمين رحمه الله وذلك بالاستناد إلى بعض الأدلة.

مرقد السيدة زينب عليها السلام في مصر

ومن جملة الذين يؤيدون هذا القول السيد العبيدلي وابن طولون وابن عساكر والشعراني

والشبلنجي والشيخ جعفر النقدي. وكما أشرنا سابقا أن السيدة زينب عليها السلام بعد رجوعها من الشام إلى المدينة كانت تؤلب الناس على القيام بأخذ ثأر الحسين عليه السلام، فكتب والي المدينة عمرو بن سعيد الأشدق إلى يزيد يعلمه بالخبر، فكتب إليه يزيد أن فرّق بينها وبين الناس، فأمرها الوالي بالخروج من المدينة إلى حيث شاءت، فأبت الخروج من المدينة وقالت: «قَدْ عَلِمَ اللهُ ما صارَ إلينا قَتْلُ خَيْرِنا وسُقْنا كما تُساقُ الأنْعام وحُمِلْنا على الأقْتابِ، فَو الله لا أخْرُجُ وإنْ أهْرِقَتْ دِماؤنا»، فقالت لها زينب بنت عقيل: «يا ابْنَةَ عَمَّاه، قَدْ صَدَقَنا اللهُ وَعْدَهُ وأورَثَنا الأرْضَ نَتَبَوَّأ مِنْها حيثُ نَشاء، فَطيبي نَفْساً وقَرّي عَيْناً وسَيَجْزي اللهُ الظالِمين، أتُريدينَ بَعْدَ هذا هَواناً، ارْحَلي إلى بَلَدٍ آمِنٍ».

ثم اجتمع عليها نساء بني هاشم وتلطفن معها في الكلام فاختارت مصر، وخرج معها من نساء بني هاشم فاطمة وسكينة بنات الحسين عليه السلام، فاستقبلها الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري في جماعة معه، فأنزلها داره بالحمراء، فأقامت به أحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما وتوفيت عشية يوم الأحد لخمسة عشر يوما مضين من رجب سنة اثنتين وستين من الهجرة[٤٠٦]، ولها الآن في القاهرة مشهد عظيم يسمى بـ«مشهد السيدة» يميل إليه الزائرون المحبون لأهل البيت عليهم السلام.

وينقل العلامة العبيدلي بسند مرفوع (أي عدم ذكر رواة الحديث) عن رقية بنت عقبة بن رافع أنها قالت: كنت من المستقبلين للسيدة زينب عليها السلام في مصر، واستقبلها أيضا مسلمة بن مخلد وعبد الله بن حارث وأبو عميرة المزني، وجاءها مسلمة بن مخلد ليعزيها بمصابها في كربلاء، فبكت زينب عليها السلام وبكى مسلمة وبكى الحاضرون لبكائها، ثم جعلت زينب عليها السلام تقول: ﴿هذا مَا وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[٤٠٧]، ثم أنزلها مسلمة داره بالحمراء، وبعد أحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما توفيت زينب عليها السلام، فصلى عليها مسلمة بن مخلد في جماعة معه في المسجد الجامع، ثم أرجعها إلى الدار في الحمراء، وحسب وصية زينب عليها السلام دفنت بجانب دار مسلمة[٤٠٨].

مرقد السيدة زينب عليها السلام في الشام

ولهذا القول ذهب جل المؤرخين وأغلب علماء الشيعة الإمامية[٤٠٩].

ينقل العلامة السيد جعفر بحر العلوم عن المحدث الخبير الميرزا حسين النوري (أستاذ المحدث الكبير الشيخ عباس القمي): أنه لما أصابت المجاعة أهل المدينة جاءت مع زوجها عبد الله بن جعفر إلى الشام وأقاموا في قرية راوية بغوطة دمشق ليقوم عبد الله بن جعفر فيما كان له من القرى والمزارع خارج الشام حتى تنقضي المجاعة، وبعد فترة من الزمان مرضت العقيلة زينب عليها السلام وتوفت على أثر

مرضها ودفنت في تلك المزرعة التي كان يملكها زوجها وهي الآن مكان مرقدها المطهر المعروف في الشام.

والمحدث القمي ينقل عين الرواية عن أستاذه الميرزا حسين النوري[٤١٠].

ومن جملة المؤيدين لهذا الرأي العلامة محمد حسين السابقي في كتابه (مرقد العقيلة زينب)، وذلك بعد طرح الأدلة الجامعة والقاطعة بأن مرقد السيدة زينب عليها السلام المطهر في الشام.

نتيجة وتحليل

بعد البحث في الروايات والتنقيب في الآثار وتقصي الحقائق التاريخية يتضح لنا أن السيدة زينب عليها السلام لم تدفن في المدينة ولا في مصر، وأما بيان ذلك:

١ - الرد على القول بدفنها في المدينة:

أولا: أولئك الذين يذهبون بالقول أن المرقد الشريف للسيدة زينب عليها السلام في المدينة يستدلون بأنه قد ثبت دخولها إلى المدينة ولم يثبت بدليل قاطع خروجها، فاستصحابا حكموا على أنها دفنت في المدينة[٤١١].

العالم المحقق المرحوم محمد جواد مغنية بعد التحقيق في هذا الأمر يقول:

«ومال إلى ذلك المرحوم السيد محسن الأمين في كتابه (أعيان الشيعة ج ٣٣) مستدلا بأنه قد ثبت دخولها إلى المدينة ولم يثبت خروجها، فنُبْقِي ما كان على ما كان، وكأنه عليه الرحمة يتمسك بالاستصحاب لإثبات دفنها في المدينة، وبديهة أن الأخذ بالاستصحاب هنا لا يعتمد على أساس، لأن موضوع الاستصحاب إن نعلم بوجود الشيء ثم نشك في ارتفاعه بحيث يكون المعلوم هو المشكوك بالذات، كما لو فرضنا أن علمنا بدفن الجثمان الشريف في المدينة قطعا، ثم شككنا بأنه هل نقل إلى بلد آخر أم بقي حيث كان!! فنستصحب، ونبقي ما كان على ما كان لاتحاد الموضوع، أما إذا علمنا بدخولها إلى المدينة ثم شككنا في محل قبرها فلا يمكن الاستصحاب بحال، لأن الدخول إلى المدينة شيء والقبر شيء آخر، وإثبات اللازم باستصحاب الملزوم باطل كما تقرر في علم الأصول»[٤١٢].

ثانيا: لو كان قبر السيدة زينب عليها السلام في المدينة وهي عقيلة بني هاشم وكريمة بيت الوحي، لبقي لها أثر ومزار كقبور المؤمنين والصالحين أمثال أم البنين عليها السلام وزوجات الرسول صلى الله عليه وآله، في حين أنه لا أثر لقبرها هناك وحتى قبل طمس قبور البقيع على يد الوهابيين.

ثالثا: هناك دلائل تاريخية تدل على خروجها عليها السلام من المدينة إلى الشام أو إلى مصر، وعلى هذا لا

يمكن الاكتفاء بدخولها المدينة دليلا على دفنها هناك.

رابعا: لو كان قبر السيدة الجليلة زينب الكبرى عليها السلام في المدينة المنورة، فلِمَ لَمْ ترد روايات وأحاديث في عصر الأئمة المعصومين بشأن قبرها وزيارتها على الرغم من إقامتهم في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

٢ - الرد على القول بدفنها في مصر:

لم يصرح في أي من الكتب التاريخية عن وجود قبر السيدة زينب الكبرى عليها السلام بنت علي بن أبي طالب عليه السلام في مصر، وما ذهب إليه العلامة العبيدلي بأن قبر السيدة زينب عليها السلام في مصر فقد أكد الباحث الشيخ محمد حسين السابقي في كتابه (مرقد العقيلة زينب عليها السلام) أن أكثر رواة العبيدلي مجهولون ليس لهم تراجم في كتب الرجال والتراجم والأنساب، وربما يكون قد اشتبه عليه الأمر بسبب تعدد المسميات بزينب والمدفونات بمصر.

وهنا قد يتساءل البعض: إلى أي زينبٍ إذاً يُنسب هذا المقام الشامخ المعروف بـ (مشهد السيدة زينب) في القاهرة؟!

الظاهر أن المشهد الزينبي المعروف في القاهرة هو للسيدة زينب بنت يحيى المتوج بن الحسن الأنور بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام[٤١٣] التي دخلت مصر بصحبة عمتها نفيسة بنت حسن العلوي[٤١٤] عام ١٩٣ هـ، وتوفتا هناك ودفنتا[٤١٥].

وأول من دَوَّن تاريخ مصر في الإسلام هو عبدالرحمن بن عبد الحكم المصري (المتوفى عام ٢٥٧ هـ) له في تاريخ مصر كتاب حافل سماه (منهج السالك في أخبار مصر والقرى والممالك) ذكر فيه تراجم كثير من الصحابة ممن دخل مصر.

وتبعه أبو عمرو محمد بن يوسف الكندي (المتوفى عام ٣٥٤ هـ)، ثم أبو محمد حسن بن إبراهيم الليثي المصري (المتوفى عام ٣٨٧ هـ)، ومن بعده عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحراني المسبحي (المتوفى عام ٤٢٠ هـ)، ثم المؤرخ المتتبع القاضي أبو عبدالله محمد بن سلامة الشافعي (المتوفى عام ٤٥٣ هـ)، وغيرهم من المؤرخين الذين ترجموا أصحاب القبور وميزوا مزاراتهم إلا أن أحدا منهم لم يذكر أن السيدة زينب بنت علي عليه السلام مدفونة في مصر[٤١٦].

ويجدر بالذكر هنا أن المؤرخ ابن زيات الأنصاري (المتوفى عام ٨١٤ هـ) كتب كتابا قيما حول المقابر المشهورة في مصر باسم (الكواكب السيارة)، وذكر فيه كل المسميات بزينب والمدفونات بمصر، ولم يكن فيه لزينب الكبرى بنت علي عليه السلام أي أثر، والمسميات بزينب في هذا الكتاب هن كالتالي:

١ - زينب بنت أبا جلي

٢ – زينب بنت سنان

٣ – زينب الكلثمية

٤ – زينب بنت مهذب

٥ – زينب بنت يونس

٦ – زينب بنت شعيب

٧ – زينب الفارسية

٨ – زينب بنت هاشم

٩ – زينب بنت يحيى المتوج

١٠ – زينب بنت محمد بن علي بن علي.... بن الحسن المثنى

١١ – زينب بنت أحمد بن جعفر بن محمد بن الحنفية

ويقينا إذا كانت السيدة زينب الكبرى بنت علي عليهما السلام قد دفنت بمصر لما غفل عن ذكرها المؤرخون، بل لكان اسمها على رأس قائمة الأسماء المذكورة في كتب التاريخ(٤١٧).

وقد ذكر الشيخ محمد حسين السابقي في كتابه (مرقد العقيلة زينب عليها السلام) أن جملة من قبور العلويين كتب على ألواحها أنهم أولاد علي عليه السلام، على سبيل المثال كتبوا على قبر رقية بنت عبد الله بن أحمد بن الحسين «هذا ضريح السيدة رقيَّة بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»!! وكتبوا على قبر السيدة زينب بنت يحيى المتوج «مشهد السيدة الطاهرة بنت الزهراء البتول بنت علي بن أبي طالب»!!(٤١٨) مما يوحي ولأول وهلة أنه قبر السيدة زينب الكبرى عليها السلام.

وعلى هذا وبعد المطالعة والتحقيق يمكن أن نستنتج من الأقوال السابقة أنه لما لم يثبت أن المرقد المطهر للعقيلة زينب عليها السلام في المدينة أو مصر، فهذا في حد ذاته دليل على أن القول بأن مرقدها الشريف في الشام هو الأقرب إلى الصحة والصواب.

وهناك دلائل وقرائن أخرى تؤيد هذا القول.

دلائل وقرائن تثبت أن مرقد السيدة زينب عليها السلام في الشام

نذكر هنا بشيء من الاختصار بعض الدلائل التي تثبت أن المرقد المنور للسيدة زينب عليها السلام موجود في الشام:

١ – ذكر المحدثون والمؤرخون وأصحاب السير أن مرقد السيدة زينب عليها السلام ينحصر في إحدى الأماكن التالية: ١– المدينة ٢– مصر ٣– الشام، وكما أشرنا سابقا أنه لما لم يكن هناك دليل قطعي

بوجود قبر السيدة زينب عليها السلام في المدينة أو مصر، على هذا ترجح كفة القول الثالث وهو أن مشهد زينب عليها السلام المقدس في الشام.

٢ - المرقد المنسوب إلى السيدة زينب عليها السلام في الشام له تاريخ عريق وقديم يعود إلى القرن الثاني للهجرة، وذلك أن السيدة نفيسة بنت حسن بن زيد بن الحسن المجتبى عليه السلام زوجة إسحق المؤتمن ابن الإمام الصادق عليه السلام جاءت لزيارة هذا المرقد آنذاك.

وقد زار هذا المشهد الرحالة أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير (المتوفى عام ٦١٤ هـ)

كما زارها الرحالة أبو عبد الله المعروف بابن بطوطة (المتوفى عام ٧٧٠ هـ) وكذلك الباحث عثمان بن أحمد الحوراني (المتوفى عام ٩٧٠ هـ أو عام ١٠٠٣ هـ) صاحب كتاب (الإشارات إلى أماكن الزيارات)، وأجمعوا على هذا الرأي بأن: «من مشاهد أهل البيت مشهد أم كلثوم بنت علي ويقال لها زينب الصغرى وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لشبهها بابنته أم كلثوم ومشهدها براوية على مقدار فرسخ ومشينا إليه وتبرَّكنا برؤيته»[٤١٩].

ويذكر الشيخ السابقي نقلا عن السيد محمد صادق بحر العلوم النجفي (المتوفى عام ١٣٥٣هـ) أن المتولي لحرم السيدة زينب عليها السلام في الشام وهو السيد عباس مرتضى أخرج له حجرا من أحجار القبر محفور بهذه العبارة: «هذا قبر السيدة زينب المكناة بأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب».

وقال العلامة السيد محسن الأمين العاملي: يوجد في قرية تسمى «راوية» على نحو فرسخ من دمشق إلى جهة الشرق قبر ومشهد يسمى «قبر الست» ووجد على هذا القبر صخرة رأيتها وقرأتها كتب عليها: «هذا قبر السيدة زينب المكنَّاة بأم كلثوم بنت سيدنا علي رضي الله عنه»، وليس فيها تاريخ وصورة خطها تدل على أنها كتبت بعد الستمائة من الهجرة[٤٢٠].

وينقل العالم الجليل السيد حسن حسون زيني حسين البراقي قائلا: في عام ١٣٠٢ هـ قال السيد سليم - وكان متوليا لقبر السيدة زينب عليها السلام - أنه حينما تهدمت القبة المنورة لمرقد السيدة زينب عليها السلام في ذلك العام (١٣٠٢ هـ) أمر والي دمشق وبمساعدة تجار البلدة بتعمير القبة تعميرا جذريا، وفي أثناء العمل كشف عن رخامة كبيرة الحجم (بطول القامة) وقد كتب عليها: «هذا قبر السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء، تُوُفِّيت في هذا المكان وأقبِرت في رجوعها الثاني»[٤٢١].

تحليل وتحصيل

لمزيد من الإيضاح نلفت انتباه القارئ إلى المطالب التالية:

١ - كما أشير سابقا وكرارا أن السيدة زينب الكبرى عليها السلام كانت مكناة بأم كلثوم، كناها بها جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك لشبهها بخالتها أم كلثوم.

٢ - على هذا كان لأمير المؤمنين علي عليه السلام ابنتان من الصدّيقة الزهراء عليها السلام، الأولى وهي زينب الكبرى عليها السلام المكناة بأم كلثوم، والأخرى هي أم كلثوم الصغرى وتلقب أحيانا بزينب الصغرى عليها السلام.

وكما ورد سابقا أنه كتب مرة على صخرة القبر «هذا قبر السيدة زينب المكناة بأم كلثوم»، ومرة أخرى لم يصرح بالكنية، وهذا يقوي الدليل بالقول أن قبر السيدة زينب عليها السلام في الشام.

٣ - ذكر في بعض الكتب مثل (بحر المصائب) و (نور الأبصار) و (لواقح الأنوار) و (الطراز المذهب) روايات متعددة وردت فيها رجوع زينب الكبرى عليها السلام إلى الشام[٤٢٢].

٤ - ذكر المحدث والفقيه المشهور ابن عساكر (أبو القاسم علي بن حسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي المتوفى عام ٥٧١ هـ) في كتابه (تاريخ دمشق) وبمناسبة وجود قبر عبدالله بن جعفر في دمشق أن: في مقبرة باب الصغير في دمشق، وبجانب قبر بلال الحبشي، يوجد قبر معروف بأنه قبر عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، زوج زينب عليها السلام[٤٢٣].

وعلى فرض ثبوت هذا الأمر، فهذا دليل آخر بأن السيدة زينب عليها السلام كانت في أواخر عمرها مقيمة في الشام، لأنه يبعد أن يكون عبد الله بن جعفر قد قدم إلى الشام وترك زوجته زينب عليها السلام في المدينة.

٥ - علاوة على الأمور الظاهرية التي طرحناها سابقا، هناك أمور معنوية تدل على وجود قبر زينب عليها السلام الشريف في الشام، مثل وجود محل دفن الرؤوس المقدسة لشهداء كربلاء منها رأس أبي الفضل العباس وعلي الأكبر والقاسم عليهم السلام (ستة عشر رأسا)، وكذلك وجود المرقد المنور للسيدة رقية بنت الحسين عليه السلام، و.... و....، مما دعا زينب عليها السلام للسفر إلى الشام لزيارة هذه الأماكن المقدسة.

تصريح صاحب الزمان (عج) بوجود قبر زينب عليها السلام في الشام

ومن الآثار العجيبة التي تدل على وجود قبر السيدة زينب عليها السلام في الشام هي القصة التي تبين تصريح صاحب الأمر (عج) بهذا الأمر والتي نقلت عن الكتب المعتبرة:

نقل الواعظ المشهور المرحوم الحاج محمد رضا سقا زاده في مقدمة كتاب الخصائص الزينبية عن لسان المرحوم آية الله العظمى الملا علي الهمداني رحمه الله والذي كان من الشخصيات العلمية والروحانية البارزة في مدينة همدان بإيران أن:

آية الله العظمى المرحوم آقا ضياء العراقي - من مفاخر العلماء والمجتهدين ومن تلامذة الآخوند

الخراساني البارزين وأستاذ كثير من المراجع والفقهاء في هذا العصر (المتوفى عام ١٣٦١ هـ) - يقول:

جاء رجل من القطيف وكان من شيعة أهل البيتعليهم السلام إلى خراسان قاصدا زيارة الإمام الرضاعليه السلام، وفي طريقه فَقَدَ كل أمواله وبقي في حيرة من أمره، هنالك توسل بذيل عنايات صاحب الزمان (عج) - أرواحنا له الفداء - وأخذ يستغيث به، وإذا هو برجل نوراني ذي هيبة أقبل إليه وأعطاه مبلغا من المال وقال له: هذا المبلغ من المال سيوصلك إلى سامراء، وفي سامراء تذهب إلى وكيلنا الحاج الميرزا حسن الشيرازي (أي آية الله العظمى الميرزا محمد حسن الشيرازي صاحب تحريم التنباكو، المتوفى في سامراء عام ١٣١٢ هـ والمدفون في النجف الأشرف)، وتقول له أن السيد مهدي يقول لك: لنا عندك بعض الحقوق من الأموال، أعطني مبلغا من هذا المال أنفقه في سفري لزيارة جدي ثامن الحجج الإمام الرضاعليه السلام.

يقول هذا الرجل القطيفي: في تلك اللحظة لم أستوعب من هو ذلك السيد النوراني ومن أين أتاني!! فقلت له: إذا سألني آية الله الشيرازي من هو السيد مهدي، فبماذا أجيبه؟! وما هي العلامة التي يصدق بها كلامي؟!

فقال السيد: قل للسيد الشيرازي أن السيد مهدي يقول لك في صيف هذا العام كنتَ والملا علي كني الطهراني في الشام، وتشرفتما بزيارة حرم عمتي زينب الكبرىعليها السلام، ونظرا للزحام الشديد من قِبَل الزائرين في تلك الأيام والذين كانوا يتركون القمامة في الحرم، رميت عباءك جانبا وأخذت تكنس الحرم وتجمع القمامة في زاوية، ثم أخذ الملا علي الكني الطهراني القمامة بيديه وأخرجها من الحرم الشريف، وكنت واقفا أراهما!!

ثم يقول الرجل القطيفي: وما أن قلت ذلك الحديث لآية الله الميرزا الشيرازي فزع من مكانه وعانقني وقَبَّل عيناي وهنأني وأعطاني مبلغا من المال ثم سافرت إلى خراسان.

وبعد فترة من الزمان سافرت إلى طهران وذهبت إلى الملا علي الكني وحدثته بتلك الحكاية، فصدَّقني الحديث ولكن قلبه كان متألما ومتأثرا وذلك لأنه كان يرى في نفسه أن الإمام المهدي (عج) لم يجده أهلا لإرسال تلك الرسالة إليه ولم ينل شرف تلك المنزلة العظيمة التي نالها الميرزا الشيرازي[٤٢٤].

بعض كرامات السيدة زينب الكبرى عليها السلام

إشارة

إن العظماء وأولياء الله والعارفين الكُمَّلين لما أخلصوا بنيّاتهم كمال الإخلاص وسلكوا بأنفسهم مسالك اليقين تُوجت أرواحهم ا بألطاف إلهية رفيعة وفيوضات رحمانية وسيعة، فكانت أنوارا تستضيء بها النفوس وتصفو لها القلوب وترنو إليها الأبصار، وكانت سبل النجاة وأعلام الهداية.

وتشمل تلك الفيوضات أيضا الجوانب المادية (وهي مقدمة للجوانب المعنوية)، وبفضل العنايات الخاصة على أثر الأدعية والأذكار تقضى حوائج السائلين وتستجاب دعوة المضطرين ويهلك بها الأعداء المعاندين، وهذا ما يسمى للأنبياء بالمعجزة وللأولياء بالكرامة.

ونذكر فيما يلي بعض من فيض كرامات السيدة الجليلة والعالمة العقيلة زينب الكبرى عليها السلام:

١ - هلاك الرجل الشامي بدعوة زينب عليها السلام عليه

روي أنه حينما دعا يزيد بأهل البيت عليهم السلام وأجلسوا بين يديه قام رجل شامي وكان من الوقاحة أن أشار إلى فاطمة بنت الحسين عليه السلام وقال ليزيد: يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية، فغضبت زينب عليها السلام وردت عليه وعلى يزيد بما يليق بهما، ثم عاد الشامي بطلبه ثانية، هنالك ردت عليه زينب عليها السلام قائلة: «اسْكُتْ يا لَكَعَ الرِّجال، قَطَعَ اللهُ لِسانَك وأعْمَى عَينَك وأيْبَس يَدَيك وجَعَل النار مَثْواك، إنَّ أولادَ الأنبياء لا يكونون خَدَمَةً لأولادِ الأدْعياء».

يقول الراوي: فو الله ما استتم كلامها حتى أجاب الله دعاءها في ذلك الرجل.

ثم قالت زينب عليها السلام: «الحَمْدُ لله الذي عَجَّلَ لك العُقوبةَ في الدُّنْيا قَبْلَ الآخِرَةِ، فهذا جَزاءُ مَنْ يتعَرَّضْ لحَرَمِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه»[٤٢٥].

٢ - صناع المعدن يفقدون رأس مالهم

لما سار جند ابن زياد بسبايا آل محمد صلى الله عليه وآله من الكوفة إلى الشام مروا على جبل اسمه جوشن (جبل يطل على حلب)، وكانت زوجة الحسين عليه السلام حاملا بولد اسمه محسن، ونظرا لمشقة الطريق وشدة العطش أسقطت (وهناك مشهد يسمى بـ«مشهد السقط»).

يروى أن السيدة زينب عليها السلام رأت في ذلك الجبل معدن الصفر ومنه يحمل النحاس وكان هناك صناع يشتغلون بهذا المعدن، فذهبت إليهم وطلبت للعيال خبزا وماء وبعض الحوائج فشتموها وأهلها ومنعوها، فتأثرت زينب عليها السلام كثيرا ودعت عليهم ومن ذلك اليوم فُقد ذلك المعدن ومن كان يعمل فيه لم يربح!! وفي رواية أخرى قريبة المضمون من الرواية الأولى: كان هناك جبل اسمه جبل حرّان وكان هناك رجال يعملون في هذا الجبل منعوا أهل البيت عليهم السلام الماء والخبز ودفعوهم بقسوة، فدعت عليهم زينب الكبرى عليها السلام ونزلت عليهم صاعقة فأحرقتهم عن بكرة أبيهم[٤٢٦].

٣ - سقوط القصر وهلاك المرأة العجوز

في مسير أهل البيت عليهم السلام من الكوفة إلى الشام وصلوا إلى منزل اسمه «قصر العجوز» نسبة إلى عجوز اسمها «أم حجام» وكانت تَكِنُّ لآل الرسول صلى الله عليه وآله الحقد والعداوة.

وفي رواية أن تلك الملعونة لما رأت رأس الحسين عليه السلام وهو على رمح طويل وشيبته مخضوبة بالدماء قالت: لمن هذا الرأس المتقدم وما هذه الرؤوس التي خلفه؟! فقالوا لها: هذا رأس الحسين عليه السلام وهذه رؤوس أصحابه، ففرحت فرحا عظيما وقالت: ناولوني حجرا لأضرب به رأس الحسين، فإن أباه قتل أبي وبَعلي، فناولوها حجرا فضربت به وجه الحسين عليه السلام وقيل ضربت به ثنايا الحسين عليه السلام فأدمته وسال الدم على شيبته، فالتفتت إليه زينب عليها السلام فرأت الدم سائلا على وجهه وشيبته، فلطمت وجهها وشقت أزياقها ونادت: «واغَوثاه!! وامُصيبَتاه!! وامُحَمَّداه!! واعَلَيّاه!! واحَسَناه!! واحُسَيناه!!»، ثم غشي عليها فلما أفاقت قالت: من فعل هذا بأخي ونور عيني؟! فقيل لها: هذه العجوز، فقالت عليها السلام: «اللَّهُم اهْجِمْ عليها قَصْرها وأحْرِقْها بنار الدنيا قَبْل نار الآخِرةِ».

يقول الراوي: فو الله ما استتم كلامها إلا وسقط عليها وأضرمت النار فيها، فماتت ومات من معها واحترقوا من ساعتهم[٤٢٧].

٤ - دعاء زينب عليها السلام لأهل سيبور

يقول الراوي: لما وصل القوم بالسبايا والرؤوس إلى مدينة «سيبور» أغلق أهل البلد في وجوه

القوم أبواب بلدهم وكان فيها شيخ كبير فجمع المشايخ والشبان وقال لهم: يا قوم إن الله تعالى كره الفتنة وقد مر هذا الرأس في جميع البلدان ولم يعارضه أحد فدعوه يجوز في بلدكم، فقال الشبان: و الله لا كان ذلك أبدا، ثم عمدوا إلى القنطرة وقطعوها فخرجوا عليهم شاكين في السلاح، فقال لهم خولي لعنه الله إليكم عنا، فحملوا عليه وعلى أصحابه وقاتلوهم قتالا شديدا، فقالت زينب عليها السلام: ما يقال لهذه المدينة؟! فقالوا: سيبور، فقالت: أعذب الله تعالى شرابهم وأرخص أسعارهم ورفع أيدي الظلمة عنهم.

فلو أن الدنيا مملوءة ظلما وجورا لما نالهم إلا قسطا وعدلا[٤٢٨].

٥ - شفاء السيد السلطان آبادي من مرض في عينه

العلامة الشيخ ميرزا حسين النوري الطبرسي صاحب (مستدرك الوسائل) إمام أئمة الحديث والرجال في الأعصار المتأخرة ومن أعاظم علماء الشيعة ينقل عن السيد محمد باقر السلطان آبادي وهو من كبار العلماء حيث يقول:

كنت في مدينة بروجرد وابتليت بمرض شديد في عيني اليمنى، وورمت عيني إلى درجة أني لم أتمكن من فتحها، ومن شدة المرض لم أستطع النوم فراجعت الأطباء ولكنهم عجزوا عن معالجتي، فمنهم من قال لي أن العلاج يطول ستة أشهر وبعضهم قال أن العلاج يطول أربعين يوما، حزنت كثيرا.

وذات يوم جاءني أحد الأصدقاء وقال لي: أنا عازم على السفر إلى كربلاء لزيارة قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام، تعال معي وتوسل بالإمام عليه السلام ليشفيك بإذن الله تعالى، فقلت له: كيف أسافر وأنا على هذا الحال!! لابد أن أستشير الطبيب في ذلك.

يقول: ولما راجعت الطبيب منعني من السفر وقال لي: السفر ليس في صالحك وإذا سافرت ففي المنزل الثاني في طريق سفرك سوف تفقد بصرك!!

فرجعت إلى البيت، ثم عادني أحد أصدقائي وقال لي: إن مرضك هذا لن يشفيه إلا تربة كربلاء وتربة الشهداء وعيادة أولياء الله.

ثم أخذ صديقي يشرح لي حاله حينما كان يشتكي من اضطراب في قلبه قبل تسع سنين وبعد أن يئس الأطباء من شفائه لجأ إلى تربة الحسين عليه السلام فشفي.

توكلت على رب العالمين والتحقت بالحملة المتجهة إلى كربلاء، ولما وصلت إلى المنزل الثاني اشتد المرض وعلى أثر ذلك انتقل الألم إلى عيني اليسرى، فلامني من كان معي في السفر واقترحوا عليَّ أن أرجع من حيث جئت.

كنت في حيرة من أمري، حتى أقبل الليل، وأثناء السحر خفَّ الألم فغفوت غفوة، فرأيت في عالم الرؤيا الصدِّيقة الصغرى زينب الكبرى عليها السلام، فتشرفت في محضرها، ثم أخذت بطرف مقنعتها ومسحت بها عيني.

فزعت من نومي وإذا بعيناي قد شفيتا!!

ذهبت إلى أصدقائي ومن كان معي في السفر وقصصت عليهم الرؤيا ولما نظروا في عيني لم يجدوا أي أثر من المرض.

المحدث النوري ينقل رواية أخرى مشابهة في شفاء الملا فتحعلي سلطان آبادي وكان من الأوتاد وكبار العرفاء[٤٢٩].

٦ - بركة اسم زينب عليها السلام

يرى بعض العرفاء أن كل حرف من حروف اسم زينب عليها السلام له رمز ومعنى:

«ز» إشارة إلى أمها الزهراء عليها السلام،

«ي» إشارة إلى والدها الإمام علي عليه السلام،

«ن» إشارة إلى أخويها الحسن والحسين عليهما السلام،

«ب» إشارة إلى كلمة النبي الأمي العربي، جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٤٣٠].

وعلى هذا تكون السيدة زينب عليها السلام عصارة الكمالات الروحانية والأنوار الإلهية للخمسة أصحاب الكساء عليهم صلوات الله وسلامه، حتى لُقِّبت بالصدِّيقة الصغرى.

ولما كانت أسماء الخمسة الأطهار ذات آثار طيبة، ومن حيث أن اسم زينب عليها السلام التي سميت به من قِبَل الله تبارك وتعالى وثبوته في اللوح المحفوظ كان مجمعا لتلك الأسماء الخمسة المباركة، على هذا يكون لاسمها الشريف أثر طيب في استجابة الدعاء ونيل الكرامات.

من المشهور أن العالم الكبير آية الله العظمى الميرزا القمي (الميرزا أبو القاسم الكيلاني المعروف بالميرزا القمي صاحب كتاب قوانين الأصول ومن المراجع البارزين وصاحب كرامات، متوفى عام ١٢٣١ هـ في قم المقدسة، وقبره في مقبرة شيخان ملجأ للملهوفين والمحتاجين) كان يرى في اسم زينب عليها السلام المقدس خصوصية ونورانية فكان يتوسل إلى الله عز وجل باسم زينب عليها السلام لاستجابة الدعاء[٤٣١].

ومن وراء هذا الاعتقاد قصة حقيقية نلفت انتباهكم إليها:

العالم المحقق المرحوم حجة الإسلام السيد علي نقي فيض الإسلام مترجم كتاب نهج البلاغة

وكذلـك الصحيفـة السـجادية والقـرآن الكريم (ولد عـام ١٣٢٤ هــ في مدينة إصفهـان وتوفي عام ١٤٠٥ هــ بعدمـا ناهـز الواحد والثمانين مـن عمره)، ومنَّ الله تبـارك وتعالى بالبركـة في عمره فألف وترجـم كتبا كثـيرة من جملتها كتاب (خاتون دوسرا) - بالفارسـية - ترجمة كتاب (سـيدتنا المعصومة زينب الكبرى عليها السلام)، وذكر في مقدمة هذا الكتاب السـبب الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب وملخصه ما يلي:

يقـول: كنـت مبتلى بمرض شـديد عجز عـن معالجته الأطباء، واشـتد علي المرض، وطلباً للشـفاء غـادرت مع عائلتـي إلى كربلاء ولكن لم أحصل على نتيجة، فتوجهت إلى النجف الأشرف وتوسـلت بذيـل عنايـات أمير المؤمنين علي عليه السلام، ولكن لم يكن لشـفائي أي أثر، وذات يـوم دعاني أحد الأصدقاء وجَمْع من العلماء إلى بيته، ولما دخلنا بيته وجلسنا قال لي أحد العلماء: إن والدي كان يقول دائما إذا كانت لكم حاجة إلى الله سـبحانه وتعالى فتوسـلوا إليه باسم السـيدة زينب الكبرى عليها السلام ثلاث مرات وتقضى حوائجكم بإذنه تعالى.

توسـلت إلى الله عز وجل بمقام السـيدة زينب عليها السلام ثلاث مرات وطلبت منه الشـفاء، وعلاوة على ذلـك نذرت لله تعالى إذا منَّ علي بالشـفاء أن أؤلف كتابا عن حياة السـيدة زينب الكبرى عليها السلام، وبحمد الله ومنِّه وبعد فترة وجيزة شـُفيت من دائي ووفيت بنذري وألفت هذا الكتاب (خاتون دوسرا) وهو ترجمة لكتاب (سيدتنا المعصومة زينب الكبرى عليها السلام).

الخاتمة

وتتضمن زيارة السيدة زينب الكبرى عليها السلام

ونعطر خاتمة الكتاب بذكر زيارة تلك النجمة المضيئة في سماء الرسالة المحمدية والولاية العلوية العقيلة الحوراء زينب الكبرى عليها السلام سائلين المولى جل ثناؤه وتقدست أسماؤه أن يجعلنا من شيعتها ومحبيها وأن يرزقنا في الدنيا زيارتها وفي الآخرة شفاعتها والحشر في زمرتها مع آلها الأطهار والنجباء الأخيار:

السَّلامُ عَلَيكِ يا بنْتَ بَضْعَةِ خاتَمِ النبيِّين وسَيِّدِ المُرْسَلين السَّلامُ عَلَيكِ يا سُلالَةَ مَنْ لا تُحْصَى فَضائِلُهُ ولا تُسْتَقْصَى مَناقِبُهُ السَّلامُ عَلَيكِ يا نَبْعَةَ المَبْعوثِ بالرِّسالَةِ ومُنْقِذِ العِبادِ مِنَ الجَهالَةِ وحَيْرَةِ الضَّلالَةِ والعَظيمِ المُظَلَّلِ بالغَمامِ والنورِ المُهْتَدَى بِهِ في اللَّيالي والأيَّام حَبيبِ إلَهِ العالَمينَ سَيِّدِنا أبي القاسِمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ورَحْمَةُ الله وبَرَكاتُهُ السَّلامُ عَلَيكِ يا ابْنَةَ سَيِّدِ الأوْصِياءِ ورُكْنِ الأوْلياءِ وعِمادِ الأصْفياءِ أميرِ المُؤمِنينَ ويَعْسوبِ المُتَّقينَ وقُدْوَةِ الصِّدِّيقينَ وإمامِ الصَّالِحينَ ورَحْمَةُ الله وبَرَكاتُهُ السَّلامُ عَلَيكِ يا ابْنَةَ أفْضَلِ الأوْلياءِ وأوَّلِ السَّابِقينَ لِدينِ الله وأوْفاهُمْ لِرَسولِ الله السَّلامُ عَلَيكِ يا ابْنَةَ صاحِبِ بَيْعَةِ يَوْمِ الغَديرِ والمُشْتَقِّ اسْمُهُ مِنِ اسْمِ العَلِيِّ القَديرِ قائِدِ البَرَرَةِ وقاتِلِ الكَفَرَةِ وقامِعِ الفَجَرَةِ والمَنْدوبِ في الشَّدائِدِ والمَشْهودِ بِحَقِّهِ في مُخْتَلَفِ المَشاهِدِ ومَنْ أخْلَصَ للهِ تعالَى بِقَلْبِهِ ولِسانِهِ ونَصَرَ الحَقَّ بِسَيْفِهِ وسِنانِهِ السَّلامُ عَلَيكِ يا سَليلَةَ السَّيِّدِ الأكْبَرِ والشَّافِعِ بِيَوْمِ المَحْشَرِ والساقي مُحِبِّيهِ مِنْ نَهْرِ

الكَوثَرِ السَّلامُ عَلَيكِ يا بِنْتَ حَيْدَرٍ الكَرَّارِ وخَليفَةِ المُخْتارِ وقَسيمِ الجَنَّةِ والنارِ وصَاحِبِ الحَوْضِ وحامِلِ اللِّواءِ في يَوْمِ الجزاءِ وإمامِ المُتَّقينَ أميرِ المُؤمِنتينَ عَلِيِّ بْنِ أبي طالِبٍ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ السَّلامُ عَلَيكِ يا مُهْجَةَ قَلْبِ البَتولِ وقُرَّةَ عَيْنِ الرَّسولِ يا حَبيبَةَ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ ورَبيبَةَ بَيْتِ وَحْيِ اللهِ وشَقيقَةَ السِّبْطَينِ الحَسَنِ والحُسَيْنِ وعَمَّةَ الأئمَّةِ المَيامينَ مِنْ آلِ طَهَ ويَاسينَ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ السَّلامُ عَلَى ابْنَةِ مَكَّةَ ومِنَى وزَمْزَمَ والصَّفا سَلامٌ عَلَى مَنْ جَدُّها مُحَمَّدٌ المُصْطَفَى وأبُوها عَلِيٌّ المُرْتَضَى وأمُّها فاطِمَةُ الزَّهْراءِ سَيِّدَةُ النِّساءِ السَّلامُ عَلَى ابْنَةِ الدلائِلِ الواضِحاتِ والآياتِ البَيِّناتِ والمُعْجِزاتِ الباهِراتِ والبَراهينِ الظاهِراتِ السَّلامُ عَلَى المَولودَةِ في مَعْقِلِ العِصْمَةِ والتُّقَى ومَهْبَطِ الوَحْيِ والهُدَى والمَوْروثَةِ عَظيمَ الفَضْلِ والنَّدَى سَلامٌ عَلَى المَرْأةِ الصالِحَةِ والمُجاهِدَةِ الناصِحَةِ والحُرَّةِ الأبِيَّةِ واللَّبُوَةِ الطالِبِيَّةِ والمُعْجِزَةِ المُحَمَّدِيَّةِ والذَّخيرَةِ الحَيْدَرِيَّةِ والوَديعَةِ الفاطِمِيَّةِ السَّلامُ عَلَى مَنْ أطاعَتِ اللهَ تَعالَى في السِّرِّ والعَلَنِ وتَحَدَّتْ بِمَواقِفِها أهْلَ النِّفاقِ والفِتَنِ السَّلامُ عَلَى مَنْ أرْهَبَتِ الطُّغاةَ في صَلابَتِها وأدْهَشَتِ العُقولَ بِرَباطَةِ جَأشِها ومَثَّلَتْ أباها عَلِيّاً بِشَجاعَتِها وأشْبَهَتْ أمَّها الزَّهْراءَ في عَظَمَتِها وبَلاغَتِها السَّلامُ عَلَى المَنْسوبَةِ لأسْرَةِ النُّبُوَّةِ والإمامَةِ والمَوْهوبَةِ وِسامَ الشَّرَفِ والمَجْدِ والكَرامَةِ السَّلامُ عَلَى مَنْ رُضِعَتْ بِلُبانِ الإيمانِ وتَرَبَّتْ بِتِلاوَةِ القُرْآنِ فَشاعَ فَخْرُها بِكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ ويَتَمَجَّدُ باسْمِها لِسانُ كُلِّ إنْسانٍ السَّلامُ عَلَى مَنْ حَباها الجَليلُ جَلَّ اسْمُهُ بالصِّفاتِ الحَميدَةِ وزادَها قُوَّةً وثَباتاً عَلَى الدِّينِ والعَقيدَةِ وشَدَّ اللَّهُ عَزْمَها في مَواطِنِ المِحَنِ الشَّديدَةِ وألْهَمَها جَميلَ الصَّبْرِ وأكْرَمَها جَزيلَ الأجْرِ سَلامٌ عَلَى مَنْ أحْيَتْ لَياليها بالتَّهَجُّدِ والعِبادَةِ فَنالَتْ مِنَ اللهِ أعْلَى دَرَجاتِ السَّعادَةِ سَلامٌ عَلَى مَنْ أوْلاها الإمامُ زَيْنُ العابِدينَ عَلَيهِ السَّلامُ بِشَهادَتِهِ إذْ قالَ مُخاطِباً لِعَمَّتِهِ «أنْتِ عالِمَةٌ غَيْرُ مُعَلَّمَةٍ وفَهِمَةٌ غَيْرُ مُفَهَّمَةٍ» سَلامٌ عَلَى الأخْتِ التي واسَتْ أخاها في مُهِمَّتِهِ وشارَكَتْهُ في نَهْضَتِهِ وتَباهَتْ بالإسْلامِ وعِزَّتِهِ سَلامٌ عَلَى مَنْ ناصَرَتِ الحُسَيْنَ في جِهادِهِ ولَمْ تَضْعُفْ عَزيمَتُها بَعْدَ اسْتِشْهادِهِ سَلامٌ عَلَى قَلْبِ زَيْنَبَ الصَّبورِ ولِسانِها الشَّكورِ سَلامٌ عَلَى

مَـنْ تـظـافَـرَتْ عَـلَـيْـها الـمَـصـائِبُ والـكُـروبُ وذاقَـتْ مِـنَ الـنَّـوائِـبِ ما تَذوبُ مِـنْـها الـقُـلـوبُ سَـلامٌ عـلَـى مَـنْ تـجَـرَّعَـتْ غُـصَـصَ الآلامِ والـمَـآسـي ومـا لاتـقْـوَى عَـلَـى احْـتِـمـالِـهـا الـجـبـالُ الـرَّواسِـي فَـأصْـبَـحَـتْ لِـلـبَـلايا قِـبْـلَـتَـهـا ولِـلـرَّزايـا كَـعْـبَـتَـهـا سَـلامٌ عَـلَـى مَـنْ شَـاطَـرَتْ أمَّـهـا الـزَهْـراءَ في ضُـروبِ الـمِـحَـنِ والأرْزاءِ ودارَتْ عَـلَـيْـهـا رَحَـى الـكَـوارِثِ والـبَـلاءِ يَـوْمَ كَـرْبَـلاء سَـلامٌ عَـلَـى مَـنْ عَـجِـبَـتْ مِـنْ صَـبْـرِها مَـلائِـكَـةُ الـسَّـمـاءِ سَـلامٌ عَـلَـى مَـنْ فُـجِـعَـتْ بـجَـدِّهـا وأَبـيـهـا وأمِّـهـا وبَـنـيـهـا والـخِـيَـرَةِ مِـنْ أهْـلِـهـا وذويـهـا أبْـكـي عَـلَـى زَيْـنَـبَ الـكُـبْـرَى وكُـرْبَـتِـهـا أبْـكـي عَـلَـى زَيْـنَـبَ الـثَّـكْـلَـى وغُـرْبَـتِـهـا أبْـكـي عَـلَـى زَيْـنَـبَ حُـزْنـاً لِـمِـحْـنَـتِـهـا أبْـكـي عَـلَـى هَـضْـمِـهـا مِـنْ بَـعْـدِ عِـزَّتِـهـا أبْـكي عَـلَـى الـمَـظْـلـومَـةِ الـغَـريـبَـةِ أبْـكَـي عَـلَـى الـمَـحْـزونَـةِ الـكَـئـيـبَـةِ أبْـكـي عَـلَـى مَـنْ داهَـمَـتْـهـا الـدُّنْـيـا بـالـمَـشـاهـدِ الـرَّهـيـبَـةِ ولَـمْ تُـشْـبـهْ مُـصـيـبَـتَـهـا مُـصـيـبَـةٌ أبْـكـي عَـلَـى مَـنْ عـايَـنَـتْ أشْـلاءَ الـضَّـحَـايا مُـجَـزَّريـنَ عَـلَـى صَـعـيـدِ الـمَـنـايـا ورَأتْ مَـصـارِعَ الـشُّـهَـداءِ مِـنْ عَـشـيـرَتـهـا وإخْـوَتـهـا وبَـنـي عُـمـومَـتِـهـا قَـدْ فَـرَّقَ الـسَّـيْـفُ بَـيْـنَ الـرُّؤوسِ مِـنْـهُـمْ والأبْـدانِ وحَـرارَةُ الـشَّـمْـسِ قَـدْ غَـيَّـرَتْ مِـنْـهُـمُ الألْـوانَ وبَـيْـنَـهُـمْ رَيْـحـانَـةُ الـمُـصْـطَـفَـى سَـيِّـدُ شَـبابِ أهْـلِ الـجَـنَّـةِ صَـريـعـاً عَـلَـى الـرَّمْـضـاءِ فَـأجْـهَـشَـتْ بـالـبُـكـاءِ ونـادَتْ بـهَـذا الـدُّعـاءِ: «إلَـهـي تَـقَـبَّـلْ مِـنـَّا هَـذا الـقُـرْبـانَ» ثُـمَّ انْـثَـنَـتْ شـاكِـيَـةً وَجْـدَهـا إلَـى جَـدِّهـا وهِـيَ تـقـولُ: «يـا مُـحَـمَّـداه هَـذا حُـسَـيْـنٌ بـالـعَـراءِ مُـرَمَّـلٌ بـالـدِّمـاءِ مُـقَـطَّـعُ الأعْـضـاءِ وبَـنـاتُـكَ سَـبـايـا وذرِيَّـتُـكَ مُـقَـتَّـلَـةٌ» أبْـكي عَـلَـى مَـنْ أبْـكَـتْ كُـلَّ عَـدُوٍّ وصَـديـقٍ حَـتَّـى جَـرَتْ دُمـوعُ الـخَـيْـلِ عَـلَـى حَـوافِـرِهـا أبْـكـي عَـلَـى مَـنْ أبْـعَـدَهـا الـزَّمـانُ عَـنْ الأهْـلِ والأوْطـانِ وطـافَ بـهـا الأعْـداءُ سَـبِـيَّـةً فـي الـبُـلْـدانِ وسَـرَوا بـهـا أسـيـرَة مِـنَ الـكـوفَـةِ إلـى الـشَّـامِ بـجَـمْـعٍ مِـنَ الأرامِـلِ والأيْـتـامِ الـسَّـلامُ عَـلَـى عَـزيـزَةِ الـصِّـدِّيـقَـةِ الـزَّهْـراءِ وابْـنَـةِ خَـديـجَـةَ الـكُـبْـرَى الـسَّـلامُ عَـلَـى مَـنْ أصْـبَـحَ حَـرَمُـهـا مَـوْئِـلَ آمـالِ الآمِـلـيـن ومُـلْـتَـقَـى وُفـودِ الـزائـريـن ويَـتَـمَـسَّـكُ بـضَـريـحِـهـا جَـمـيـعُ الـمُـحِـبِّـيـن والـمُـحْـتـاجـيـنَ ويَـؤُمُّ قَـبْـرَهـا الـخَـلائـقُ في كُـلِّ حـيـنٍ سَـلامٌ عَـلَـى سَـيِّـدَتِـنـا ومَـوْلاتِـنـا زَيْـنَـبَ بِـنْـتِ أمـيـرِ المُـؤمِـنـيـنَ عَـلِـيِّ بْـنِ أبـي طـالِـبٍ ورَحْـمَـةُ اللهِ وبَـرَكـاتـهُ[٤٣٢].